بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء السابع عشر

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم
الأنفال ٨/٢٤

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي
رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق

الجزء السابع عشر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

مكية ، وهي مائة واثنتا عشرة آية

تسميتها :

سميت سورة الأنبياء لتضمنها الحديث عن جهاد الأنبياء المرسلين مع أقوامهم الوثنيين ، بدءا من قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بإسهاب وتفصيل ، ثم إسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذي الكفل ، وذي النون : يونس ، وزكريا ، وعيسى ، إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليهم ، وذلك بإيجاز يدل على مدى ما تعرضوا له من أهوال وشدائد ، فصبروا عليها ، وضحوا في سبيل الله ، لإسعاد البشرية.

مناسبتها لما قبلها :

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من ناحيتين :

الأولى :

الإشارة إلى قرب الأجل المسمى للعذاب ، ودنو الأمل المنتظر ، فقال تعالى في آخر سورة طه : ﴿**وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى**﴾ ثم قال : ﴿**قُلْ : كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا**﴾ وقال تعالى في مطلع هذه السورة : ﴿**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ**﴾.

والثانية :

التحذير من الاغترار بالدنيا ، والعمل للآخرة ، فقال تعالى في آخر سورة طه : ﴿**وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا ..**﴾ فإن قرب الساعة يقتض الإعراض عن زهرة الحياة الدنيا ؛ لدنوها من الزوال والفناء ، وختمت سورة الأنبياء بمثل ما بدئت به السورة المتقدمة ، فأبان الله تعالى أنه بالرغم من قرب الساعة والحساب ، فإن الناس غافلون عنها ، ولاهون عن القرآن والاستماع إليه.

فضلها ومزيتها :

ورد في فضل هذه السورة أحاديث صحاح منها :

ما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود قال : «بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء : هن من العتاق الأول ، وهن من تلادي» أي من قديم ما حفظ من القرآن ، كالمال التّلاد.

ولما نزلت هذه السورة قيل لعامر بن ربيعة ﷺ : هلا سألت النبي ﷺ عنها؟ فقال: «نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا».

مشتملاتها :

موضوع السورة بيان أصول العقيدة الإسلامية ومبادئها وهي التوحيد ، والرسالة النبوية ، والبعث والجزاء ، وقد بدأت بوصف أهوال القيامة ، ثم ذكرت قصص جملة من الأنبياء الكرام عليهم السلام ، كما تقدم.

كانت البداية مرهبة مرعبة ، منذرة محذّرة بقرب قيام الساعة ، والناس لاهون غافلون عنها وعن خطورة الحساب والعقاب ، معرضون عن سماع القرآن ، مفتونون بلذائذ الحياة الدنيا.

ثم أوضحت السبب في إنكار المشركين في مكة نبوة محمد ﷺ وهو أنه بشر مثلهم ، وعجزه عن الإتيان بآيات فذة ومعجزات باهرة مادية ، كما أتى بها الأنبياء السابقون مثل موسى وعيسى ، فرد القرآن عليهم بأن الأنبياء جميعا كانوا بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ثم أنذرهم بالإهلاك ، كما أهلك بعض الأمم المتقدمة لتكذيبهم رسلهم ، ولفت أنظارهم إلى عظمة خلق السموات والأرض ، وإلى أن الملائكة طائعون لله ، منقادون لأمره ، ينفّذون ما أمروا به من التعذيب بسرعة لا تعرف التردد والانتظار ، ونعى على من ادعى أنهم بنات الله تعالى.

ثم ناقشهم القرآن في اتخاذهم آلهة من دون الله ، وطالبهم بالدليل على ادعائهم ، وأقام البرهان على وحدانية الله ؛ إذ لو كان في السماء والأرض آلهة إلا الله لفسدتا ، ووصف النشأة الأولى للسموات والأرض ، وأنهما كانتا رتقا ففصلتا ، وأبان أن الجبال أوتاد للأرض حتى لا تميد بأهلها ، وأن الله تعالى خالق الليل والنهار والشمس والقمر ، ثم تكون النهاية الموت والفناء لكل شيء ، حتى للملائكة والأنبياء ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، وأوضح أن استعجال الكافرين العذاب غباء وطلب في غير محله ؛ فإن العذاب قريب ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنها تأتيهم بغتة فتبهتهم ، وأن موازين الحساب دقيقة وفي أتم عدل ، فلا يبخس أحد شيئا من حقه ، ولا يظلم إنسان مثقال حبة من خردل.

وتحقيقا لهاتيك الغايات وتأكيدا عليها ، جاءت الأمثال الواقعية تنذر وتذكّر ، من خلال إيراد قصص بعض الأنبياء كموسى وهارون ، وإبراهيم ولوط ، وإسحاق ويعقوب ، ونوح ، وداود وسليمان ، وأيوب وإسماعيل ، وإدريس وذي الكفل ، ويونس وزكريا ويحيى ، وعيسى عليهم السلام .

وأثبت القرآن عقب ذلك وحدة مهام الأنبياء وهي الدعوة إلى عبادة الله ، وتطمين المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن ، وأن الأمم المعذبة في الدنيا سترجع حتما إلى الله في الدار الآخرة لعذاب آخر.

ومن علائم الساعة انفتاح سد يأجوج ومأجوج.

وفي القيامة عذاب شديد ، وأهوال شديدة يلقاها الكفار ، وأنهم مع أصنامهم حطب جهنم ، وفيها تتبدل الأرض غير الأرض وتطوى السموات كطي الكتب ، ويحظى الصالحون بالنعيم الأبدي ، ويرث الأرض من هو أصلح لعمارتها.

وختمت السورة ببيان كون النبي ﷺ رحمة للعالمين ، وأنه أوحي إليه بأن الإله واحد لا شريك له ، وأنه يجب الانقياد لحكمه ، وأنه ينذر الناس بعذاب قريب وأن مجيء الساعة واقع محتم ، وأن الإمهال به وتأخير العقوبة امتحان واختبار ، وأن الله يحكم بين النبي ﷺ وبين أعدائه المشركين ، وأنه المستعان على افتراءاتهم واتهاماتهم.

غفلة الناس عن الحساب يوم القيامة ودليل ذلك

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾

الإعراب :

﴿مُحْدَثٍ﴾ صفة ﴿ذِكْرٍ﴾ وأجاز الفرّاء رفعه على النعت حملا على موضع ﴿مِنْ ذِكْرٍ﴾ و ﴿مِنْ﴾ : زائدة ، مثل قوله تعالى : ﴿ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٩ وغيرها] وأجاز الكسائي نصبه على الحال.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ جملة اسمية في موضع حال من واو ﴿اسْتَمَعُوهُ﴾.

﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ لاهِيَةً﴾ : حال من ضمير ﴿يَلْعَبُونَ﴾ و ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ : فاعله ، مثل ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤١] لأن اسم الفاعل إذا وقع حالا ارتفع الاسم به كالفعل.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الَّذِينَ﴾ إما مرفوع أو منصوب أو مجرور ، والرفع إما على أنه بدل من واو ﴿أَسَرُّوا﴾ وإما أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هم الذين ظلموا ، وإما أنه مبتدأ خبره محذوف أي يقولون : ما هذا إلا بشر ، وإما فاعل أسروا على لغة «أكلوني البراغيث» والنصب بتقدير : أعني ، والجر على أنه نعت ل «الناس».

﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ، وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ الكلام كله في محل نصب بدلا من النجوى ، أي وأسروا هذا الحديث ، ويجوز أن يتعلق بقالوا بمعنى اعتقدوا.

البلاغة :

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ التنكير للتعظيم والتهويل.

﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

﴿بَلْ قالُوا : أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، بَلِ افْتَراهُ ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ فيه إضراب ترقي ، يدل على أن قولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني ، وذلك كله دليل الاضطراب والتردد والتحرير في وصف القرآن ، وتزييف الحقائق.

المفردات اللغوية :

﴿اقْتَرَبَ﴾ قرب أي اقترب زمان الحساب ، والمراد اقتراب الساعة ، وأصله : اقترب حساب الناس ، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك. ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي جميع المكلفين من الناس. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن المراد بالناس : المشركون ، وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه ، بدليل الوصف التالي : ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ

﴿مُعْرِضُونَ﴾ وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، والغفلة في الأصل : عدم تذكر الشيء ، والمراد هنا : الترك إهمالا وإعراضا. والإعراض : الإضراب والتولي عن الشيء ، والمراد هنا الإعراض عن التأهب للحساب بالإيمان.

﴿مِنْ ذِكْرٍ﴾ أي قرآن ينبّه من الغفلة والجهالة ﴿مُحْدَثٍ﴾ أي جديد إنزاله ، منزّل شيئا فشيئا ، أتى به لتكرير التنبيه لأسماعهم كي يتعظوا ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون ويسخرون ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ غافلة ساهية متشاغلة عن التأمل وتفهم معناه ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أي أسروا التناجي والكلام ، والمراد : أنهم أخفوا التناجي وبالغوا في الإخفاء ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي أسروا هذا الحديث ، أو قالوا بمعنى اعتقدوا ، والمراد : هل هذا أي محمد إلا بشر مثل الناس ، وكل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحر ، ولذلك قالوا : ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي أتتبعون السحر ، وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر؟!

﴿قالَ : رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قال لهم محمد : الله يعلم القول كائنا في السماء والأرض ، جهرا كان أو سرا ، فضلا عما أسرّوا به ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما أسروه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما قالوا ، فلا يخفى عليه ما تسرون ، ولا ما تضمرون.

﴿بَلْ﴾ للانتقال من غرض إلى آخر ، ولا تذكر في القرآن إلا على هذا النحو ﴿قالُوا : أَضْغاثُ أَحْلامٍ﴾ أي إنهم قالوا : إن ما أتى به من القرآن تخاليط أحلام رآها في النوم ، فهم أضربوا عن قولهم : هو سحر إلى أنه أخلاط أحلام ﴿بَلِ افْتَراهُ﴾ أي اختلقه من عنده ، فهم أضربوا ثانية إلى أنه كلام افتراء ﴿بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ أي ثم أضربوا إلى أنه قول شاعر ، فما أتى به هو شعر ، والانتقال في المواضع الثلاثة للدلالة على التردد والتحير في وصف القرآن ﴿فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ ..﴾ أي كناقة صالح ، وعصا موسى ويده ، ومعجزات عيسى كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

﴿ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها﴾ أي ما آمن أهل قرية أهلكناها بتكذيب ما أتاها من الآيات التي جاءتهم لما اقترحوها ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جئتهم بها ، وهم أعتى منهم؟ لا. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم ؛ إذ لو أتى به ، ولم يؤمنوا ، استوجبوا عذاب الاستئصال ، كمن قبلهم.

سبب النزول : نزول الآية (٦):

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبي ﷺ : إن كان ما تقول حقا ، ويسرّك أن تؤمن ، فحوّل لنا الصفا ذهبا ، فأتاه جبريل عليه

السلام ، فقال : إن شئت كان الذي سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثمّ لم يؤمنوا ، لم ينظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : بل أستأني بقومي ، فأنزل الله : ﴿ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

التفسير والبيان :

ينبه الله تعالى على اقتراب الساعة ودنوها فيقول : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ ..﴾ أي قرب زمان حساب الناس على أعمالهم في الدنيا ، وهو اقتراب الساعة ، ولكن الناس في حياتهم ساهون غافلون ، لاهون معرضون عن التأهب للحساب ، والتفكر بالآخرة ، بالمبادرة إلى الإيمان.

والمراد بالناس في رأي ابن عباس المشركون منكرو البعث ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قوله : ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وذلك للإشارة إلى أن البعث لا ريب فيه.

والظاهر أن لفظ الآية يتناول عموم الناس ، وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش ، بدليل ما بعد ذلك من الآيات ، فتكون الآية لوقف الأطماع ، والحث على الإقبال على الإيمان ، فمن علم اقتراب الساعة ، بادر إلى التوبة ، ولم يركن إلى الدنيا ، فكل آت قريب ، والموت لا محالة آت ، وموت كل إنسان قيام ساعته ، والقيامة أيضا قريبة بالنسبة إلى ما مضى من الزمان. قال الرازي : يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل في الحساب وهم المكلفون ، دون من لا مدخل له.

روي أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جدارا ، فمرّ به آخر في يوم نزول هذه السورة ، فقال الذي كان يبني الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر : نزل : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ ، وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ

﴿مُعْرِضُونَ﴾ فنفض يده من البنيان ، وقال : والله ، لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب.

وفي الآية دليل على قرب القيامة ، لذا قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس : «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ثم استدل الله تعالى على غفلة الناس ، فقال :

﴿ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ. لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي ما يأتي أولئك الكفار من قريش وأشباههم من قرآن جديد إنزاله ، ينزل سورة سورة ، وآية آية ، على وفق المناسبات والوقائع ، إلا استمعوه وهم لاهون ساخرون مستهزءون ، متشاغلة قلوبهم عن التأمل وتفهم معناه.

وهذا ذم صريح للكفار ، وزجر لأمثالهم عن تعطيل الانتفاع بما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

وقوله ﴿مُحْدَثٍ﴾ لا يوهم كون القرآن مخلوقا ، فإن الحروف المنطوق بها ، والصوت المسموع حادث بلا شك ، وأما أصل القرآن الذي هو كلام الله تعالى النفسي فهو قديم بقدم الله تعالى وصفاته القدسية.

ثم وصف الله تعالى موقف الكفار عند نزول القرآن فقال :

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وأخفوا التناجي والكلام فيما بينهم ، بل وبالغوا في الإخفاء حتى لا يطلع أحد على تناجيهم ، قائلين :

﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ؟﴾ أي هل محمد ﷺ إلا بشر كغيره من الناس ، أمثالكم في تكوينه وعقله وتفكيره ، فكيف يختص بالرسالة دونكم؟ وهذا ناشئ من اعتقادهم أن الرسول النبي لا يكون إلا ملكا ، وأن كل من ادّعى الرسالة من

البشر ، وجاء بالمعجزة هو ساحر ، ومعجزته سحر ، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار : ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي أفتتبعونه ، فتكونون كمن يأتي السحر ، وهو يعلم أنه سحر ، أو أتصدقون بالسحر ، وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر؟!

فهم يستبعدون كون رسول الله ﷺ نبيا ؛ لأنه بشر مثلهم ، والرسول لا يكون إلا ملكا ، وأما ما أتى به من القرآن فهو سحر.

وإنما أسروا الحديث بينهم في ذلك للتشاور في المخلص ، والتوصل إلى أنجع الطرق لهدم دينه.

فأجابهم تعالى عما افتروه واختلقوه من الكذب بقوله :

﴿قَالَ : رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي قال لهم الرسول بأمر من الله مفتضحا أسرارهم : لا تخفوا ما تقولون ، فإن الله ربي وربكم يعلم ذلك ، لا يخفى عليه خافية من أمر السماء والأرض وما يحدث فيهما من أقوال وأفعال ، وهو الذي أنزل القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين ، وهو السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم.

وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وإنما قال : ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ ولم يقل : يعلم السر ؛ لقوله المتقدم : ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ لأن القول عام يشمل السر والجهر ، وعلمه بالأمرين على سواء ، لا تفاوت فيه ، خلافا لمعلومات الناس ، فكان التعبير شاملا للعلم بالسر وزيادة ، وكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول : يعلم السرّ.

ثم أخبر الله تعالى عن تخبط الكفار ، وتعنتهم وإلحادهم ، وحيرتهم وضلالهم ،

وترددهم في وصف القرآن ، واختلافهم في ذلك ، فقال :

﴿بَلْ قالُوا : أَضْغاثُ أَحْلامٍ ، بَلِ افْتَراهُ ، بَلْ هُوَ شاعِرٌ﴾ أي إنهم وصفوا رسول الله ﷺ أولا بأنه ساحر وأن ما يقوله سحر ، ثم أضربوا عن قولهم : هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام رآها في المنام ، ثم إلى أنه كلام مفترى مختلق من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر.

وهذا الاضطراب والتردد والتحير دليل على أن قولهم باطل ، يشوه الحق ، ويزيف الحقائق ، فهم إما جاهلون بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ ، أو عارفون الحقيقة ، ولكنهم مكابرون يائسون يأس المهزوم المغلوب ، فقالوا : إنه سحر وكذب.

ولما فرغوا من تعداد هذه الاحتمالات ، وترداد هذه المزاعم قالوا :

﴿فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي إن كان محمد صادقا في أنه رسول من عند الله ، وأن القرآن الموحى به إليه كلام الله ، فليأتنا بآية جلية غير القرآن ، لا يتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات ، كالآيات المنقولة عن الأنبياء السابقين ، مثل ناقة صالح ، وآيات موسى كالعصا واليد ، وعيسى كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ونحو ذلك من المعجزات الحسية التي تثبت النبوة والرسالة.

وقوله : ﴿كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ يدل على أن تلك الآيات مسلّم بها عندهم ، وتحقّق المقصود.

ثم أجابهم تعالى عن هذا السؤال الأخير مفندا كذبهم ، ومشيرا إلى عدم إفادة الآيات المنزلة ، بسبب إمعانهم في الكفر ، فقال :

﴿ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها ، أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي ما أتينا أهل

قرية من القرى الذين بعث إليهم الرسل آية على يدي نبيهم ، فآمنوا بها ، بل كذبوا ، فأهلكناهم بذلك ، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟

والمعنى : أنهم أشد عتوا من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات ، ووعدوا أنهم يؤمنون عند مجيئها ، فلما جاءتهم نكثوا العهد ، وخالفوا ، فأهلكهم الله ، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثا ، كما قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ**﴾ [يونس ١٠ / ٩٦ ـ ٩٧].

والخلاصة : أن عدم تلبية اقتراحاتهم هو في صالحهم ، إذ لو أجابهم تعالى لما طلبوا ، ثم بقوا على كفرهم وعنادهم ، لنزل بهم عذاب الاستئصال ، إلا أن حكمة الله اقتضت تأخير العذاب عنهم إلى الآخرة.

وأما سؤالهم فهو سؤال تعنت ، والله يعلم أنهم لا يؤمنون.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن قيام الساعة أمر محتم لا ريب فيه ، وهو قريب الحصول ، وأما مرور القرون السالفة من عهد البعثة إلى يومنا هذا وإلى ما شاءالله من أزمان ، فلا يدل على طول المدة ؛ لأن هذه القرون قصيرة جدا في عمر الدهر والتاريخ ، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى.

٢ ـ الناس مع الأسف وبالرغم من قرب القيامة في غفلة وإعراض ، أما الغفلة : فهي السهو عن الحساب وعن التفكر في العاقبة المحتومة ، مع أن عقولهم تقتضي أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء.

وأما الإعراض : فهو الإمعان في البعد عن القرآن وترك آياته وعدم الإيمان بالله ، بالرغم من الانتباه من الغفلة والجهالة.

٣ ـ لقد عطل كفار قريش مفاتيح الهداية والانتفاع بنور القرآن ، وهزؤوا وسخروا من آيات الله التي تأخذ بيدهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

٤ ـ احتج المعتزلة على حدوث القرآن بقوله تعالى : ﴿**مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ..**﴾ فقالوا : القرآن ذكر ، والذكر محدث ، فالقرآن محدث.

وأجابهم أهل السنة بأن المقصود بالإحداث : هو ما يسمع من حروف القرآن وأصواته ، فهذا حادث لا شك. أما القرآن الذي هو كلام الله تعالى فهو قديم بقدم الله سبحانه وصفاته الحسنى.

٥ ـ طعن كفار قريش في نبوة النبي محمد ﷺ بأمرين :

أحدهما ـ أنه بشر مثلهم.

والثاني ـ أن الذي أتى به سحر.

وكلا الطعنين مردود ؛ لأن النبوة تثبت بالمعجزات والدلائل ، لا بالصور ، فكونه بشرا لا يمنع نبوته ، ولو بعث إليهم الملك لما علم كونه نبيا لمجرد صورته ، بل الأولى أن يكون المبعوث إلى البشر بشرا ؛ لأن الإنسان يأنس بأمثاله ، وهو أقرب إلى قبول الشيء من أشباهه.

ثم إن ما أتى به الرسول ﷺ من القرآن وغيره لا تمويه فيه ولا تلبيس ، وليس فيه شيء من ظواهر السحر ، فقد تحداهم ﷺ بالقرآن ، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ، فلو قدروا على المعارضة لأتوا بما يشبه القرآن ، فلما لم يأتوا بمثله ، دل ذلك على كونه معجزة في نفسه.

٦ ـ الحق أن قلوب الكفار ساهية معرضة عن ذكر الله ، متشاغلة عن التأمل

والتفهم لمعاني القرآن ، وقد تناجوا فيما بينهم بالتكذيب ، وتشاوروا ، فما صدر عن مشاوراتهم أعجب من موقفهم ، فوصفوا محمدا ﷺ بأنه ساحر ، وبأن ما أتى به سحر ، وقالوا : فكيف تجيئون إليه وتتبعونه ، وأنتم تشاهدون أنه إنسان مثلكم؟!

٧ ـ أطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به ، وأعلمهم بأن الله لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ، فسواء أسروا القول أم جهروا به ، فإن الله به عليم.

٨ ـ صور القرآن الكريم اضطراب كفار قريش وترددهم وحيرتهم في وصف النبي محمدﷺ وفي وصف القرآن بأشد أنواع الاستهجان ، فقالوا : إنه ساحر وما أتى به سحر ، ثم قالوا : إن ما أتى به أخلاط كالأحلام المختلطة ، رآها في المنام ، ثم قالوا : إنه افتراء ، ثم قالوا : إنه شاعر ، فهم متحيرون لا يستقرون على شيء ، قالوا مرة : سحر ومرة أضغاث أحلام ، ومرة افتراء ، ومرة شاعر.

ثم عدلوا عن ذلك إلى المطالبة بالآيات على صدق نبوته كالآيات التي ظهرت على يد موسى كالعصا واليد ، ومثل ناقة صالح ، ومثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بوساطة عيسى ، وإنما كان سؤالهم تعنتا ، فقد أعطاهم الله ما فيه الكفاية.

٩ ـ اقتضت حكمة الله ورحمته تأخير العذاب عن الكفار المنكرين للبعث ولبعثة محمد ﷺ ، إذ لو أجابهم تعالى إلى مطلبهم ، لعجل لهم عذاب الاستئصال ، كما فعل بأهل القرى المتقدمين مثل قوم صالح وقوم فرعون ، فإنهم ما آمنوا بالآيات ، فاستؤصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ؛ لما سبق من القضاء في علم الله بأنهم لا يؤمنون أيضا ؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمه تعالى بأن في أصلابهم من يؤمن.

بشرية الرسل وإنجاز الوعد لهم وجعل القرآن عظة

﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَما كانُوا خالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾

الإعراب :

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ ذِكْرُكُمْ﴾ : مرفوع بالظرف ، ويجوز كونه مبتدأ ، و ﴿فِيهِ﴾ خبره ، والجملة في موضع نصب ؛ لأنها وصف كتاب.

﴿جَسَداً﴾ على حذف مضاف أي ذوي جسد ، فتوحيد الجسد على حذف مضاف ، أو لإرادة الجنس أو لأنه مصدر في الأصل.

﴿لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ﴾ صفة لجسدا.

البلاغة :

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾؟ إنكار توبيخي.

المفردات اللغوية :

﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ هم هنا أهل الكتاب العلماء بالتوراة والإنجيل ﴿جَسَداً﴾ الجسد هو الجسم ، إلا أنه لا يطلق على غير الإنسان ﴿خالِدِينَ﴾ باقين دائمين في الحياة الدنيا ﴿صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي نصرناهم على أعدائهم وأنجيناهم ، والمراد : صدقناهم في الوعد ﴿فَأَنْجَيْناهُمْ وَمَنْ نَشاءُ﴾ يعني المؤمنين المصدقين لهم ، ومن في إبقائه حكمة كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته ، ولذلك حمى الله العرب من عذاب الاستئصال ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي ، المكذبين.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتاباً﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي فيه سمعتكم وصيتكم ، لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٤] أو فيه موعظتكم ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون ما فيه من المواعظ والعبر ، فتؤمنوا به.

المناسبة :

هذه الآيات جواب لقول كفار قريش : ﴿هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وهو أن سنة الله تعالى في الرسل قبل محمد ﷺ إرسال رجال من البشر أنبياء ، فلا يكون الرسول إلا بشرا ، خلافا لما ينكرون ، فلا يصح اعتراضهم في كون محمد بشرا.

التفسير والبيان :

يرد الله تعالى على من أنكر بعثة الرسل من البشر بقوله : ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ ...﴾ أي إن جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر ، ولم يكن فيهم أحد من الملائكة ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٩] وقوله سبحانه : ﴿قُلْ : ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٩] وقوله حكاية عمن تقدم من الأمم الذين قالوا : ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾؟ [التغابن ٦٤ / ٦].

﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم في شك من كون جميع الرسل بشرا ، فاسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة؟ فالله يأمرهم أن يسألوا علماء الكتب السابقة عن حال الرسل المتقدمة ، لتزول عنهم الشبهة ، وليعلموا أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرا ، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا.

وإنما أحالهم على أولئك ؛ لأن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي ﷺ ، ويثقون بقولهم ، ويلتقون معهم في معاداته ؛ قال الله تعالى : ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ

﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً﴾ [آل عمران ٣ / ١٨٦].

وإنما كانوا بشرا ليتمكن الناس من تلقي الوحي عنهم ، والأخذ بيسر بما نزل عليهم.

وهذا نص صريح في بشرية الرسل وفي كونهم رجالا لا نساء.

﴿وَما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ ، وَما كانُوا خالِدِينَ﴾ أي وما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين كالملائكة ، بل كانوا أجسادا يأكلون الطعام ، وما كانوا مخلّدين باقين في الدنيا ، ونظير الآية : ﴿وَقالُوا : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧] وقوله : ﴿وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٠].

وهذا نفي لما اعتقدوا أن من صفات الرسل الترفع عن الحاجة إلى الطعام ، فهم كانوا بشرا يأكلون الطعام ، ويتصفون بكل الصفات الإنسانية ، ويطرأ عليهم الحزن والسرور ، والمرض ، والنوم واليقظة ، والحياة والموت ، فلا خلود لهم في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٣٤].

﴿ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ ...﴾ أي إننا نصون حياة الرسل وكراماتهم ، ونصدقهم في الوعد الذي نعدهم به من النصر على أعدائهم ، وإهلاك الظالمين ، وننجيهم ومن نشاء من أتباعهم المؤمنين بهم ، ونهلك المكذبين لهم ، المسرفين على أنفسهم بالكفر والمعاصي ، المكذبين بما جاءت به الرسل.

وبعد إثبات بشرية الرسل للرد على المشركين الذين اعتقدوا بأن الرسالة من خواص الملائكة ، نبّه تعالى على شرف القرآن وفضله ونفعه للناس ، وحرض على معرفة قدره ، فقال :

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي لقد أعطيناكم هذا القرآن العظيم

المشتمل على دستور الحياة الإنسانية الفاضلة ، فيه شرفكم وصيتكم وسمعتكم ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٤] أو فيه عظتكم وتذكيركم بمحاسن الأخلاق ومكارم الشيم ، والأخذ بأيديكم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتدبرون أمركم ، وتقدرون هذه النعمة ، وتتلقونها بالقبول ، وتتفكرون بما اشتمل عليه هذا القرآن من العظات والعبر ، فتأخذوا بما فيه ، وتتجنبوا ما حذره وما نهى عنه.

وفي هذا حث شديد على تدبر أحكام القرآن وتعقل ما جاء فيه من أمور الدنيا والدين والحياة.

فقه الحياة أو الأحكام :

اشتملت الآيات على ما يأتي :

١ ـ الأنبياء والرسل من جنس البشر ، وليسوا من الملائكة ، ليسهل الأخذ عنهم ، ومناقشتهم وتفهم الموحى به إليهم ، فقد ثبت بالتواتر والاستقراء والتتبع أن الرسل كانوا من البشر.

٢ ـ إن سؤال أهل العلم واجب ، وعلى العامة تقليد العلماء ، وقد أجمع علماء الأمة الإسلامية على أن الأعمى لا بدّ له من تقليد غيره ممن يثق به في الاتجاه إلى القبلة إذا أشكلت عليه ، وكذلك كل من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به ، لا بد له من تقليد أحد العلماء. ولا يجوز للعامة الفتيا في الدين ، للجهل بالمعاني التي يرتكز عليها التحليل والتحريم.

٣ ـ لم يجعل الله تعالى الرسل بصفات منافية لطباع البشر ، لا يحتاجون إلى طعام وشراب ، بل هم كغيرهم من البشر يأكلون الطعام ، ويشربون الماء ، ويمشون في الأسواق ، ويتعاطون شؤون الحياة والمكاسب المتعددة.

٤ ـ يصون الله تعالى حياة الأنبياء ويعصمهم من الناس ، وينجز لهم وعده بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذبيهم ، وينجي معهم المؤمنين المصدقين برسالاتهم ، ويهلك الله المشركين المكذبين لهم.

٥ ـ إن القرآن الكريم سبب لرفعة شأن العرب ؛ لأنه نزل بلغتهم ، وفيه أحكام الشرع ، وبيان مصير الناس في الآخرة ، وما يلقونه من ثواب وعقاب.

وهو أيضا عظة وعبرة ، يرغب ويبشر ، ويحذر وينفر ، ويأمر وينهى ، ويرشد إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويوضح ما فيه سعادة الدارين ، ويرشد البشرية كافة إلى اتباع النظام الأصلح.

٦ ـ يحث القرآن الكريم دائما على تدبر ما جاء فيه من أحكام ، وتفهم ما تضمنه من نظام سديد في الدين والدنيا والآخرة.

الإنذار بعذاب الاستئصال والتذكير بعجائب الخلق

﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (١٤) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (١٥) وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾

الإعراب :

﴿فَما زالَتْ تِلْكَ تِلْكَ﴾ مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا ، وكذلك ﴿دَعْواهُمْ﴾.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ .. مَنْ﴾ : مبتدأ ، ﴿وَلَهُ﴾ : خبره. وذهب الأخفش إلى أنه في موضع رفع بالظرف.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ ..﴾ مبتدأ وخبر ، وليس معطوفا على ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ﴾. فإن جعل معطوفا كان قوله : ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في موضع الحال ، أي غير مستكبرين ، وكذلك ﴿لا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي غير مستحسرين.

البلاغة :

﴿حَصِيداً خامِدِينَ﴾ تشبيه بليغ ، أي جعلناهم كالزرع المحصود ، وكالنار الخامدة.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ في قوله : ﴿نَقْذِفُ﴾ استعارة تمثيلية ، شبّه الحق بشيء صلب جامد ، والباطل بشيء رخو ، وأستعير لفظ القذف لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل ، كما يرمي الإنسان شيئا فيتلفه.

المفردات اللغوية :

﴿وَكَمْ﴾ خبرية تفيد كثرة وقوع ما بعدها ، فهي صيغة تكثير ﴿قَصَمْنا﴾ أهلكنا وأصل القصم : كسر بتفريق الأجزاء وإبانة تلاؤمها ، وهو يدل على غضب عظيم. أما الفصم فلا يدل على تفريق الأجزاء ، فهو كسر من غير إبانة ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي أهل قرية ﴿كانَتْ ظالِمَةً﴾ كافرة ، وهي صفة لأهلها ، ووصف بها القرية ؛ لأنها أقيمت مقام أهلها ﴿وَأَنْشَأْنا بَعْدَها﴾ بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْماً آخَرِينَ﴾ مكانهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا﴾ أي أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس ، والضمير عائد لأهل القرية المحذوف ، أي شعر أهل القرية بالإهلاك. والإحساس : الإدراك بالحاسة ، وهو هنا الإدراك بحاسة البصر ، والبأس : الشدة ﴿يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين ، والركض : الفرار والهرب بسرعة ،

وأصله : ضرب الدابة وكدّها بالرجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص ٣٨ / ٤٢].

﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ أي نعمتم ، والإتراف : التنعم والتلذذ ، أو إبطار النعمة. ﴿وَمَساكِنِكُمْ﴾ التي كانت لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ أي لتسألوا غدا عن أعمالكم أو تعذبون ، فإن السؤال من مقدمات العذاب ﴿يا وَيْلَنا﴾ يا هلاكنا ، ويا : للتنبيه ﴿ظالِمِينَ﴾ بالكفر ﴿فَما زالَتْ تِلْكَ﴾ الكلمات ﴿دَعْواهُمْ﴾ أي دعوتهم التي يردّدونها ، أي ما زالوا يكررون تلك الكلمة ﴿حَصِيداً﴾ محصودين ، كما يحصد الزرع بالمناجل ، بأن قتلوا بالسيف ﴿خامِدِينَ﴾ ميتين ، كخمود النار إذا طفئت.

﴿لاعِبِينَ﴾ عابثين ، بل دالين على قدرتنا ومرشدين عبادنا ﴿لَهْواً﴾ ما يلهى به من زوجة أو ولد. والفرق بين اللعب واللهو : أن الأول لا يقصد به هدف صحيح ، والثاني يقصد به الترويح عن النفس ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا من الحور العين والملائكة ﴿إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ ذلك ، لكنا لم نفعله فلم نرده.

﴿نَقْذِفُ﴾ نرمي رميا بعيدا ﴿بِالْحَقِ﴾ الإيمان ﴿عَلَى الْباطِلِ﴾ الكفر ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يذهبه ويقهره ويهلكه ، وأصل الدمغ : كسر الشيء الرخو ، وإصابة الدماغ بالضرب ، وهو مقتل ﴿فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ ذاهب وهالك وزائل ﴿وَلَكُمُ﴾ يا كفار مكة ﴿الْوَيْلُ﴾ العذاب الشديد ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الله به من الزوجة أو الولد.

﴿وَلَهُ﴾ لله تعالى ﴿مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكا ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾ لا يتعظمون ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ لا يكلون ولا يعيون ولا يتعبون ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ينزهونه ويعظمونه دائما ﴿لا يَفْتُرُونَ﴾ لا يضعفون.

المناسبة :

هذه الآيات مبالغة في زجر الكفار عن عصيانهم وكفرهم ، فبعد أن أبان الله تعالى أنه أهلك المسرفين في تكذيبهم وكفرهم بالله ، ونصر الأنبياء المرسلين عليهم ، وأسقط اعتراضاتهم التي أظهرت إعجاز القرآن ، وأوضحت أن إيراد تلك الاعتراضات كان لحب الدنيا وحب الرياسة فيها ، بالغ تعالى في زجرهم عن ذلك ، فقال :

﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً ، وَأَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ﴾ أي كثيرا ما أهلكنا من أهل القرى الذين كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر بالله وتكذيب

الرسل ، وأوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم قوما آخرين مكانهم ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٧] وقال تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ [الحج ٢٢ / ٤٥].

والمراد بالقرية : مدائن كانت باليمن ، وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حضور ، وكان بعث إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مهدم ، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له : ضنن كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة «حضور» قبل زمن عيسى عليه السلام ، وبعد مئات من السنين من زمن سليمان عليه السلام ، لكنهم قتلوا نبيهم ، وكانت «حضور» بأرض الحجاز من ناحية الشام [١].

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ﴾ أي فلما تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة ، كما وعدهم نبيهم ، إذا هم يفرون هاربين منهزمين من قريتهم ، لما أدركتهم مقدمة العذاب.

﴿لا تَرْكُضُوا ، وَارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ...﴾ أي يقال لهم تهكما واستهزاء : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة التي أبطرتكم والسرور ، والمعيشة الرغيدة ، والمساكن الطيبة ، لعلكم تسألون عما كنتم فيه ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، أو يسألكم الناس : لماذا نزل هذا العذاب؟!

وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ تهكم بهم وتوبيخ ، فأجابوا :

﴿قالُوا : يا وَيْلَنا ، إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ أي إنهم اعترفوا بذنوبهم حين

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٢٧٤

لا ينفعهم ذلك ، فقالوا : يا هلاكنا ، إنا ظلمنا أنفسنا بكفرنا بربنا. وهذا اعتراف صريح منهم بالكفر الموجب للعذاب.

﴿فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ﴾ أي فما زالوا يرددون تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم ، حتى حصدناهم حصدا ، وخمدت حركاتهم ، وسكنت أصواتهم خمودا كالنار التي أصبحت خامدة لا حياة فيها. فقوله : ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قولهم: ﴿يا وَيْلَنا ..﴾ إلخ ؛ لأنها دعوى ، كأنه قيل : فما زالت تلك الدعوى دعواهم. والدعوى هنا بمعنى الدعوة أي المطلب ، قال تعالى : ﴿وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [يونس ١٠ / ١٠] وسميت دعوى ؛ لأنهم كانوا دعوا بالويل فقالوا : ﴿يا وَيْلَنا﴾ والمولول كأنه يدعو الويل ، فيقول : تعال يا ويل ، فهذا وقتك. والحصيد : الزرع المحصود ، أي جعلناهم مثل الحصيد ، تشبيها لهم به في استئصالهم ، كما تقول : جعلناهم رمادا ، أي مثل الرماد ، فهم يشبهون الحصيد والخمود.

وعقابهم هذا حق وعدل جزاء إنكار هم النبوة ، وجعلهم معجزات النبي عبثا ولعبا ، لذا أبان تعالى أنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلا بالعدل فقال :

﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾ أي وما أوجدنا السموات والأرضين إلا بالحق ، أي بالعدل والقسط ، لا للهو واللعب ، فإنا خلقناها لفائدة دينية هي أن تكون دليلا على معرفة الخالق لها ، ولمنافع أخرى دنيوية وغيرها ، وليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وأنه لم يخلق ذلك عبثا ولعبا.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ، ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص ٣٨ / ٢٧] ثم أكد تعالى نفي اللعب فقال :

﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي لو شئنا أن نتخذ ما يلهو كما يتخذ العباد من الزوج والولد ، لاتخذناه مما لدينا من الملائكة والحور العين ، إن كنا نقصد اللهو ونفعل اللعب. واللهو : المرأة بلسان أهل اليمن ، والولد أيضا ؛ لأنه ملازم للمرأة.

وهو كقوله تعالى : ﴿لَوْ أَرادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ، لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، سُبْحانَهُ هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر ٣٩ / ٤]. وهذا رد على من اتخذ المسيح أو عزيرا ابنا لله تعالى.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ ، فَإِذا هُوَ زاهِقٌ﴾ أي بل إننا نبين الحق ، فيدحض الباطل ويزيله ، فإذا هو زائل مبدّد ، ذاهب مضمحل. و ﴿بَلْ﴾ هنا إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه لذاته ، فليس من صفاتنا وحكمتنا اللعب ، وإنما تغليب الجد على اللهو ، ودحض الباطل بالحق ، كأنه قال : سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب ، بل من عادتنا تغليب الجد على اللهو ، ودحض الباطل بالحق.

وقد استعار القذف والدمغ لضياع الباطل وفنائه ، لتصويره بالصورة الحسية المؤثرة التي ترسخ في الأذهان ، وتدل على قوة الحق ، وضعف الباطل ، حتى لكأنه غير موجود.

وإذا كان هذا من شأننا فكيف لا نبين الحق وننذر الناس ، وإلا كنا لاهين لاعبين.

فقوله : ﴿إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ معناه : ما كنا فاعلين ، مثل ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٣٥ / ٢٣] أي ما أنت إلا نذير. و ﴿أَنْ﴾ بمعنى الجحد ، وقيل : إنها بمعنى الشرط ، أي إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك ؛ لاستحالة أن يكون لنا ولد.

﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي ولكم أيها القائلون : لله ولد ، أو أيها

المشركون الظالمون الهلاك والدمار والعذاب الشديد ؛ لوصفكم ربكم بما ليس من صفته ، وتقولكم وافترائكم عليه أنه اتخذ صاحبة أو زوجة ، وولدا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وكيف يكون لله شريك خاص ، وهو مالك جميع من في السموات والأرض ، وكيف تتنكرون لطاعته ، وله تعالى جميع المخلوقات ملكا وخلقا وعبيدا؟! الكل ومنهم الملائكة طائعون خاضعون له ، دأبهم الطاعة ليلا ونهارا ، لذا قال :

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي وجميع من عنده من الملائكة لا يترفعون عن عبادته ، ولا يعيون ولا يتعبون ولا يملون. والعندية هنا ليست مكانية ، وإنما هي عندية مكانة وتشريف. وتخصيص الملائكة بالذكر هنا لإبانة رفعة شأنهم.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ ، لا يَفْتُرُونَ﴾ أي يعبدون الله وينزهونه في الليل والنهار ، فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا ، مطيعون قصدا وعملا ، قادرون عليه ، لا ينقطعون عن الطاعة ولا يفترون ساعة عنها ، كما قال تعالى : ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم ٦٦ / ٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الإنذار الشديد الأكيد لأهل الكفر والعصيان الذين أنكروا النبوات بحال أهل القرى الظالمة الكافرة ، حيث دمرها الله تعالى تدميرا شديدا بمن فيها ، لظلمهم ، والظلم : وضع الشيء في غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر موضع الإيمان.

٢ ـ عند دنوّ العذاب تقع الحيرة والاضطراب ، وتحدث محاولات الفرار من

القرية ، فيركض أهلها هاربين منها ، والركض : العدو بشدة الوطء ، فتناديهم الملائكة استهزاء: لا تركضوا ولا تفرّوا ، وارجعوا إلى مواطن الترف والنعم التي كانت سبب بطركم ، لعلكم تسألون شيئا من دنياكم ، استهزاء بهم.

ولما قالت لهم الملائكة : ﴿لا تَرْكُضُوا﴾ ونادت : يا لثارات الأنباء! ولم يروا شخصا يكلمهم ، عرفوا أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سلط عليهم عدوهم ، بقتلهم النبي الذي بعث فيهم ، فقالوا : ﴿يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ وهذا اعتراف منهم بأنهم ظلموا ، حين لا ينفع الاعتراف.

وما زالوا يقولون : ﴿يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ حتى أصبحوا أثرا بعد عين ، وجثثا هامدة لا حراك فيها ، وتم استئصالهم ، وحصدوا بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، وصاروا خامدين ميتين.

٣ ـ لما بيّن الله تعالى إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم ، أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ، ومجازاة على ما فعلوا ، وهو خلق السموات والأرض بالعدل والقسط : ﴿ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِ﴾ [الدخان ٤٤ / ٣٩] فهو تعالى خلقها لفوائد دينية ودنيوية ، أما الدينية : فليتفكر المتفكرون فيها ، كما قال تعالى : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران ٣ / ١٩١] وأما الدنيوية : فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تعدّ ولا تحصى.

وبما أن خلق السموات والأرض حق لا لعب فيه ، فإن المعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ هي حق أيضا لا لعب فيها ، تقرر صحة نبوته ، وترد على منكريها.

٤ ـ إن خلق السموات والأرض للتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب امتثال أمره ، وأنه يجازي المسيء والمحسن ، وليس خلقها ليظلم بعض الناس بعضا ،

ويكفر بعضهم ، ويخالف بعضهم ما أمر به ، ثم يموتوا ولا يجازوا ، فذلك هو اللعب بعينه.

٥ ـ تعالى الله وتقدس وتنزه عن اتخاذ الزوجة والولد ، فذلك من اللهو ، ولو أراد الله أن يتخذ لهوا من زوجة أو ولد لاتخذه من عنده لا من عند الناس.

وهذا رد واضح على من قال : المسيح أو عزير ابن الله ، والأصنام أو الملائكة بنات الله تعالى.

٦ ـ يبين الله تعالى الحق ومنهجه لدحر الباطل وزخارفه ، والحق هنا : القرآن ، والباطل: الشيطان وكذب الكفار ووصفهم الله عزّوجلّ بغير صفاته من الولد وغيره. وللكفار الويل ، أي العذاب في الآخرة بسبب وصفهم الرب بما لا يجوز وصفه وهو اتخاذه سبحانه الولد.

٧ ـ إذا كان كل من في السموات والأرض لله خلقا وملكا ، فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه؟!

وأما الملائكة الذين ذكر المشركون أنهم بنات الله فلا يأنفون عن عبادة الله والتذلل له ، ولا يعيون ولا يتعبون ولا يملون ، وهم دائما في الليل والنهار يصلون ويذكرون الله وينزهونه دائما ، لا يضعفون ولا يسأمون ، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النّفس. سئل كعب عن تسبيح الملائكة : أما لهم شغل عن التسبيح ، أما يشغلهم عنه شيء؟ فقال : يا بان أخي ، هل يشغلك شيء عن النّفس؟ إن التسبيح لهم بمنزلة النفس. وقد استدل بهذا من قال : إن الملائكة أفضل من بني آدم [1].

وهذا دليل على استغناء الله تعالى عن طاعة الكفار ؛ لأنه هو المالك لجميع

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٢٧٨

المخلوقات ، وإنما فائدة الطاعة تعود على الطائعين أنفسهم ، فأجدر بهم أن يطيعوه ، وأولى بهم أن يعبدوه ، بل يجب عليهم طاعته والانقياد لحكمه ؛ لأن كل المكلفين في السماء والأرض عبيده ، وهو الخالق لهم ، والمنعم عليهم بأصناف النعم.

توبيخ المشركين وإثبات الوحدانية

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ صفة لآلهة ، أو متعلقة بالفعل ، على معنى الابتداء ، وفائدتها التحقير لا التخصيص.

﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ﴾ : ﴿إِلَّا﴾ : في موضع (غير) وهي وصف ل ﴿آلِهَةٌ﴾ وتقديره : غير الله ، ولهذا أعربت إعراب الاسم الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ وهو الرفع. ولا يجوز أن يكون الرفع على البدل ؛ لأن البدل إنما يكون في النفي لا في الإثبات ، وهذا في حكم الإثبات. وذهب الفراء إلى أن ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «سوى».

﴿ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ ذكر غير منون : مضاف إلى ﴿مِنْ﴾ الذي هو مضاف إليه. ويقرأ بتنوين على تقدير محذوف ، أي ذكر ذكر من معي.

﴿لا يَعْلَمُونَ الْحَقَ﴾ منصوب بيعلمون. وقرأ الحسن ﴿الْحَقَ﴾ بالرفع بتقدير مبتدأ محذوف ، أي هو الحق.

﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ عِبادٌ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : بل هم عباد مكرمون.

وأجاز الفراء : بل عبادا مكرمين على تقدير : بل خلقهم عبادا مكرمين.

البلاغة :

﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ طباق السلب.

﴿قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ تبكيت للخصم.

﴿أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ فيهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ أي بل اتخذوا ، للانتقال ، والهمزة لإنكار اتخاذهم ﴿آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي آلهة كائنة من الأرض ، كحجر وذهب وفضة ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي الآلهة يحيون الموتى من قبورهم ، من أنشره : أي أحياه؟ لا ، فلا يكون إلها إلا من يحيي الموتى ، فالنشر : إحياء الموتى من قبورهم ، والحشر : سوقهم إلى أرض المحشر.

﴿لَوْ كانَ فِيهِما﴾ أي في السموات والأرض ﴿إِلَّا اللهُ﴾ غيره ﴿لَفَسَدَتا﴾ لبطلتا وخربتا وخرجتا عن نظامهما المشاهد ؛ لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع ، على وفق العادة ، فإنه عند تعدد الحاكم والاتفاق في المراد ، يحدث التنافر في القدرات ، إذ بأي قدرة لهما سيوجد؟! وعند الاختلاف يحدث التمانع في الشيء وعدم وجوده ، مثلا لو اختلفا في تحريك زيد وتسكينه ، فلا يمكن حدوث المرادين لاستحالة الجمع بين الضدين ، ولا يمكن حدوث أحد المرادين لمعارضة الآخر ، وإذا حدث كان أحد الإلهين قادرا والآخر عاجزا ، والعجز نقص ، وهو على الله محال.

﴿فَسُبْحانَ اللهِ﴾ تنزيها لله عما وصفوه به ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ خالق الكرسي ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزيها لله عما يصف الكفار الله به من الشريك له ، وغير ذلك.

﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفرده بالألوهية والسلطنة الذاتية ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ عن أفعالهم ؛ لأنهم مملوكون مستعبدون ، والضمير للآلهة المزعومة أو للعباد.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي بل اتخذوا من دون الله تعالى أي سواه آلهة ، وفيه استفهام توبيخ ، وكرره استعظاما لكفرهم ، وتبكيتا ، وإظهارا لجهلهم ، والمعنى : أوجدوا آلهة ينشرون الموتى ، فاتخذوهم آلهة ، لما وجدوا فيهم من خواص الألوهية ، أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمر بإشراكهم ، فاتخذوهم تنفيذا للأمر ، ثم أبان فساد الأول عقلا ، والثاني نقلا ، فقال :

﴿قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ أي أحضروا برهانكم على ذلك من العقل أو النقل ، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه.

﴿هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ أي هذا هو القرآن المنزل على من معي أي على أمتي أي عظة لهم ﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ أي والكتب السماوية المنزلة على الأمم قبلي وهي عظة لهم ، وهي التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله ، ليس في واحد منها أن مع الله إلها ، مما قالوا. وإنما فيها الأمر بالتوحيد ، والنهي عن الإشراك. وإضافة الذكر إليهم ؛ لأنه عظتهم.

﴿لا يَعْلَمُونَ الْحَقَ﴾ أي توحيد الله ، ولا يميزون بين الحق والباطل ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتباع الرسول من أجل ذلك ، وعن النظر الموصل إليه.

﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أي وحدوني ﴿وَلَداً﴾ من الملائكة ﴿سُبْحانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك. ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي بل هم ﴿عِبادٌ﴾ مخلوقون ، عنده ﴿مُكْرَمُونَ﴾ : مقربون لديه ، والعبودية تنافي الولادة ، فليسوا بأولاد.

﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يتكلمون حتى يأمرهم ، ولا يأتون بقولهم إلا بعد قوله ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به ، ويعملون بعد أمره ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، لا يخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، وهو كالعلة لما قبله ، والتمهيد لما بعده ، وبذلك يضبطون أنفسهم ، ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ أن يشفع له ، مهابة منه ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي من عظمته ومهابته تعالى ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون مرتعدون.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو من الخلائق ﴿إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أي غير الله وهو إبليس ، دعا إلى عبادة نفسه ، وأمر بطاعتها ﴿فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ هذا تهديد للمشركين بتهديد مدعي الربوبية ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ المشركين أي من أظلم بالإشراك وادعاء الربوبية.

المناسبة :

ما تقدم من أول السورة إلى هنا كان في النبوات ، وما يتعلق بها سؤالا وجوابا ، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ، ونفي الشريك.

التفسير والبيان :

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي بل اتخذ المشركون آلهة من الأرض من دون الله يحيون الموتى من قبورهم ، أي لا يقدرون على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله ندا وعبدوها معه؟! قال الزمخشري : و ﴿أَمِ﴾ هنا ـ أي مع الاستفهام ـ هي المنقطعة الكائنة بمعنى «بل» الإضرابية ، والهمزة قد آذنت بالإضراب عما قبلها ، والإنكار لما بعدها ، وهو اتخاذهم آلهة ينشرون الموتى.

والمراد بالآية التذكير بخواص الألوهية التي منها إحياء الموتى من قبورهم ، فإن المشركين وإن لم يصرحوا بذلك ، فإنهم بادعائهم الألوهية لها يثبتون تلك الصفة لها. ووصف الآلهة بكونها من الأرض إشارة إلى أنها من الأصنام المعبودة في الأرض. وهذا تهكم بهم وتوبيخ وتجهيل لهم.

ثم أثبت الله تعالى التوحيد ونفي وجود إله غير الله ، فقال :

﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ أي لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله لخربتا وفسد نظامها ؛ لأنهما إذا اختلفا وقع الاضطراب والخلل والفساد ، وإن اتفقا في التصرف في الكون ، فلا داعي للتعدد ؛ لأنه يؤدي إلى وجود الخلق والأمر والمقدور من خالقين قادرين على مخلوق واحد ، وهذا محال ؛ لأنه يجعل وقوع المقدور والمراد للاثنين ، لا لواحد منهما ، وهذا لا يصح ؛ لأن لكل منهما إرادة مستقلة بالتأثير ، فلا يعقل وقوع مخلوق لخالقين.

وبناء عليه يكون جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المخلوقات دليل وحدانية الله تعالى ، لذا قال :

﴿فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه الله تعالى وتقدس عن الذي يفترون ويقولون : إن له ولدا أو شريكا ، وتعالى عما يأفكون علوا كبيرا ، فهو رب العرش المحيط بهذا الكون.

ونظير الآية : ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ، سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٩١].

وتأكيدا لهذا التنزيه قال تعالى :

﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ أي لا يسأل تعالى عن أفعاله ، فهو الحاكم الذي لا معقّب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد ، لعظمته وجلاله وكبريائه ، وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه ، وإنما يسأل خلقه عن أفعالهم ، ما عملوا وما سيعملون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر ١٥ / ٩٢ ـ ٩٣] وقوله سبحانه : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٨٨].

ثم كرر تعالى الإنكار على المشركين استفظاعا لشأنهم ، واستعظاما لكفرهم فقال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ : هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾ أي أيصح بعد هذه الأدلة أن يتخذوا آلهة دون الله ، ويصفوا الله بأن له شريكا؟ فإن وصفتم الله تعالى بأن له شريكا ، فهاتوا برهانكم على ذلك ، إما من العقل وإما من الوحي ، فإنكم لا تجدون كتابا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل إلا وفيه تقرير توحيد الله وتنزيهه عن الشركاء ، كما أن العقل كما تقدم يرفض وجود إلهين ، وأشار فيما يأتي إلى الدليل النقلي فقال :

﴿هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ أي هذا الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه ، ورد علي ، كما ورد على جميع الأنبياء ، فهو ذكر

أي عظة للذين معي أي أمتي ، وعظة للذين من قبلي أي أمم الأنبياء السابقين عليهم السلام . وبذلك اتفق القرآن وجميع الكتب السماوية السابقة على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، وهذا تبكيت للمشركين يتضمن نقيض مدّعاهم.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَ﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعرفون الحق ، ويعرضون عنه ، ولا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تنفع فيهم الأدلة والبراهين.

﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي فهم لجهلهم معرضون عن قبول الحق وعن النظر المؤدي إليه. وهذا دليل على أن الجهل أو عدم العلم هو أصل الشر والفساد كله ، وأنه يترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه.

وتأكيدا لمضمون الكتب والرسالات السماوية بالتوحيد ونبذ الشرك قال : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ..﴾ أي لم نرسل رسولا سابقا من عهد آدم عليه السلام إلى قومه إلا أوحينا إليه ألا معبود إلا الله ، فاعبدوه مخلصين له العبادة ، وخصوه بالألوهية ، فرسالات جميع الأنبياء قائمة على التوحيد ، وكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا ، أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٥] وقوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٦].

والخلاصة : أنه لا دليل للمشركين على ما زعموا ، فلا برهان لهم ، وحجتهم داحضة ؛ لأن الفطرة تشهد بتوحيد الله ، وكذلك العقل السليم ، ورسالات جميع الأنبياء متحدة في دفع الشرك وإقرار التوحيد.

وبعد التنزيه عن الشريك ، نفى تعالى اتخاذ الولد فقال :

﴿وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً﴾ أي وقال بعض العرب وهم بطون من خزاعة وجهينة وبني سلمة : الملائكة بنات الله ، فرد الله عليهم بقوله :

﴿سُبْحانَهُ﴾ أي تنزيها له عن الولد ، فإن الولد يشبه أباه في شيء ، ويخالفه في أشياء ، فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه ، وخالفه من وجوه أخرى ، فيقع التركيب في ذات الله تعالى ، والله سبحانه منزه عن مشابهة الحوادث ، ولا مجانسة بين الخالق والمخلوق.

ولما نزه سبحانه نفسه عن الولد ، أخبر عن الملائكة بقوله :

﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي ليس الملائكة بنات الله ، بل هم عباد مخلوقون له ، مقربون لديه ، والعبودية تنافي الولادة ، إلا أنهم مفضلون على سائر العباد. ومن خصائصهم أنهم :

١ ـ ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى عالم محيط علمه بهم ، فلا يخفى عليه منهم خافية ، كما قال :

٢ ـ ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم ما تقدم منهم من عمل ، وما هم عاملون في المستقبل ، أي كما أن قولهم تابع لقول الله ، فعملهم أيضا مبني على أمره ، لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به ، وجميع ما يأتون ويذرون في علم الله واطلاعه ، وهو مجازيهم عليه ، فلا يزالون يراقبونه في جميع أحوالهم ، ويضبطون أنفسهم عن أي مخالفة لأمره.

٣ ـ ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى﴾ أي لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله ، وأهّله للشفاعة ، فلا تعلقوا الآمال على شفاعتهم بغير رضا الله تعالى.

٤ . ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي إنهم مع هذا كله من خوف الله ورهبته خائفون حذرون مراقبون ربهم.

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده ، ووصفهم بتلك الأفعال السنية ، فاجأ من أشرك منهم بالوعيد الشديد ، وأنذرهم بعذاب جهنم ، فقال :

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ : إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ، فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي ومن يدّعي منهم على سبيل الافتراض أنه إله من دون الله ، أي مع الله ، كإبليس حيث ادعى الألوهية ، ودعا إلى عبادة نفسه ، فجزاؤه جهنم على ما ادّعى. وأما الملائكة فلم يقل أحد منهم : إني إله غير الله.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزي كل من ظلم نفسه ، وقال ذلك ، وهم المشركون. قال ابن كثير : وهذا شرط ، والشرط لا يلزم وقوعه ، كقوله : ﴿قُلْ : إِنْ كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٨١]. وقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٥].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ الإنكار الشديد على من اتخذ آلهة أخرى مع الله ، وتوبيخ المشركين على اتخاذهم آلهة ليس لها خواص الألوهية ، ومنها الإحياء بعد الإماتة وهو النشر.

٢ ـ إن تعدد الآلهة سبب مؤد لفساد نظام العالم والكون من السموات والأرض ، وتخريبها وهلاك من فيهما بوقوع التنازع والاختلاف الواقع بين الشركاء عادة ، لذا نزّه الله تعالى نفسه ، وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد.

وقد استدل الرازي بأدلة أخرى عقلية ونقلية على وحدانية الله تعالى ، وهي اثنان وعشرون دليلا ، أربعة عشر منها عقلية ، وثمانية نقلية سمعية ، وأقوى الأدلة العقلية : أنه لو فرضنا وجود إلهين ، لافتقر أحدهما إلى الآخر ؛ لأنه يصبح مركبا من ذاته ومما يشاركه به الآخر ، وكل مركب هو مفتقر إلى جزئه ، وكل مفتقر إلى غيره ممكن ، والإله واجب الوجود لذاته غير ممكن لذاته ، فإذن ليس واجب الوجود إلا الواحد ، وكل ما عداه مفتقر إليه ، وكل مفتقر إلى غيره فهو محدث ، فكل ما سوى الله تعالى محدث.

ومن الأدلة النقلية هذه الآية : ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ وهو كقوله : ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٩١] وقد صرح الله تعالى بكلمة : ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ في سبعة وثلاثين موضعا من القرآن ، وصرح بالوحدانية في موضعين فقط ، وهما قوله تعالى : ﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ [البقرة ٢ / ١٦٣] وقوله : ﴿قُلْ : هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١١٢ / ١] [(١)].

٣ ـ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، أي لا يسأله الخلق عن قضائه في خلقه ، وهو يسأل الخلق عن عملهم ؛ لأنهم عبيد. وهذا يدل على أن من يسأل غدا عن أعماله ، كالمسيح والملائكة لا يصلح للألوهية ، وعلى كون المكلفين مسئولون عن أفعالهم.

روي عن علي رضي الله عنه أن رجلا قال له : يا أمير المؤمنين : أيحب ربنا أن يعصى؟ قال : أفيعصى ربّنا قهرا؟ قال ـ أي الرجل ـ : أرأيت إن منعني الهدى ، ومنحني الردى أأحسن إليّ أم أساء؟ قال : إن منعك حقك فقد أساء ، وإن منعك فضله ، فهو فضله يؤتيه من يشاء ، ثم تلا : ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢ / ١٥٢ ـ ١٥٤

وعن ابن عباس قال : لما بعث الله عَزَّوَجَلَّ موسى وكلّمه ، وأنزل عليه التوراة ، قال : اللهم إنك رب عظيم ، لو شئت أن تطاع لأطعت ، ولو شئت ألا تعصى ما عصيت ، وأنت تحب أن تطاع ، وأنت في ذلك تعصى ، فكيف هذا يا ربّ؟ فأوحى الله إليه : إني لا أسأل عما أفعل ، وهم يسألون.

٤ ـ أعاد الله تعالى في الآيات التعجب من اتخاذ الآلهة من دون الله ، مبالغة في التوبيخ ، على وصفهم المتقدم في الإنشاء والإحياء ، فتكون ﴿أَمِ﴾ بمعنى هل ، أي هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من دون الله؟ فليأتوا بالبرهان على ذلك.

وقيل : إن التعجب الأول : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ احتجاج من حيث المعقول ؛ لأنه قال : ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي يحيون الموتى. والثاني ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ احتجاج بالمنقول ، أي هاتوا برهانكم من الكتب السماوية ، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن ، أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء؟!

٥ ـ إن الجهل هو المصدر الأصيل في فساد عقائد المشركين : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَ﴾.

٦ ـ جميع الرسل والأنبياء أوحى الله إليهم أنه لا إله إلا الله ، فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء موجود ، والدليل إما معقول وإما منقول. قال قتادة : لم يرسل نبي إلا بالتوحيد ، والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن ، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد. أي إن دعوة الرسل جميعا جاءت لبيان التوحيد.

٧ ـ ردّ الله تعالى على بعض العرب الذين كانوا يقولون : الملائكة بنات الله بتنزيه نفسه عن اتخاذ الولد ، قيل : نزلت آية ﴿وَقالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً

﴿سُبْحانَهُ﴾ في خزاعة ، حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وكانوا يعبدونهم طمعا في شفاعتهم لهم.

وبعد التنزيه ذكر الله خمس صفات للملائكة تدل على العبودية ونفي الولادة وهي :

أ ـ المبالغة في طاعة الله ، فهم لا يقولون قولا ولا يفعلون فعلا إلا بأمر الله ، وهذه صفات العبيد ، لا صفات الأولاد.

ب ـ إن الله تعالى يعلم أسرارهم ، وهم لا يعلمون أسراره ، فهو المستحق للعبادة ، لا هم.

ج ـ إنهم لا يشفعون إلا بإذن الله ورضاه ، ومن كان إلها لا يحتاج لإذن أحد.

د ـ إنهم أشد الخلق خوفا من الله ، وذلك من صفات العبيد.

هـ ـ الملائكة وإن أكرموا بالعصمة ، فهم كسائر المكلفين مسئولون موجه لهم الوعد والوعيد ، فلا يتصور كونهم آلهة. وهذه الآية تدل على كون الملائكة مكلفين ، وعلى أنهم معصومون ، وعلى أنهم متوعدون.

٨ ـ كما يجزي الله تعالى بالنار كل من ادعى الشركة مع الله ، ودعا إلى عبادة نفسه كإبليس ، فكذلك يجزي الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعهما.

توبيخ آخر للمشركين على عدم تدبر آيات الكون

الدالة على وجود الإله الواحد

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾

الإعراب :

﴿رَتْقاً﴾ قال ذلك ، ولم يقل : رتقين ؛ لأنه مصدر ، وتقديره : كانتا ذواتي رتق.

﴿سُبُلاً﴾ بدل.

﴿يَسْبَحُونَ﴾ أتى بالواو والنون ، وهي إنما تكون لمن يعقل ؛ لأنه أخبر عنها بفعل من يعقل ، فأجراها مجرى من يعقل ، كقوله تعالى : ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ و ﴿كُلٌ﴾ : مبتدأ ، وجملة : ﴿يَسْبَحُونَ﴾ : خبره ، والجملة منهما حال من ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

البلاغة :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ استفهام معناه التعجب والإنكار.

﴿كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾ بين الرتق والفتق طباق.

﴿يَهْتَدُونَ﴾ ، ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بينهما سجع لطيف.

﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ التنكير للتعميم.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ التفات من المتكلم إلى الغائب بعد قوله : ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ﴾ للفت النظر إلى النعم الجليلة والاعتناء بها.

المفردات اللغوية :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أولم يعلموا. ﴿رَتْقاً﴾ الرتق : السد والضم والالتحام ، والمراد : ذات رتق ، أي ملتزقتين. والمعنى : كانتا شيئا واحدا ، أو حقيقة متحدة. ﴿فَفَتَقْناهُما﴾ أي فصلناهما بالتنويع والتمييز ، فجعلنا السماء سبعا والأرض سبعا. والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين. ﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ﴾ أي وخلقنا من الماء كل حيوان سواء النازل من السماء والنابع من الأرض. ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ أي صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء ، لا يحيا دونه ، سواء النبات وغيره ، فالماء سبب لحياته. ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ بتوحيدي ، مع ظهور الآيات.

﴿وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي لئلا تتحرك بهم ، أو كراهة أن تميل بهم وتضطرب. ﴿وَجَعَلْنا فِيها﴾ أي في الرواسي. ﴿فِجاجاً سُبُلاً﴾ أي مسالك وطرقا نافذة واسعة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي ليهتدوا بها إلى مصالحهم ومقاصدهم في الأسفار والزراعة.

﴿سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ أي سقفا للأرض ، مثل سقف البيت ، محفوظا من الوقوع بقدرته ، أو من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته. ﴿وَهُمْ عَنْ آياتِها﴾ أي عن أحوالها الدالة على وجود الله ووحدته وكمال قدرته وروعة حكمته ، بما اشتملت عليه من الشمس والقمر والنجوم. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ، فيعلمون أن خالقها لا شريك له.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما له مدار مستدير ، والتنوين : بدل من المضاف إليه ، أي كل من الشمس والقمر وتابعهما وهو النجوم. والمراد بالفلك : الجنس ، وهو مدار الشمس والقمر والنجوم. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون على سطح الفلك بسرعة ، كالسابح في الماء ، وللتشبيه به ، وإنما جمع الفعل باعتبار جنس الطوالع المتكاثرة كل يوم وليلة ، وهو سبب جمعهما بالشموس والأقمار ، وإلا فالشمس واحدة والقمر واحد. وعوملوا معاملة العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة.

المناسبة :

بعد أن وبخ الله تعالى المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى ، والذين قالوا : اتخذ الله ولدا من الملائكة ، وبخهم على عدم تدبر الآيات الكونية الدالة

على وجود الله ، وعلى التوحيد وتنزيهه من الشرك ، وأنه لا يصح لعاقل عبادة الأصنام والأوثان لعجزها وعدم الجدوى من عبادتها.

التفسير والبيان :

أورد الله تعالى في هذه الآيات ستة أدلة تدل على وجود الإله الواحد القادر ذي القدرة التامة والسلطان العظيم في خلق الأشياء وقهر جميع المخلوقات ، وهي ما يلي :

١ . فتق السموات عن الأرض :

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما﴾ أي أو لم يعلم الجاحدون لألوهية الله ، العابدون معه غيره أن الله هو المستقل بالخلق ، المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد معه غيره ، أو يشرك به ما سواه ، ألم يعلموا أن السموات والأرض كانتا متصلتين ببعضهما ، تلاصقت أجزاؤهما ، وتراكم بعضها فوق بعض ، ثم فصلناهما ، وجعلنا بين السماء الدنيا والأرض طبقة من الهواء؟!

وهذه هي نظرية السديم عند علماء الفلك الذين يثبتون أن الشمس والكواكب والأرض كانت قطعة واحدة ، وأن الشمس كانت كرة نارية ، وفي أثناء سيرها السريع انفصلت عنها أرضنا والكواكب السيارة الأخرى ، وهي تسعة مرتبة بحسب قربها من الشمس : عطارد ، والزّهرة ، والأرض ، والمرّيخ ، والمشتري ، وزحل ، وأورانوس ، ونبتون ، وبلوتوه. ولكل منها مدار بحسب تأثير الجاذبية ، وهي تجري في الفلك ، وهي تسعة أفلاك دون السموات المطبقة التي يعيش فيها الملائكة. والفلك : استدارة في السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء ، أو هو مجراها وسرعة سيرها.

وهذا السبق العلمي الذي أعلنه القرآن دليل واضح قاطع على أن القرآن

كلام الله ووحيه المنزل على عبده محمد ﷺ النبي الأمي الذي يستحيل أن يكون عالما بمثل ذلك لولا الوحي الإلهي.

٢ . جعل الماء أساس الحياة :

﴿وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ أي وخلقنا من الماء كل حيوان ، أي فيه حياة ، كقوله تعالى : ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ﴾ [النور ٢٤ / ٤٥] فكل حيوان من النطفة التي هي ماء ، ولا ينبت النبات إلا بالماء.

وهذا موافق لما يراه بعض العلماء : أن كل حيوان خلق أولا في البحر ، ثم انتقل بعض الحيوان إلى البر ، وتطبع بطباع البر مع مرور الزمن.

﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ألا يتدبرون هذه الأدلة ، وهم يشاهدون عيانا حدوث المخلوقات شيئا فشيئا ، فيؤمنون بالخالق ، ويتركون منهج الشرك؟!

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

٣ . جعل الجبال رواسي الأرض :

﴿وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي وخلقنا في الأرض جبالا لإرساء الأرض بها وتثبيتها ، لئلا تضطرب بالناس وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها ، والرواسي : الجبال ، والراسي : هو الداخل في الأرض.

والأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ، وقد أثبت العلماء أن الأرض كانت نارا ملتهبة ، ثم بردت قشرتها ، وصارت صوّانية صلبة ، وذلك منذ حوالي ثلاث مائة مليون سنة بل حوالي خمسة مليارات سنة كما يرى المعاصرون. ويؤكد ذلك وجود حمم النيران التي تخرجها البراكين. ونسبة الجبال إلى الأرض هي بنسبة مليمتر ونصف من المتر.

وهذا دليل ثالث على أن القرآن وحي من عند الله ، لا من عند بشر.

٤ . إيجاد الطرق مسالك بين الجبال :

﴿وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي وخلقنا في الأرض بين الجبال طرقا واسعة نافذة ، يسلكها الناس بسهولة من مكان إلى آخر ، أو من قطر أو إقليم إلى آخر ، ليهتدوا بها إلى مقاصدهم ومصالحهم المعيشية في البلاد ، وقيل : ليهتدوا إلى وحدانية الله تعالى بالاستدلال. والفج : الطريق الواسع ، والسبيل : الطريق السالك. وقدمت الفجاج وهي صفة على السبل ، ولم تؤخر ، كما في قوله تعالى : ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً﴾ [نوح ٧١ / ٢٠] لتجعل حالا ، والفرق من جهة المعنى أن قوله : ﴿سُبُلاً فِجاجاً﴾ إعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة ، وأما قوله : ﴿فِجاجاً سُبُلاً﴾ فهو إعلام بأنه حين خلقها خلقها على تلك الصفة ، فهذه الآية بيان لما أبهم في الآية الأولى.

وقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ معناه : لكي يهتدوا ؛ إذ الشك لا يجوز على الله تعالى.

والضمير في قوله : ﴿فِيها﴾ عائد إلى الجبال ، أي وجعلنا في الجبال التي هي رواسي فجاجا سبلا ، أي طرقا واسعة ، وقيل : إنه عائد إلى الأرض ، أي وجعلنا في الأرض فجاجا وهي المسالك والطرق.

. جعل السماء سقفا للأرض :

﴿وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾ أي وجعلنا السماء كالسقف على الأرض وكالقبة عليها ، وذلك السقف محفوظ من الوقوع والاضطراب ، ومن الشياطين التي تسترق السمع ، كما قال تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج ٢٢ / ٦٥] وقال : ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٥] وقال : ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ [فاطر ٣٥ / ٤١]. وحفظها من الشياطين إما بالملائكة وإما بالنجوم.

﴿وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ﴾ أي لا يتفكر المشركون وغيرهم فيما خلق الله في السموات من الأدلة والعبر الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته ، من الشمس والقمر وسائر الكواكب الثابتة والسيارة ، ليتعاقب الليل والنهار ، وتظهر المنافع بالحر والبرد ، وللإرشاد إلى الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة. وذلك كقوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف ١٢ / ١٠٥].

٦ . خلق الليل والنهار والشمس والقمر :

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي والله خلق الليل والنهار ، نعمة منه ، ودليلا على عظمة سلطانه ، بواسطة دوران الأرض حول نفسها ، لتتحقق الفائدة المرجوة من كليهما بالظلام والسكون ، والضياء والأنس ، والتفاوت في الطول والقصر أو التساوي بينهما في مدار السنة ، وخلق أيضا الشمس والقمر ، للإضاءة وإمداد الأحياء بحرارة الشمس ، وإفادة بعض المزروعات والثمار بضوء القمر ، وكل من الشمس والقمر والنجوم والأرض يدور في فلكه ، دوران المغزل في الفلكة ، فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك الشمس والقمر والنجوم لا تدور إلا بالفلك ، ولا يدور إلا بهن ، كما قال تعالى : ﴿فالِقُ الْإِصْباحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام ٦ / ٩٦]. وقوله : ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بالجمع يشمل النجوم ، فهي وإن لم تكن مذكورة نصا فهي مذكورة ضمنا.

ودوران الشمس والقمر والأرض في الفضاء اللانهائي يثبته أيضا العلم الحديث ، مما يدل على أن هذا القرآن معجز للأبد ، دال على كونه وحيا صادرا منه ، وأنه النعمة الكبرى لبني الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام :

الآيات كما لاحظنا تتضمن أدلة كافية على وجود الإله الصانع الواحد الأحد ، المنزه عن الشريك والولد ، وهي أدلة تثير الإعجاب ، وتوحي باتصاف الموجد الخالق بالقدرة التامة ، والسلطان العظيم.

وقد عرفنا أنها أدلة ستة هي :

أولا ـ فتق السموات عن الأرض ، وجعل طبيعة خاصة لكل منهما ، فالأرض بهوائها ومائها تتناسب مع وجود الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية ، ومع ما يتطلبه الاستقرار والثبات عليها ، والسموات تتلاءم مع وجود المجرّات والكواكب والنجوم والشمس والقمر ، لنشر الحرارة ، وإلقاء الضوء ، والسموات سبع ، وكذا الأرض سبع.

وثانيا ـ جعل الماء سببا للحياة ، فالله تعالى خلق كل شيء من الماء ، وحفظ حياة كل شيء بالماء ، وأوجد الإنسان من ماء الصلب. روى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له عن أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسي ، وقرّت عيني ، أنبئني عن كل شيء ؛ قال : «كل شيء خلق من الماء». وما أروع لفت النظر بعد هذه الآية حين قال تعالى : ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه ، بل لمكوّن كوّنه ، ومدبر أوجده ، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوّن محدثا ، بل لا بدّ من أن يكون أزليا قديما ؛ لأن صفة الألوهية تقتضي عقلا عدم المشابهة للحوادث.

وثالثا ـ خلق الله الجبال رواسي أي جبالا ثوابت ، لتكون مثبتة للأرض ، حتى لا تتحرك بمن عليها ، وليتم القرار والاطمئنان عليها ، أو كراهية أن تميد ، والميد : التحرك والدوران.

ورابعا ـ أوجد الله في الأرض وبين هامات الجبال مسالك وطرقا واسعة ، لتكون منافذ يسهل على الناس اختراقها وتجاوزها من مكان لآخر ، ومن قطر إلى قطر أو إقليم إلى إقليم. والفجاج جمع فجّ : وهو الطريق الواسع بين الجبلين ، ثم فسر تلك الفجاج بالسبل ، أي الطرق النافذة السالكة ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا ، وقد لا يكون ، ووجود الطرقات للاهتداء بها إلى السير في الأرض نعمة عظمي ، وندرك هذه النعمة إذا لاحظنا ما تنفقه الدولة الحديثة من النفقات الباهظة على تعبيد الطرق وشقها ، لربط الأقاليم والأمصار وأجزاء البلاد بشبكة من الطرق ، تسهل الانتقال بينها والاتصال معها.

وخامسا ـ جعل السماء سقفا للأرض ، محفوظا من الوقوع والسقوط على الأرض ، فلا تمكن الحياة في الأرض بدون هذا السقف ، كما لا يمكن العيش في بيت أو دار بدون سقف ، ولأن حفظ طبقة الهواء بهذا السقف أمر ضروري محتم لحياة الإنسان ، كما أن الحفاظ على هذا السقف من التداعي والسقوط على الأرض أمر أساسي لصون الحياة الإنسانية ، ومنع الضرر عن الناس ، فإذا سقط على الناس بعض الكتل النارية أو الأجرام السماوية ، كان الدمار والهلاك الجزئي ، فكيف إذا سقطت السماء كلها؟!

ومما يدعو إلى الأسف والعجب أن الكفار معرضون عن آيات السماء من الشمس والقمر والنجوم وغيرها. وقد أضاف الله تعالى الآيات في قوله : ﴿**وَهُمْ عَنْ آياتِها** ...﴾ إلى السماء ؛ لأنها مجعولة فيها ، وفي مواضع أخرى أضاف تعالى الآيات إلى نفسه ؛ لأنه الفاعل لها.

وهذا دليل على أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها وسحابها ، وما فيها من قدرة الله تعالى ؛ إذ لو نظروا واعتبروا ، لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا ، فيستحيل أن يكون له شريك.

وسادسا ـ خلق الليل والنهار ، وهذا تذكير بنعمة أخرى على الناس ، فالله جعل لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه وينطلقوا لمعايشهم ، وجعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، لتعلم الشهور والسنون والحساب ، وكل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسيرون بسرعة في فلك خاص ، كالسابح في الماء.

موت جميع الخلائق ومجيء القيامة أو عذاب النار بغتة

﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٤١)﴾

الإعراب :

﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾ حقّ همزة الاستفهام إذا دخلت على حرف الشرط كما هنا : أن

تكون رتبتها قبل جواب الشرط. وفي هذه الآية دليل على أنّ إن إذا دخلت عليها همزة الاستفهام ، لا تبطل عملها ، كقولك : إن تأتني آتك ؛ لدخول الفاء في فهم وفاء ﴿فَهُمُ﴾ لتعلق الشرط بما قبله ، والهمزة لإنكاره ، بعد ما تقرر ذلك.

﴿فِتْنَةً﴾ مفعول لأجله.

﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ فيه محذوف تقديره : قائلين : أهذا الذي يذكر آلهتكم ، وهو في موضع الحال ، وحذف القول كثير في كلامهم.

﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ﴾ الجملة في موضع الحال ، أي يتخذونك هزوا ، وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية ، وهي الكفر بالله تعالى.

البلاغة :

﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ﴾ التنكير للتعميم.

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ يوجد طباق بين الشر والخير.

﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مبالغة في وصف الإنسان ، جعل لفرط استعجاله ، كأنه مخلوق من العجل نفسه ، كقول العرب لمن لازم اللعب : هو من لعب.

﴿الْخالِدُونَ كافِرُونَ تَسْتَعْجِلُونِ يُنْصَرُونَ يُنْظَرُونَ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ بينها سجع لطيف.

المفردات اللغوية :

﴿الْخُلْدَ﴾ الخلود والبقاء في الدنيا. ﴿فَهُمُ الْخالِدُونَ﴾ في الدنيا؟ لا ، وهذه الجملة محل الاستفهام الإنكاري. ﴿ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ في الدنيا ، والذوق هنا : الإدراك ، والمراد من الموت : مقدماته من الآلام الشديدة ، والمدرك : هي النفس المفارقة للبدن. وجملة ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ برهان على ما أنكره من الخلود للنفوس في الدنيا. ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ نختبركم أي نعاملكم معاملة المختبر. ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم ، أو المحبوب والمكروه ، كفقر وغنى ، وسقم وصحة ، وذلّ وعزّ. ﴿فِتْنَةً﴾ أي ابتلاء ، وهو مصدر من غير لفظ الفعل المتقدم ، أي لننظر : أتصبرون وتشكرون أم لا؟ ﴿وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسبما يوجد منكم من الصبر والشكر. وفيه إيماء بأن المقصود من هذه الحياة الابتلاء.

﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ أي ما يتخذونك إلا مهزوءا به ، مسخورا منه. ﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ؟﴾ أي يقولون : أهذا الذي يعيب آلهتكم؟ ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ﴾ أي إذا ذكر الإله

الرحمن الواحد. ﴿هُمْ﴾ الثانية تأكيد كفرهم. ﴿كافِرُونَ﴾ به ، إذ قالوا : ما نعرفه ، أي لا يصدقون به أصلا ، فهم أحق منك بأن يتخذوا هزوا ، فإنك محق وهم مبطلون. وقيل : معنى بذكر الرحمن : قولهم ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة. وقيل : بذكر الرحمن : معناه بما أنزل عليك من القرآن.

﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي أنه لكثرة عجله في أحواله ، كأنه خلق منه ، ومن عجلته : مبادرته إلى الكفر. ﴿سَأُرِيكُمْ آياتِي﴾ أي مواعيدي بالعذاب ، في الدنيا كوقعة بدر ، وفي الآخرة عذاب النار. ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فيه أو بالإتيان به.

﴿مَتى هذَا الْوَعْدُ؟﴾ أي بالقيامة. ﴿صادِقِينَ﴾ فيه ، يعنون النبيﷺ وأصحابه. ﴿لا يَكُفُّونَ﴾ يدفعون. ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يمنعون منها في القيامة. وجواب ﴿لَوْ﴾ : ما قالوا ذلك. ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ القيامة أو النار. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي تحيرهم ، أو تغلبهم. ﴿وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. ﴿فَحاقَ﴾ نزل أو أحاط. ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ﴾ أي العذاب ، وهو وعد للنبيﷺ بأن ما يفعلونه به يحيق بهم ، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا أي جزاءه.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٤):

﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ ..﴾ نزلت هذه الآية ، لما قال الكفار : إن محمدا سيموت ، قائلين : ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور ٥٢ / ٣٠]. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نعي إلى النبي ﷺ نفسه ، فقال : يا رب ، فمن لأمتي؟ فنزلت : ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ الآية.

نزول الآية (٣٦):

﴿وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن السّدّي قال : مرّ النبيﷺ على أبي جهل وأبي سفيان ، وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك ، وقال لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف ، فغضب أبو سفيان ،

وقال : أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي؟ فسمعنا النبي ﷺ ، فرجع إلى أبي جهل ، فوقع به ، وخوّفه ، وقال : ما أراك منتهيا حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبي سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حميّة ، فنزلت الآية : ﴿وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾.

نزول الآية (٣٧):

﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ نزلت هذه الآية في استعجالهم العذاب ، روي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث ، وهو القائل : ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢].

المناسبة :

بعد أن أقام الله تعالى أدلة ستة على وجود الخالق المتصف بالوحدانية ، أبان أن مصير الدنيا إلى فناء وزوال ، وأنها خلقت للابتلاء والامتحان ، ولتكون جسرا إلى الآخرة دار الخلود ، وأن مصير الخلائق جميعا إلى الله تعالى للحساب والجزاء ، ثم ذكر أن مجيء القيامة أو العذاب بالنار آت بغتة لا محالة ، فلا يغترن أحد بطول البقاء في الدنيا ، ولا يسخرن برسول من عند الله ، فإنه سيلقى جزاء سخريته واستهزائه ، وهذا زجر واضح شديد التأثير.

التفسير والبيان :

ينفي الحق تعالى الخلود في الدنيا لأحد من المخلوقات ، فيقول : ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أي قضى الله تعالى ألا يخلد في الدنيا بشرا ، فلا أنت يا محمد ولا أحد ممن سبقك أو عصاك أو يأتي بعدك إلا عرضة للموت ، وقد قدّر لك أن تموت كسائر الرسل المتقدمين قبلك.

﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي هل إذا متّ أنت أيبقى هؤلاء المشركون بربهم؟ لا ، بل الكل ميتون ، فلا يؤملون أن يعيشوا بعدك.

وهذا رد على المشركين الذين كانوا يتمنون موت رسول الله ﷺ ، وكانوا يقدرون أنه سيموت ، فيشمتون بموته ، فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ ، وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ [الرحمن ٥٥ / ٢٦ ـ ٢٧].

أخرج البيهقي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل أبو بكر على النبي ﷺ ، وقد مات ، فقبّله وقال : وا نبياه ، وا خليلاه ، وا صفيّاه ، ثم تلا : ﴿وَما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ الآية.

واستدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحي إلى الآن ؛ لأنه بشر ، سواء كان وليا أو نبيا أو رسولا.

وتأكيدا لبيان موت جميع البشر ، قال تعالى :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء ، وكل نفس ذائقة مرارة الموت قبل مفارقتها الجسد ، جاء في الحديث : «إن للموت لسكرات» (١) فلا يفرح أحد بموت أحد ، ولا يشمت أو يتشفى لوفاته ، فالكل متجرع كأس المنون. والذوق هنا : مجاز عن الإدراك. والمراد بالموت هنا : مقدماته من الآلام العظيمة.

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي نبتليكم ونختبركم بالبلايا والنعم ، أو بالمحبوب والمكروه ، بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال ، اختبارا وامتحانا ، لنعلم أتصبرون وتشكرون أم لا؟ وقوله ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه

---

(١) روى ابن ماجه في معناه : «اللهم أعني على سكرات الموت».

والمراد من ذلك : أنا نعاملكم معاملة من يختبركم ، لنعرف الصابر في الشدائد ، والشاكر في الرخاء.

﴿وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ أي ومرجعكم ومصيركم في النهاية إلينا ، أي إلى حكمنا ومحاسبتنا ومجازاتنا ، فنجازيكم بأعمالكم. وفي هذا وعد بالثواب ، ووعيد بالعقاب.

والابتلاء لا يكون إلا بعد التكليف ، والتكليف لا يكون إلا بعد البلوغ والعقل ، فالآية دالة على حصول التكليف ، والتكليف لا يقتصر بالمكلف على ما أمر به ونهي عنه ، بل ابتلاه بأمرين :

أحدهما ـ ما سماه خيرا : وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور.

والثاني ـ ما سماه شرا : وهو المضارّ الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين.

وإنما سمي ذلك ابتلاء ، والله عالم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم ؛ لأنه في صورة الاختبار.

﴿وَإِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً﴾ أي وإذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ، ما كان همهم إلا السخرية منك ، وما يتخذونك إلا مهزوءا به ، فيستهزءون بك وينتقصونك ، وكان جديرا بهم التفكير في سلوكك وأخلاقك ، وفيما ينزل عليك من وحي فيه عظة وذكرى للعقلاء ، وهم الذين حمى الله نبيهم منهم بقوله : ﴿إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر ١٥ / ٩٥].

وهم القائلون : ﴿أَهذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي يقولون تعجبا واستنكارا : أهذا الذي يعيب آلهتكم ويسفّه أحلامكم؟!

﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ﴾ أي والحال أنهم كافرون بالله الذي خلقهم

وأنعم عليهم ، وإليه مرجعهم ، و ﴿هُمْ﴾ الثانية توكيد كفرهم أي فهم الكافرون ، مبالغة في وصفهم بالكفر. والمراد أنهم كيف يعجبون منك ومن صنيعك بنبذ آلهتهم ووصفها بالسوء ، وهم أشد عجبا ، إذ يكفرون بالله ، ويستهزئون برسول الله ﷺ ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً ، أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً. إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا ، لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها ، وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٤١ ـ ٤٢].

والخلاصة : أنهم يعيبون على النبي ذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء ، مع أنهم كافرون بالرحمن الذي هو المنعم الخالق المحيي المميت ، ولا فعل أقبح من ذلك ، فالهزء والذم يعود عليهم من حيث لا يشعرون ، وهم أحق بالاستهزاء والسخرية ؛ لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه.

وبالرغم من هذا فهم أناس حمقى طائشون متهورون يستعجلون بمجيء العذاب الذي تهددهم به يا محمد ، فقال تعالى :

﴿خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي خلق عجولا ، أو فطر الإنسان على العجلة ، والمراد نوع الإنسان ، وقيل : إنه شخص معين ، حتى لكأن التعجل جزء من تكوينه وفطرته ، وسجيته وطبعه كما قال تعالى : ﴿وَكانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً﴾ في الأمور [الإسراء ١٧ / ١١] ، فاستعجل هؤلاء المشركون عذاب الله وآياته الملجئة إلى الإيمان والإقرار بالعبودية ، وبرسالة محمد ﷺ ، فالمراد بالآيات : أدلة التوحيد وصدق الرسول ، أو الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ولذلك قال : ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها ، ثم حكى الله تعالى قولهم :

﴿وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي إنهم يستعجلون أيضا

بوقوع العذاب بهم تكذيبا وجحودا ، وكفرا وعنادا ، واستبعادا لحدوثه ، فيقولون على سبيل الاستهزاء للنبي ﷺ ولأصحابه المؤمنين لجهلهم وغفلتهم : متى وقت حدوث عذاب النار الذي تهددوننا به إن كنتم صادقين في وعدكم وقولكم؟! فقوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ أي يا معشر المؤمنين.

أراد تعالى نهيهم عن الاستعجال وزجرهم ، فقدّم أولا ذمّ الإنسان على إفراط العجلة ، وأنه مطبوع عليها ، ثم نهاهم وزجرهم عن استبطاء الموعود به بقصد إنكار وقوعه وعدم تصوره أصلا ، ثم بيّن مدى حماقتهم بهذا الطلب فقال :

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ ..﴾ أي لو تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة ، لما استعجلوا ، ولو علموا أحوال عذاب النار التي تحيط بهم من الأمام والخلف وجميع الجهات ، وحين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فلا يستطيعون ردّ النار عن وجوههم ، ولا دفعها عن ظهورهم ، ولا يجدون ناصرا لهم ينصرهم ويمنعهم من العذاب وينقذهم منه كما قال تعالى : ﴿وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ [الرعد ١٣ / ٣٤] ، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ، أي لو علموا وقت الوعيد ، لما أصروا في البقاء على كفرهم ، ولما استعجلوا هذا العذاب الشديد.

والعلم في قوله تعالى : ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ بمعنى المعرفة ، فلا يقتضي مفعولا ثانيا ، مثل ﴿لا تَعْلَمُونَهُمُ ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال ٨ / ٦٠].

وإنما خص الوجوه والظهور ؛ لأن شدة تأثرها بالعذاب أكثر.

ونظير الآية : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر ٣٩ / ١٦] ، وقوله أيضا : ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ [الأعراف ٧ / ٤١] ، وقوله كذلك : ﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ ، وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٥٠] فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم.

ثم أبان الله تعالى كما هو المعتاد في قرآنه أن وقت مجيء العذاب مجهول فقال : ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها ، وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي بل إن الساعة تأتيهم فجأة ، فتحيرهم وتغلبهم ، فلا يجدون حيلة لردها ، ولا هم يمهلون ويؤجلون لتوبة أو معذرة ، لفوات الوقت. وهذا تذكير بإمهاله إياهم ، وإعطائهم فرصة واسعة للتذكر والإيمان ، والعدول عن الكفر والضلال ، فلا يمهلون بعد طول الإمهال.

والسبب في عدم العلم بمجيء الساعة هو جعل العبد أشد حذرا ، وأقرب إلى تدارك الأخطاء ، فلا يتكل ولا يتوانى لحين حدوث العذاب.

ورجوع الضمير المؤنث في قوله : ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ هو إلى النار ، أو إلى الوعد ؛ لأنه في معنى النار ، أو إلى الحين ؛ لأنه في معنى الساعة (القيامة).

ثم سلا رسوله ﷺ عن استهزائهم به وتكذيبهم له ، فقال :

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ..﴾ أي إن لك في الأنبياء عليهم السلام أسوة ، فقد استهزئ برسل كثيرين من قبلك ، فنزل بالساخرين المستهزئين العذاب جزاء ما فعلوا ، وسينزل أيضا بمن استهزأ بك العذاب والبلاء جزاء استهزائهم ، كما حدث بأسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها ، ذلك العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا ، حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا ، وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الإنعام ٦ / ٣٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ لا خلود لأحد من المخلوقات في دار الدنيا ، وكل من عليها فان ، وكل

نفس ذائقة الموت ، فإن مات النبي محمد ﷺ ، أفهم الخالدون إن مات؟!

٢ ـ الدنيا دار ابتلاء واختبار ، والاختبار كما يكون بالشر يكون بالخير ، فيختبر الناس بالشدة والرخاء ، والحلال والحرام ، وينظر كيف شكرهم وصبرهم ، ثم يكون المرجع والمآل إلى الله تعالى للجزاء بالأعمال.

والابتلاء لا يكون إلا بعد التكليف ، فتدل الآية على حصول التكليف ، ولا يقتصر الابتلاء على المأمور به والمنهي عنه ، وإنما يشمل ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور ، وما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين ، والعبد يتردد بين هاتين الحالتين ، لكي يشكر على المنح والنعم ، ويصبر في المحن.

٣ ـ العموم في قوله تعالى : ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ من قبيل العموم المخصوص ، فإنه تعالى نفس ؛ لقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿**تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي ، وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ**﴾ [المائدة ٥ / ١١٦] مع أن الموت لا يجوز عليه ، وكذا الجمادات لها نفوس ، وهي لا تموت. والعام المخصوص حجة ، فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الأشياء.

٤ ـ الكفار المستهزئون بالنبي ﷺ الذي يعيب اتخاذ الأصنام آلهة أحق وأجدر بالاستهزاء والسخرية لكفرهم بالإله الحق الخالق المنعم المتفضل على الناس بأصناف النعم الكثيرة.

٥ ـ ركّب الإنسان على العجلة ، فخلق عجولا ، وصار طبع الإنسان العجلة ، ولكن في العجلة أحيانا حماقة وطيش وجهل وغفلة ، كما في حال استعجال المشركين نزول العذاب الموعود.

٦ ـ إن مجيء الساعة أو وقت العذاب بالنار محقق ، ولكنه يأتي فجأة ، فلا يبقى مجال لتوبة واعتذار.

٧ ـ إن الاستهزاء بالرسل ديدن الكفار قديما وحديثا ، فلا بد من الصبر ، وسيلقى المستهزئون جزاء استهزائهم.

حراسة الله وحفظه للإنسان وعدل الحساب

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَفَهُمُ الْغالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ (٤٧)﴾

الإعراب :

﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِثْقالَ﴾ : خبر ﴿كانَ﴾ الناقصة ، واسمها مضمر فيها ، وتقديره : وإن كان الظلم مثقال حبة. وقرئ بالرفع على أن تجعل ﴿كانَ﴾ التامّة ، فيكون مرفوعا على أنه فاعل.

البلاغة :

﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ﴾ استعارة ، استعار الصمّ للكفار ، لأنهم كالبهائم لا يسمعون النداء إلى الإيمان سماع تدبر وتفهم.

﴿حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ كناية عن العمل القليل.

المفردات اللغوية :

﴿يَكْلَؤُكُمْ﴾ يحرسكم ويحفظكم ، والفعل الماضي : كلأ : حفظ ، والمصدر : الكلاءة: الحراسة والحفظ. ﴿مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾ أي من بأسه وعقابه الذي تستحقونه إن أراده بكم. وفي لفظ ﴿الرَّحْمٰنِ﴾ تنبيه على ألا كالئ غير رحمته العامة. ﴿ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي القرآن. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيه. ﴿مِنْ دُونِنا﴾ من غيرنا ومن عذابنا. ﴿يُصْحَبُونَ﴾ يجأرون من عذابنا ، يقال : صحبك الله أي حفظك.

﴿أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ من الله ، لا من قبل نفسي. ﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ﴾ إنما سماهم الصم لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار كالصم. ﴿نَفْحَةٌ﴾ نصيب قليل أو أدنى شيء ، وأصل النفح : هبوب رائحة الشيء. ﴿يا وَيْلَنا﴾ يا هلاكنا ، و ﴿يا﴾: للتنبيه. ﴿إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ بالإشراك وتكذيب محمد ﷺ.

﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي ذوات العدل ، توزن بها صحائف الأعمال. ﴿لِيَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ أي فيه أو لجزاء يوم القيامة. ﴿فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ من نقص حسنة أو زيادة سيئة. ﴿وَإِنْ كانَ مِثْقالَ﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار حبة ، وحبة الخردل مثل في الصغر. ﴿أَتَيْنا بِها﴾ أحضرناها وأتينا بموزونها. ﴿حاسِبِينَ﴾ محصين كل شيء ؛ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أن الكفار لا يستطيعون أن يكفوا النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، أتبعه ببيان أنهم في الدنيا أيضا ، فلو لا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا سالمين.

ثم أردفه ببيان أنهم معرضون لا يتفكرون بالأدلة التي ترشدهم إلى الإيمان وترك عبادة الأصنام ، كما أنهم لا يرون آثار قدرة الله في إتيان الأرض من جوانبها ، بأخذ الواحد بعد الواحد ، وفتح البلاد والقرى حول مكة ، وفي ذلك عبرة ، فيؤمنوا برسول الله ﷺ.

ثم ذكر وظيفة الرسل التي هي التبليغ والإنذار ، لا الإلزام والقبول ، لكفاية أدلة القرآن على الإيمان. ثم بيّن سبحانه أن جميع ما يتعرض له الكفار في الآخرة لا يكون إلا عدلا ، فهم وإن ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يظلموا في الآخرة ، فموازين الحساب قائمة على العدل والقسط.

التفسير والبيان :

﴿قُلْ : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ..﴾ أي قل أيها الرسول لأولئك الذين يسخرون منك ويستهزئون : من يحفظكم ويحرسكم ليلا في نومكم ونهارا في عملكم من بأس الله وعذابه إن أتاكم أو أراد إنزاله بكم؟!

وفي تعبير ﴿الرَّحْمنِ﴾ إشارة إلى أن تأخير العذاب عن الكفار والعصاة هو من رحمة الله ونعمته وفضله ، كي يعود الإنسان إلى ربه من نفسه.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي بل إن هؤلاء المشركين ، بالرغم من وجود الأدلة الكثيرة العقلية والمذكورة في القرآن الدالة على فضل الله ونعمته بالحفظ والكلاءة ، معرضون عن تلك الأدلة ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم.

وفي ذكر الرب دلالة على أنهم خاضعون لسلطانه ، وأنهم يعيشون في رعايته وتربيته وإمداده بالنعم الوفيرة.

ثم بعد بيان اتصافهم بالإعراض ، وبخهم الله تعالى على عبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع فقال :

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا﴾؟ أي هل لهؤلاء المستهزئين المعرضين عن بيان الله آلهة قادرة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟

﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ، وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي إن تلك الآلهة

المزعومة لا تتمكن من نصر أنفسهم ، ولا دفع الضر والبلاء عنهم ، ولا هم منا يجأرون أو يمنعون ؛ لأنهم في غاية العجز والضعف ، فكيف ينصرون غيرهم ، ويدفعون الضر عنهم ، أو يجلبون النفع لهم؟!

ثم أخبر تعالى عن مزيد فضله عليهم فقال :

﴿بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي إن الذي غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنّهم متّعوا في الحياة الدنيا ، ونعموا بها ، وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء ، والحقيقة أنهم مع طول الزمان في غفلة ، حتى اغتروا بنعمتنا ، ونسوا شكرها.

والخلاصة : أنه ما حملهم على الإعراض عن آيات الله إلا الاغترار بطول المهلة.

ثم قال تعالى واعظا لهم :

﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ أي أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة ، والقرى الظالمة ، وإنجائه لعباده المؤمنين ، وفتح البلاد حول مكة ، وتناقص رقعة بلاد أهل الشرك؟!

وبعبارة أخرى : أفلا يرون أنا ننقص أرض الكفر ودار الحرب ، ونحذف جوانبها وأطرافها بتسليط المسلمين عليها ، وتغلبهم على أهلها ، وضمّها إلى دار الإسلام.

والفائدة في قوله : ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ تصوير ما كان يجريه على أيدي المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تفتح أرض المشركين المعتدين ، وتأتيها غالبة عليها ، ناقصة من أطرافها. ومعنى نقص أطرافها : دخول المسلمين فيها ، واتساع نفوذ الإسلام شيئا فشيئا ، وانحسار أرض الكفار ،

بدليل قوله بعدئذ : ﴿أَفَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ أي هل نحن الغالبون أم هم؟ فكيف يتوهمون غلبتهم؟ فهم المغلوبون الأخسرون ، وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع.

ويرى بعض علماء العصر أن في الآية دلالة واضحة على نقص أطراف الكرة الأرضية في الشمال والجنوب ، وأنها غير كاملة التكوير والاستدارة ، وذات تفلطح ، وهو ما يعبر عنه بالخط الإهليلجي في القطب الشمالي والجنوبي ، مما يدل على قدرة الله تعالى ، وقوة سلطانه ، وتحكمه في الأرض أثناء دورانها.

وبعد أن كرر تعالى إيراد الأدلة في القرآن على وجود الله وقدرته وتوحيده ، وبالغ في التنبيه عليها ، أتبعه بقوله :

﴿قُلْ : إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي قل أيها النبي : إني إنما أنذركم بالقرآن الذي هو كلام ربكم ، وإنما أنا مبلّغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ، فلا تظنوا أن ذلك من قبلي ، بل الله آتيكم به ، وأمرني بإنذاركم ، وعملي هو مجرد التبليغ لا الإلزام بالقبول ، فإن لم تجيبوا دعوتي ، فعليكم الوبال والنكال ، لا عليّ.

﴿وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ﴾ أي لا يجدي هذا الوحي من أعمى الله بصيرته ، وختم على سمعه وقلبه ، وما مثلهم حين لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار ، على كثرته وتتابعه ، إلا مثل الصم الذين لا يسمعون شيئا أصلا ؛ إذ ليس الغرض من الإنذار مجرد السماع ، بل العمل بما يسمع ، والتمسك به ، بالإقدام على فعل الواجب ، والتحرز عن المحرّم ، ومعرفة الحق ، فإذا لم يتحقق هذا الغرض فلا فائدة في السماع. ثم بيّن تعالى أن حالهم سيتغير ، فيصبحون سريعي التأثر بما ينذرون ، ويعترفون بما لا ينتفعون ، فقال :

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ : يا وَيْلَنا ، إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ﴾ أى ولئن مس أو أصاب هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله يوم القيامة ،

ليعترفن بذنوبهم ، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا ، ويظهرون الندامة على ما فرط منهم ، ويتنادون بالويل والهلاك ، ولا فائدة من ذلك. قال الزمخشري في الكشاف : وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات : لفظ المس ، وما في النفح من معنى القلة والنزارة ، ولفظ المرة.

ثم بيّن الله تعالى أن جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون إلا عدلا ، فقال : ﴿**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ ، فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً**﴾ أي ونضع الموازين العدل التي توزن بها صحائف الأعمال في يوم القيامة ، أو لأهل يوم القيامة ، فلا يلحق نفسا أي ظلم ، فهم إن ظلموا أنفسهم في الدنيا ، فلن يظلموا في الآخرة ، وقوله : ﴿**فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً**﴾ تأكيد عدالة الميزان ، وأنه لا ينقص ثواب أي نفس ما تستحقه.

والأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. ووصفت الموازين بأنها عادلة ، لأن الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه.

والمراد بوضع الموازين : إرصاد الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والإنصاف ، من غير أن يظلم أحد مثقال ذرة ، أي أن المقصود من الوزن العدل بين الخلائق ، وقد مثل ذلك بوضع الموازين لتوزن بها الموزونات. وفي قول آخر هو الأرجح : المراد أنه تعالى يضع الموازين الحقيقة ، ويزن بها الأعمال. قال الحسن البصري : هو ميزان له كفتان ولسان. فمن رجحت حسناته على سيئاته ، كان من الناجين ، ومن غلبت سيئاته على حسناته ، كان من الهالكين. والقسط : العدل أي ليس في الموازين بخس ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا.

﴿**وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ**﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار

زنة حبة الخردل ، فنجازي عليه الجزاء الأوفى ، حسنا أو سيئا.

﴿وَكَفى بِنا حاسِبِينَ﴾ أي وكفى بنا محصين لأعمال العباد ، فلا أحد أعلم بأعمالهم منا ، ولا أحد أضبط ولا أعدل في تقويم الأعمال منا. وفي هذا تحذير شديد ، ووعيد أكيد للكفار والعصاة على تفريطهم أو تقصيرهم فيما يجب عليهم نحو الله تعالى ؛ لأن العالم الذي لا يشتبه عليه شيء ، القادر الذي لا يعجزه شيء ، جدير بأن يكون الناس في أشد الخوف منه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن من فضل الله ورحمته الكلاءة : الحراسة والحفظ للناس من عذاب الله تعالى بالليل حال النوم ، وفي النهار حال التصرف في الأمور ، ولكن الناس لاهون غافلون عن موعظة القرآن ومواعظ ربهم ومعرفته حق عليهم.

٢ ـ إن الآلهة الذين زعم الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، فكيف ينصرون عابديهم؟! وكيف يمنعون ويجأرون من عذاب الله تعالى؟!

٣ ـ إن تقلب أهل مكة وأمثالهم في نعيم الدنيا ، وظنهم أن النعمة لا تزول عنهم هو سبب اغترارهم وإعراضهم عن تدبر حجج الله عزّ وجلّ ، وكان عليهم التأمل في متابعة انتصارات النبي ﷺ وغلبته عليهم ، وتمكين الله له من فتح البلاد بلدا بعد بلد ، مما حول مكة.

٤ ـ إن مهمة النبي ﷺ إنذار الكفار وتحذير هم بالقرآن الموحى إليه من عند الله ، لا من قبله ، ولكنهم إذا لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار ، صاروا كالصم الذين لا يسمعون أصلا ، وسيتغير خالهم إذا مسّهم أدنى شيء من عذاب الله ،

فعندئذ يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون ، أي يعترفون بظلم أنفسهم وبكفرهم حين لا ينفعهم الاعتراف.

٥ ـ لا عدل أدق وأضبط وأحكم فوق عدل الله ، فموازينه لأهل يوم القيامة أو في يوم القيامة غاية العدل ، فلا ينقص من إحسان محسن ، ولا يزاد في إساءة مسيء ، وإن كان العمل أو الشيء الذي قدمه المحسن مثقال حبة الخردل ، ومثقال الشيء : ميزانه من مثله ، وكفى بالله مجازيا على ما قدم الناس من خير أو شر ، وكفى به محصيا عادا لأعمال عباده ، وألا أحد أسرع حسابا منه ، والحساب : العد ، والغرض من ذلك التحذير.

والغرض من قوله : ﴿حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ المبالغة في أن الشيء مهما صغر أو كبر غير ضائع عند الله تعالى.

٦ ـ الذي وردت به الأخبار وعليه أكثر العلماء هو أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات في كفة ، والسيئات في كفة. قال حذيفة رضي الله عنه : «صاحب الميزان يوم القيامة : جبريل عليه السلام».

وقيل عن مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مثل ، وليس ثمّ ميزان ، وإنما هو العدل.

القصة الأولى ـ قصة موسى عليه السلام

مقارنة بين خصائص التوراة وخصائص القرآن

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)﴾

الإعراب :

﴿وَضِياءً﴾ فيه محذوف تقديره : ذا ضياء ، فحذف المضاف ، وأدخل واو العطف على ﴿ضِياءً﴾ وإن كان في المعنى وصفا دون اللفظ ، كما يدخل على الوصف إذا كان لفظا ، كقوله تعالى : ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأنفال ٨ / ٤٩] وكقولهم : مررت بزيد وصاحبك أي مررت بزيد صاحبك ، فدل هذا وغيره على أن الواو تدخل على الوصف إذا كان لفظا أو كان وصفا في المعنى. وقرئ ضياء بغير واو على أنه حال من الفرقان.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ صفة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أو مدح لهم.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول.

المفردات اللغوية :

﴿الْفُرْقانَ﴾ التوراة الفارقة بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وهي أيضا ضياء تنير طرق الهدى ، والذكر ، أي الموعظة التي يوعظ بها ، لما فيها من عبرة. ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي يخافون عذابه. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ في حال الخفاء عن الناس. ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ﴾ أي من أهوالها. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

﴿وَهذا ذِكْرٌ﴾ أي وهذا القرآن أيضا ذكر أي تذكير وعظة. ﴿مُبارَكٌ﴾ أي كثير الخير غزير النفع. ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي أفتنكرونه ، وهو في غاية الجلاء والوضوح؟ والاستفهام فيه للتوبيخ.

المناسبة :

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لقومه : ﴿إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أتبعه ببيان أن هذه سنة الله تعالى في أنبيائه ، فقد أنزل الوحي عليهم ليكون ما تضمنه من الشريعة والأحكام سببا لهداية البشر.

وبعد أن أبان تعالى أدلة التوحيد والنبوة والمعاد شرع في التذكير بقصص الأنبياء عليهم السلام تسلية لرسوله ﷺ فيما يناله من قومه ، وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر عليها ، وهذه هي القصة الأولى ـ قصة موسى وهارون عليهما السلام .

التفسير والبيان :

كثيرا ما يقرن الله تعالى بين الحديث عن موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وبين كتابيهما ، ليبين امتداد صلة النبوة وصلة الوحي ، وليشير إلى وجود الشبه الكثير بين التوراة في أصلها الصحيح وبين القرآن الكريم في كمال الشريعة الشاملة للدين والدنيا ، والعقيدة والعبادة ، فقال تعالى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَهارُونَ الْفُرْقانَ وَضِياءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي وو الله لقد أعطينا موسى وهارون كتابا شاملا لأحكام الشريعة ، وهو التوراة الذي هو كتاب فرق الله فيه بين الحق والباطل ، وبين الحلال والحرام ، وهو أيضا منار يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة للتوصل إلى طريق الهداية والنجاة ، وهو كذلك عظة وتذكير يتعظ به المتقون ربهم وهم ذوو الأوصاف التالية :

١ ـ خشية الله في السر :

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ أي الذين يخافون عذاب ربهم ، فيأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه ، في حال الخفاء والسر والخلوات حيث لا يطلع عليهم أحد من الناس ، قال الرازي : وهذا هو أقرب المعاني.

وقد تكرر في القرآن الكريم التركيز على هذا المعنى ، كما في قوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ ، وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق ٥٠ / ٣٣] وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك ٦٧ / ١٢].

٢ ـ الخوف من يوم القيامة :

﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي وهم من القيامة وأهوالها وسائر ما يحدث فيها من الحساب والسؤال خائفون وجلون. وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض.

وكما أن هذه خصائص التوراة ، فكذلك خصائص القرآن مثلها فقال تعالى : ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ﴾ أي وهذا القرآن العظيم المنزل عليك تذكير وعظة ، ومبارك فيه بكثرة منافعه وغزارة خيره.

﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾؟ أي فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره؟ وكيف تنكرونه وهو في غاية الجلاء والوضوح؟ وهو أيضا معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البعيدة ، والأدلة العقلية ، وبيان الشرائع ، فكيف تنكرون إنزاله من عند الله ، وأنتم خير من يقدّر روعة الكلام وفصاحة اللسان وإحكام البيان؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

اقتصر البيان في قصة موسى وهارون عليهما السلام على كتاب التوراة ليقرن الكلام عنه مع الكلام عن القرآن الكريم.

وقد تبين من الآيات أن التوراة فرقان بين الحق والباطل والحلال والحرام والغي والرشاد ، وضياء يستضاء بها لسلوك طريق الهداية والنجاة ، مثل قوله عنها في آية أخرى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة ٥ / ٤٤] وعظة وتذكير للمتقين.

وهي أيضا أوصاف القرآن في آيات أخرى ، فقال تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ ، وَأَنْزَلَ الْفُرْقانَ﴾ [آل عمران ٣ / ٤]. ﴿تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ ، لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ١]. وقال سبحانه : ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة : ٥ / ١٥] ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف ٧ / ١٥٧]. وقال جل جلاله : ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل ١٦ / ٤٤] ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ

وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٤٤] وقال تعالى هنا : ﴿وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ ..﴾.

فإن رأى العرب تمسك اليهود بفرقان موسى ، فهم أجدر بالتمسك بكتابهم فرقان محمد ﷺ .

أما أوصاف المتقين فهي واحدة قديما وحديثا ، ذكر تعالى منها هنا وصفين : خشية الله تعالى في السر أي وفي العلن ، والخوف من يوم القيامة وأهوالها ، وما يجري فيها من الحساب والسؤال قبل التوبة.

وختمت الآيات ببيان الهدف الجوهري منها : وهو التعجب من إنكار العرب للقرآن ، وهو كلام الله تعالى ، بدليل أنه معجز لا يقدرون على الإتيان بمثله ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد.

القصة الثانية . قصة إبراهيم عليه السلام

. ١ .

إنكار عبادة الأصنام والدعوة إلى توحيد الله تعالى

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ (٥١) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (٥٢) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (٥٣) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٥٤) قالُوا أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)

وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾

الإعراب :

﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِذْ﴾ : ظرف في موضع نصب يتعلق بآتينا وتقديره : آتينا إبراهيم رشده في وقت قال لأبيه.

﴿عَلى ذلِكُمْ﴾ متعلق بمحذوف مقدر ، يدل عليه ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ويفسره. ولا يجوز تعلقه به ؛ لأنه لا يجوز تقديم الصلة ومعمولها على الموصول.

المفردات اللغوية :

﴿رُشْدَهُ﴾ الرشد : الاهتداء لوجوه الخير والصلاح في الدين والدنيا ، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ﴾ [النساء ٤ / ٦] وقرئ أيضا ﴿رُشْدَهُ﴾.

ومعنى إضافة الرشد لإبراهيم : أنه رشد مثله ، وأنه رشد له شأن. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى وهارون عليهما السلام . ﴿وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ﴾ أي علمنا منه أنه أهل لما آتيناه ، أو جامع لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فعله تعالى باختيار وحكمة ، وأنه عالم بالجزئيات.

﴿التَّماثِيلُ﴾ الأصنام ، جمع تمثال : وهو الصنم ، والتمثال : اسم للشيء المصنوع المضاهي خلق الله تعالى ، كإنسان أو حيوان أو شجر ، سمى الأصنام بالتماثيل تحقيرا لشأنها وتصغيرا لها ، مع علم إبراهيم بتعظيمهم وإجلالهم لها. وفرق بعضهم بين الصنم والوثن بأن الصنم : المصنوع من المعدن القابل للتمدد بالنار ، والوثن : المصنوع من الخشب أو غيره.

﴿عاكِفُونَ﴾ مقيمون على عبادتها. ﴿وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾ فاقتدينا بهم. ﴿كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ بعبادتها. ﴿فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ بيّن.

﴿أَجِئْتَنا بِالْحَقِ﴾ أي بالشيء الثابت في الواقع. ﴿اللَّاعِبِينَ﴾ الهازلين. ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ربكم المستحق للعبادة هو مالك السموات والأرض. ﴿فَطَرَهُنَ﴾ خلقهن

وأبدعهن على غير مثال سبق. ﴿وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ﴾ الذي قلته. ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ به المتحققين صحته ، والمبرهنين عليه ، فإن الشاهد : من تحقق الشيء وحققه.

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ﴾ لأجتهدن في كسرها. والكيد في الأصل : الاحتيال في الإضرار ، والمراد هنا : المبالغة في إلحاق الأذى بها. ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ بعد ذهابهم إلى مجتمعهم في يوم عيد لهم. ﴿جُذاذاً﴾ قطعا أو فتاتا ، من الجذ ، أي القطع. ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ للأصنام ، كسر غيره ، واستبقاه ، وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الكبير. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيروا ما فعل بغيره.

المناسبة :

هذه هي القصة الثانية من قصص الأنبياء في هذه السورة تسلية للرسول ﷺ ، ليتأسى بهم في الصبر والجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الدين الحق ومعاداة المشركين.

التفسير والبيان :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ ..﴾ أي والله لقد آتينا إبراهيم رشده ، أي هديناه إلى ما فيه الخير والصلاح ، من قبل موسى وهارون أو من قبل النبوة ، ووفقناه إلى توحيد الله ، ومعاداة عبادة الأصنام ؛ لأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تبصر ، وما هي إلا حجر أو معدن أو خشب صنعها أبوه أمامه بالقدوم ، وكنا عالمين بأنه أهل للنبوة ، وجامع لمحاسن الأخلاق. والرشد : إما النبوة وإما الأهلية للخير والصلاح في الدين والدنيا.

قال القرطبي : وعلى الأول أكثر أهل التفسير.

﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : ما هذِهِ التَّماثِيلُ ..؟ إِذْ﴾ : إما أن يتعلق بآياتنا أو برشده ، أو بمحذوف ، أي اذكر من أوقات رشده هذا الوقت. أي آتيناه الرشد حين أنكر على قومه عبادة الأصنام من دون الله عزوجل ، فقال : ما هذه التماثيل أي الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها وتعظيمها؟

وفي هذا القول تنبيه إلى ضرورة التأمل في شأنها ، وأنها لا تغني عنهم شيئا ، لكنهم لم يفعلوا ، وأصروا على تقليد الأسلاف دون برهان ، فقالوا :

﴿قالُوا : وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾ أي لا حجة لنا سوى تقليد الآباء واتباع الأسلاف ، وكفى بذلك ضعفا وسذاجة ، فوبخهم إبراهيم عليه السلام على ما يفعلون :

﴿قالَ : لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي قال إبراهيم لأبيه وقومه : لا فرق بينكم وبين آبائكم ، فأنتم وهم في ضلال بيّن واضح ، على غير منهج الحق والطريق المستقيم. وهذا تنبيه إلى أن سوء الرأي لا يغيره تقادم الزمن ، ومضي الأيام.

فتعجبوا من قوله وسألوه :

﴿قالُوا : أَجِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ أي ما هذا الكلام الصادر عنك ، أتقوله لاعبا هازلا مازحا أم محقا جادّا فيه ، فإنا لم نسمع به قبلك؟

فأجابهم إبراهيم بعد إنكاره عبادة الأصنام بما يبين الحق ، ويرشد إلى الإله المستحق للعبادة :

﴿قالَ : بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَ﴾ أي قال إبراهيم : إني أتكلم بالجد والحق ، لا بالهزل واللعب ، فإن الرب المستحق للعبادة هو مالك السموات والأرض الذي خلقها وكونها وأنشأها من العدم ، على غير مثال سابق ، وهو الخالق لجميع الأشياء ، وهو الرب الذي لا إله غيره.

﴿وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ، ولا رب سواه.

والخلاصة : أنه أظهر لهم أنه مجدّ في إظهار الحق الذي هو التوحيد بالقول أولا وهو ما قاله ، ثم بالفعل ثانيا. لذا أقسم إبراهيم الخليل قسما أسمعه بعض قومه :

﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي وو الله لأجتهدن في كسر أصنامكم ، وفي إلحاق الأذى بها ، بعد أن تذهبوا إلى عيدكم ، وكان لهم مجمع عيد يخرجون إليه كل سنة ، ثم يعودون ، فيسجدون للأصنام.

وقوله : ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي منطلقين ذاهبين. وسمع هذا القول رجل منهم ، فحفظه ، ثم أخبر عنه ، وشاع ذلك في جماعة ، وعليه قال تعالى :﴿قالُوا : سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٦٠].

ولم يخرج إبراهيم معهم معتذرا بأنه سقيم ، وصمم على تنفيذ خطته عمليا ، لعلهم يتركون عبادة الأصنام ، حينما يتأملون أنها لا تستطيع دفع الأذى عن نفسها ، والبرهان العملي أوقع في النفس ، وأدعى إلى التأمل ، وأشد صدمة للذهن.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي فلما ذهبوا دخل على الأصنام ، وأمامهم الأكل ، فجعلهم قطعا فتاتا وحطاما ، كسرها كلها إلا الصنم الكبير عندهم لم يكسره كما قال تعالى : ﴿فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات ٣٧ / ٩٣] لعل هؤلاء الوثنيين يرجعون إلى الكبير الذي يلجأ إليه عادة ، وقد علق إبراهيم الفأس على عنقه ، أو في يده ، فيتبين لهم أنه عاجز لا يستطيع فعل شيء ، وأنهم بعبادة الأصنام مغرورون جاهلون.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستفاد من الآيات ما يأتي :

١ ـ لا تأتي النبوة لأحد إلا بعد إعداد وصقل وتوافر مقومات ومؤهلات تؤهل لها ، فهذا إبراهيم الخليل عليه السلام وفّقه الله لهدايته وللنظر والاستدلال على توحيد الله بآيات الكون من قبل النبوة على الرأي الراجح ، أو من قبل

موسى وهارون كما قيل ، وكان الله عالما بأنه أهل لإيتاء الرشد وصالح للنبوة.

٢ ـ كان لإبراهيم موقف جريء رائع من الأصنام وعبدتها ، فقال لأبيه آزر وقومه أي النمروذ ومن اتبعه : ما هذه التماثيل التي أنتم مقيمون على عبادتها؟.

فأجابوه بأنهم يعبدونها تقليدا للأسلاف ، فيرد عليهم بأنهم وآباءهم في خسران مبين بعبادتها ؛ إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم.

وكأنهم لم يصدقوا قوله ، فسألوه : هل جئتنا بحق فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟

فكان إبراهيم صارما مجدا في إظهار الحق الذي هو التوحيد قولا وفعلا ، أما القول فقال : ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَ﴾ أي خلقهن وأبدعهن. ﴿وَأَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي إنني شاهد على أنه رب السموات والأرض ، والشاهد يبين الحكم ، وأنا أبين بالدليل ما أقول.

وأما الفعل : فإنه كسر الأصنام وكان عددها سبعين ، فعل واثق بالله تعالى ، موطّن نفسه على تحمل المكروه في سبيل رفع لواء الدين الحق ، وإعلاء راية التوحيد لله. وترك كبير الأصنام وعظيم الآلهة في الخلق ، فإنه لم يكسره. قال السدي ومجاهد : ترك الصنم الأكبر ، وعلّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ؛ ليحتج به عليهم.

وهذا هو معنى قوله : ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى الصنم الأكبر يرجعون في تكسيرها ، كما يرجع إلى العالم أو الزعيم في حل المشكلات ، فيقولون له : ما لهؤلاء مكسورة ، ومالك صحيحا ، والفأس على عاتقك؟. وحينئذ يتبين لهم أنه عاجز لا ينفع ولا يضر ، ويظهر لهم أنهم في عبادته على جهل عظيم.

وذكر القرطبي والرازي وجها آخر في تفسير ذلك : وهو لعلهم إلى إبراهيم

ودينه يرجعون إذا قامت الحجة عليهم ، أو يرجعون إلى توحيد الله عند تحققهم عجز آلهتهم.

. ٢ .

النقاش الحاد بين إبراهيم وقومه بعد كارثة تكسير الأصنام

﴿قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (٦٠) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (٦٢) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)﴾

الإعراب :

﴿مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ مَنْ﴾ : مبتدأ ، و ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ : خبره.

﴿يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ : إِبْراهِيمُ﴾ الفعلان هنا صفتان لفتى ، أو أن ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ : ثاني مفعولي سمع. و ﴿يُقالُ﴾ : فعل مبني للمجهول ، و ﴿إِبْراهِيمُ﴾ : قيل : هو خبر مبتدأ محذوف (أي هو إبراهيم) أو منادى مفرد (أي يا إبراهيم) قال الزمخشري : والصحيح أنه فاعل (أي نائب فاعل) يقال ؛ لأن المراد الاسم ، لا المسمى.

﴿عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ في محل الحال بمعنى معاينا مشاهدا ، أي بمرأى منهم ومنظر ، أو هو على حذف مضاف ، تقديره : على رؤية أعين الناس ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه. والاستعلاء في ﴿عَلى﴾ في الرأي الأول وارد على طريق المثل ، أي يثبت إتيانه في الأعين ، ويتمكن فيها ثبات الراكب على المركوب وتمكنه منه.

﴿كَبِيرُهُمْ هذا﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة :

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ﴾ استعارة ، شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة.

المفردات اللغوية :

﴿قالُوا﴾ أي بعد رجوعهم من مجتمعهم في يوم العيد ، ورؤيتهم ما فعل. ﴿قالُوا﴾ الثانية : أي بعضهم لبعض. ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يعيبهم ويسبهم. ﴿عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي معاينا ظاهرا بمرأى منهم ، بحيث تتمكن صورته في أعينهم تمكن الراكب على المركوب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بفعله أو قوله ، أو يحضرون عقوبتنا له.

﴿قالُوا﴾ بعد إتيانه ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا﴾ حين أحضروه. ﴿قالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ أسند الفعل إليه تجوّزا وتعريضا لهم بأن الصنم المعلوم عجزه عن الفعل لا يكون إلها ، وإنما هو متسبب لما حصل ، والقصد تبكيتهم وإلزامهم الحجة وحملهم على ترك الوثنية ، أو للاستهزاء بهم ، ولهذا قال : ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي اسألوا هذه الأصنام عن الفاعل الذي كسرها إن كانوا يقدرون على النطق. وما روي في الصحيحين وعند أحمد عن أبي هريرة أنه ﷺ قال : «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات» تسمية للمعاريض كذبا ، لما شابهت صورتها صورته. وجملة ﴿فَسْئَلُوهُمْ ...﴾ فيه تقديم جواب الشرط.

﴿فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي راجعوا عقولهم ، وفكروا وتدبروا ﴿فَقالُوا﴾ لأنفسهم ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بعبادتكم من لا ينطق. ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا ، وعادوا إلى جهلهم ، وردوا إلى كفرهم ، وقالوا لإبراهيم : والله ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي فكيف تأمرنا بسؤالهم. وقوله : ﴿ثُمَّ نُكِسُوا ..﴾ شبّه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعليا على أعلاه.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الثاني من قصة إبراهيم ، الذي يصور مرحلة الغليان والغيظ والحقد عند عبدة الأصنام بعد تكسيرها وتحطيمها ، وهي كارثة بالنسبة إليهم تتطلب معرفة الفاعل للثأر منه ، وحكاية ذلك :

﴿قالُوا : مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا﴾؟ أي قال عبدة الأوثان قوم إبراهيم ، النمروذ وأتباعه ، على سبيل الوعيد والتوبيخ ، حين رجعوا وشاهدوا تحطيم آلهتهم : من الذي كسر هذه الآلهة؟ وتعبيرهم بالآلهة تشنيع وتهويل ، ومبالغة في التعنيف.

﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن هذا الفاعل في صنيعه هذا لمن الذين ظلموا أنفسهم وعرّض نفسه للإهانة والعقاب ، إما لجرأته على الآلهة ، وإما لإفراطه في كسرها وتماديه في الاستهانة بها.

﴿قالُوا : سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ : إِبْراهِيمُ﴾ قال بعضهم الذي سمع قوله المتقدم: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ﴾ : سمعنا شابا يعيبهم ويتوعدهم يسمى إبراهيم ، فهو الذي فعل بهم هذا. قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا شابا ، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب ، وتلا هذه الآية : ﴿قالُوا : سَمِعْنا فَتًى ..﴾.

وظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد ، فقد كان يناقشهم ويقول : ﴿ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ﴾ فغلب على أذهانهم أنه الفاعل.

﴿قالُوا : فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي قال نمروذ وأشراف قومه : إذن فأتوا به على مرأى ومسمع من الناس في الملأ الأكبر ، بحضرة الناس كلهم ، حتى يروه ويشهدوا عليه ، فلا يأخذوه بغير بينة ، أو حتى يبصروا ما يصنع به فيكون عبرة. وكان هذا هو مقصود إبراهيم عليه السلام أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تمنع عن نفسها ضرا ولا تنصر أحدا.

﴿قالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ﴾؟ أي فلما أتوا به . وهذا كلام محذوف مفهوم . قالوا له : أأنت الذي كسرت هذه الأصنام؟ فأجابهم :

﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ أي بل الذي فعل هذا هو الصنم الأكبر ، الذي لم يكسره.

وقد نسب الفعل إلى هذا الصنم الأكبر ، لما رأى شدة تعظيمهم له ، باعتباره المتسبب أو الباعث على الفعل ، أي الاستهانة والتحطيم ، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى المتسبب فيه. أو أنه أقرّ بفعله بأسلوب تعريضي لإلزامهم الحجة وتبكيتهم ، كما يقول الصانع الحاذق الشهير أو الخطاط المشهور لمن يسأله عن هذه الصنعة الرائعة أو الخط الجميل : بل أنت صنعت ذلك أو بل أنت كتبت ذلك ، والقصد بهذا الجواب تقرير السائل على سؤاله مع الاستهزاء به ، لا نفيه عن صاحبه وإثباته للسائل.

﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أي فاسألوا هذه الأصنام عمن كسرها إن كانوا آلهة ينطقون.

وفي ذلك الجواب لفت أنظارهم وتنبيه أذهانهم إلى عقم عبادة الأصنام ، فيبادروا من تلقاء أنفسهم للاعتراف بعدم جدواها وأنها أحجار صماء لا تنطق ، وجمادات لا تتكلم ، فكيف تستحق العبادة؟! وقد أثر الجواب في أفكار هم بدليل قوله الآتي : ﴿فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي فرجع قوم إبراهيم حينئذ على أنفسهم بالملامة ، ونسبوا إلى أنفسهم التقصير في عدم الاحتراز وعدم حراسة آلهتهم ، ما داموا لا ينطقون ، وقالوا :

﴿فَقالُوا : إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي قال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون في تركك لها مهملة لا حافظ عندها. أو أنتم الظالمون أنفسكم بعبادة ما لا ينطق.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ ، لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض للتأمل والتفكير ، أو عادوا إلى المجادلة بالباطل لإبراهيم وانقلبوا عن حال الاستقامة ، واحتجوا على إبراهيم حينما أدركتهم الحيرة بقولهم : إنك تعلم ونحن

نعلم أن هؤلاء لا ينطقون ، فكيف تطلب منا سؤالهم إن كانوا ينطقون؟! أي أنهم احتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم بسبب الحيرة التي أدركتهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

لقد طاشت سهام قوم إبراهيم حينما رأوا أصنامهم مكسّرة ، بعد أن رجعوا من عيدهم ، فقالوا على جهة البحث والإنكار : ﴿مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وهذا أمر متوقع ، قدّره إبراهيم عليه السلام .

كما أنه قدر أنهم سيعرفون أنه هو المتهم بالتكسير ، لحملته السابقة بالقول والنكير ، وتسفيه الأحلام والعقول ، وانتقاده اللاذع لعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ودعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد الذي يمنح ويمنع ، ويضر وينفع.

ولما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه ، أرادوا إثبات التهمة عليه بالبينة ، فقالوا : ائتوا به على مرأى ومسمع من الناس ، ليشهدوا عليه بما يقول ، ليكون ذلك حجة عليه.

وفي هذا دليل على أنه ما كان يؤخذ أحد بدعوى أحد ، وهكذا الأمر في شرعنا ، وكل الشرائع.

ولكنهم ما أدركوا أن تلك المواجهة مع إبراهيم عليه السلام أمام الناس في غير صالحهم ، فقد كان إبراهيم قوي الحجة ، وأراد تنبيه الأفكار إلى عبث عبادتهم ، وقلة عقلهم ، وكثرة جهلهم ، فسألوه عمن فعل تلك الفعلة ، فأجابهم بأن الفاعل هو كبيرهم ، تعريضا بأن عبادتهم له وتعظيمهم إياه سبب للغيظ والغضب ، مما حمله على تكسيرها ، وتنبيها لهم بأن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد ، وكان قوله من المعاريض ، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب ، قال ﷺ فيما

رواه ابن عدي والبيهقي عن عمران بن حصين وهو ضعيف : «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله قوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ وقوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. وواحدة في شأن سارة إذ قال : لسارة أختي ، وذلك ليدفع بقوله مكروها».

ثم قال إبراهيم : سلوهم إن نطقوا ، فإنهم يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل. ويتضمن هذا الكلام اعترافا بأنه هو الفاعل.

فقد احتج عليهم بأمرين : الأول : قوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا﴾ وشأن الكبير حماية الأتباع والصغار ، أو لأنه غضب أن تعبد معه هذه الصغار ، فكسرها.

والثاني : ﴿فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ليقولوا : إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون ، فيقول لهم : فلم تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجة منهم.

ولما ألزمهم بحجته أقروا بأنهم هم الظالمون بعبادة من لا ينطق بكلمة ، ولا يملك لنفسه شيئا ، فكيف ينفع عابديه ، ويدفع عنهم البأس من لا يرد عن رأسه الفأس ، ثم عادوا لجهلهم وعنادهم ، فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

ـ ٣ ـ

الانتصار الساحق لإبراهيم ـ نجاته من النار

﴿قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٦٨) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (٦٩) وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾

البلاغة :

﴿يَنْفَعُكُمْ يَضُرُّكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿كُونِي بَرْداً﴾ مجاز مرسل ، من إطلاق المصدر ، وإرادة اسم الفاعل ، أي باردة أو ذات برد.

المفردات اللغوية :

﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي بدله. ﴿ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً﴾ من رزق وغيره. ولا يضركم شيئا إذا لم تعبدوه. ﴿أُفٍ﴾ هو صوت المتضجر ، ومعناه : نتنا وقبحا ، ويستعمل للدلالة على أن القائل متضجر ، والمراد هنا أن إبراهيم تضجر على إصرارهم على الباطل البيّن. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي غيره. ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنعكم ، وأن هذه الأصنام لا تستحق العبادة ، ولا تصلح لها ، وإنما يستحقها الله تعالى.

﴿قالُوا : حَرِّقُوهُ﴾ أخذوا في المضارّة لما عجزوا عن المحاجة ، أي حرقوا إبراهيم ، فإن النار أهول ما يعاقب به. ﴿وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بتحريقه والانتقام لها. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصريها نصرا مؤزرا. والقائل منهم : رجل من أكراد فارس ، اسمه (هينون) خسف به الأرض ، وقيل : نمروذ. فجمعوا له الحطب الكثير ، وأضرموا فيه النار ، وأوثقوا إبراهيم ، ورموه في منجنيق في النار.

﴿قُلْنا : يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾ أي كوني ذات برد وسلام ، أي ابردي بردا غير ضار ، فلم تحرق منه غير وثاقه ، وذهبت حرارتها ، وبقيت إضاءتها ، وسلم من الموت ببردها. ﴿كَيْداً﴾ أي تحريقا ومكرا في إضراره ، والكيد : المكر الخديعة. ﴿الْأَخْسَرِينَ﴾ في مرادهم ، أي أخسر من كل خاسر ، لما عاد سعيهم برهانا قاطعا على أنهم على الباطل ، وإبراهيم على الحق ، وموجبا لمزيد درجته ، واستحقاقهم أشد العذاب.

التفسير والبيان :

هذا هو الفصل الثالث والخاتمة المدهشة من قصة إبراهيم مع قومه عبدة الأصنام ، فإنه لما أقروا على أنفسهم بأن لا جدوى من عبادة آلهتهم ، وألزمهم إبراهيم الحجة ، اندفع كالسيل الهادر يعلن ضرورة إنها هذه العبادة الخرافية ، التي تقوم على الأوهام ، والتي يترفع عنها العقلاء ، فقال :

﴿قالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ﴾؟ أي قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بأن تلك الآلهة لا تنطق : أتعبدون بدلا عن الله أشياء لا تنفعكم شيئا إذا علّقتم الأمل بها ، ولا تضركم شيئا إذا عاديتموها أو خفتم منها.

﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي تبّا لكم وقبحا لآلهتكم ، وهذا التأفف والتضجر لكم ولها لعبادتكم إياها غير الله تعالى.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذي لا يدين به إلا كل جاهل ظالم فاجر.

ولما تفوق إبراهيم بحجته عليهم ، وظهر الحق واندحر الباطل ، لم يجدوا مناصا إلا اللجوء للأذى والمضارّة :

﴿قالُوا : حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ أي قال بعضهم لبعض ، والمشهور أن القائل : نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمرود بن كوش بن حام بن نوح ، وقيل : إنه رجل من الكرد من أعراب فارس : احرقوا إبراهيم بالنار ، وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها نصرا مؤزرا ، فجمعوا حطبا كثيرا جدا ، ورموا إبراهيم من كفة منجنيق.

﴿قُلْنا : يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾ أي قال الله تعالى المتكفل بحفظ أنبيائه وعصمتهم من أذى الناس : يا نار كوني بردا ، وسلاما على إبراهيم ، أي ابردي بردا غير ضار ، فكانت وسطا لا حامية ولا باردة. قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردها. وقال أبو العالية : ولو لم يقل ﴿بَرْداً وَسَلاماً﴾ لكان بردها أشد عليه من حرّها. وبرودتها حدثت بنزع الله عنها طبعها من الحر والإحراق ، مع بقائها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت ، والله على كل شيء قدير.

روى البخاري عن ابن عباس أن إبراهيم لما ألقوه في النار قال : «حسبي الله ونعم الوكيل ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزادَهُمْ إِيماناً ، وَقالُوا : حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» [آل عمران ٣ / ١٧٣].

وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك».

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ : «أن إبراهيم حين قيدوه وألقوه في النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين ، لك الحمد ، ولك الملك لا شريك لك» قال : ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع ، فاستقبله جبريل ، فقال : يا إبراهيم؟ ألك حاجة؟ قال : «أما إليك فلا» فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال : «حسبي من سؤالي علمه بحالي» فقال الله تعالى : ﴿يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ﴾(١).

﴿وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي وأراد قوم إبراهيم به مكرا وتدبيرا يؤذيه ويقتله ، فجعلناهم المغلوبين الأسفلين ، ونجاه الله من النار.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات عبرة لمن اعتبر ، إنها تمثل موقف المجاهد الصابر في سبيل دعوته إلى التوحيد والحق والفضيلة ، وموقف المعادي الجاهل المناصر للباطل والشرك والوثنية.

لقد دبّر قوم إبراهيم له طريقا للخلاص منه ، وأرادوا إحراقه وتعذيبه بأشد أهوال العذاب ، ومعاقبته بالنار ؛ لأنها أشد العقوبات ، وجمعوا الحطب وأوقدوا

---

(١) تفسير القرطبي : ١١ / ٣٠٣

النار ، واشتعلت واشتدت ، ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا. وهذا من أشد وأعتى ما يفعله البشر ، ولكن أين الله؟!

لقد كانت النتيجة مروعة مذهلة مدعاة للعجب والاستغراب ، وفوق حدود التصورات البشرية ، فسلخ الله تعالى من النار خاصية الإحراق ، ونجا إبراهيم وخرج من النار كأنه يخرج من حمام أمام الجموع الغفيرة المشاهدة ، ولم تحرق النار إلا وثاقه في أول ملامستها له ، وتلك معجزة تدعو إلى الإيمان بحق ، وتستدعي التأمل في تدبير البشر ومكرهم ، وفي تدبير الله الأعظم الذي يبدد كل تدبير ، ويحبط كل مسعى شرير ، فنجاه الله من النار ، وجعلهم الأخسرين المغلوبين الأسفلين ؛ لأنهم أرادوا به التحريق ، فخاب مرادهم.

روى ابن أبي حاتم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «إن إبراهيم حين ألقي في النار ، لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ [١] ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم».

وقال عطية العوفي : لما ألقي إبراهيم في النار ، جاء ملكهم لينظر إليه ، فطارت شرارة ، فوقعت على إبهامه ، فأحرقته مثل الصوفة.

آمنت بالله وحده لا شريك له ، فهو صاحب القدرة المطلقة ، إذا أراد شيئا قال له : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

---

(١) الوزغ : دويبة أمر رسول الله ﷺ بقتلها وسماها فويسقة.

. ٤ .

نعم أخرى على إبراهيم وإنجاؤه مع لوط إلى الأرض المباركة

﴿وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنا صالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ (٧٣)﴾

البلاغة :

﴿فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ﴾ عطف الصلاة والزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام للتفضيل ؛ فإنهما من فعل الخيرات ، وخصهما بالذكر لفضلهما ورفعة مرتبتهما.

العالمين الصالحين العابدين سجع لطيف.

المفردات اللغوية :

﴿وَلُوطاً﴾ ابن أخي إبراهيم ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ﴾ أي من العراق إلى أرض فلسطين في الشام ، التي بارك الله فيها بكثرة الأنهار والأشجار ، أو لأن أكثر الأنبياء بعثوا فيها ، فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادئ الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية. روي أن إبراهيم نزل بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة ، وبينهما مسافة يوم وليلة ﴿وَوَهَبْنا لَهُ﴾ أي لإبراهيم ، وكان قد سأل ولدا ، كما جاء في سورة الصافات ﴿نافِلَةً﴾ عطية ومنحة ، وهي حال من إسحاق ويعقوب ، أو المراد : زيادة على ما سأل وهو إسحاق ، فتختص كلمة ﴿نافِلَةً﴾ بيعقوب ، ولا بأس به للقرينة ، كما قال البيضاوي.

﴿وَكُلًّا﴾ أي الأربعة : هو وولداه ولوط ﴿جَعَلْنا صالِحِينَ﴾ أنبياء ، ووفقناهم للصلاح

،

فصاروا كاملين ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً﴾ رؤساء يقتدى بهم في الخير ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ديننا ﴿بِأَمْرِنا﴾ أي بأمرنا لهم بذلك ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ﴾ أي أن يحثوا الناس على فعل الخير ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم.

وأصل الكلام : أن تفعل الخيرات. وحذفت تاء ﴿إِقامَ﴾ تخفيفا ، وهي الإقامة ؛ لقيام المضاف إليه مقامها ﴿عابِدِينَ﴾ موحدين مخلصين في العبادة ، ولذلك قدم الصلة وهي لنا ليفيد الإخلاص في العبادة.

المناسبة :

بعد إنجاء إبراهيم من النار ، ذكر الله تعالى نعما أخرى عليه وعلى لوط ابن أخيه ، وقد قرن مع إبراهيم لما كان بينهما من القرابة والاشتراك في النبوة. ومن تلك النعم : إخراجهما من العراق إلى بلاد الشام الأرض المباركة ، ومنها : جعلهما أئمة يقتدى بهم ، وإنزال الوحي عليهما لفعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ومن النعم على إبراهيم هبته من الذرية إسحاق ويعقوب.

التفسير والبيان :

﴿وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ﴾ أي ومن نعم الله تعالى على إبراهيم : أنه ولوط عليهما السلام نجاهما إلى الأرض المباركة ، بالهجرة من العراق إلى بلاد الشام الأرض المقدسة ، والتي بارك الله فيها بكثرة ما بعث فيها من الأنبياء ، وانتشرت شرائعهم بين العالمين ، كما بارك فيها بخصوبة أراضيها وكثرة أشجارها وأنهارها ، فاجتمع فيها خير الدنيا والآخرة. ويقال : هي أرض المحشر والمنشر ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبها يهلك المسيح الدجال.

وكانت هجرة إبراهيم من كوثى من بلدة «فدان آرام» بالعراق ، ومعه لوط وسارّة ، فرارا من الشرك والوثنية ، والتماسا لمقر التوحيد وعبادة الله ، فنزل حرّان ، ثم رحل إلى مصر ، ثم رجع إلى الشام ، فنزل بفلسطين ، وأقام لوط في قرى المؤتفكة التي تبعد عن فلسطين مسيرة يوم وليلة.

ثم ذكر تعالى نعما أخرى على إبراهيم بعد نعمتي النجاة من النار والهجرة إلى الأرض المباركة فقال :

١ . ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً﴾ أي ومنحنا إبراهيم من الذرية المباركة إسحاق ويعقوب ، أو أعطيناه إسحاق إجابة لدعائه ، إذ قال : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٠٠] وزدناه يعقوب نافلة زائدة على ما سأل ، كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض. وعلى التفسير الأول : تكون النافلة (أي العطية والمنحة) إسحاق ويعقوب ، وعلى التفسير الثاني : النافلة يعقوب خاصة.

٢ . ﴿وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ﴾ أي وكلا من الأربعة : لوط وإبراهيم وولديه ، أو : وكلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، جعلنا الجميع أهل خير وصلاح ، يطيعون ربهم ، ويتجنبون محارمه ، أو جعلناهم أنبياء مرسلين ، والأول أقرب لشموله الكل.

ووصفهم بالصلاح يدل على أن الأنبياء معصومون.

٣ . ﴿وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا﴾ أي وصيرناهم قادة وأئمة يقتدى بهم ، يدعون إلى دين الله بإذنه ، وإلى الخيرات بأمره. وفيه دلالة على أن من صلح للقدوة في دين الله موفق مهدي للدين الحق وطريق الاستقامة ، وليس له أن يخل بمقتضى الهداية ويتثاقل عنها.

٤ . ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ﴾ أي وأنزلنا عليهم أن يفعلوا الخيرات وهي الأعمال الصالحات من فعل الطاعات وترك المحرّمات. وهذا يدل على أنه سبحانه خصهم بشرف النبوة ، وذلك من أعظم النعم على الأب إبراهيم عليه السلام .

٥ ، ٦ . ﴿وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ﴾ أي وأوحينا إليهم أن يقيموا الصلاة

ويؤتوا الزكاة المفروضتين ، وهذا من عطف الخاص على العام ؛ لأن الصلاة والزكاة من الخيرات ، وخصهما بالذكر من سائر العبادات لسمو مرتبتهما وخطورتهما ؛ لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية ، وشرعت لذكر الله تعالى ، والزكاة أشرف العبادات المالية ، وشرعت لدفع حاجة الفقراء ، وفي كلتا العبادتين تعظيم أمر الله تعالى.

وبعد تعداد هذه النعم ووصفهم بالصلاح أولا ، ثم بالإمامة ، ثم بالنبوة والوحي ، أبان اشتغالهم بالعبودية والعبادة لله تعالى ، فقال : ﴿وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ أي وكانوا لجناب الله خاشعين خاضعين ، طائعين فاعلين ما يأمرون به الناس. وفي هذا دلالة على أنهم كانوا أوفياء لإحسان الله ونعمه عليهم ، فلما أكرمهم الله بالإنعام وتفضل عليهم بالإحسان ، كانوا أوفياء له بالعبودية وهو الطاعة والعبادة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى بيان ما تفضل الله به من النعم الوفيرة على إبراهيم عليه السلام بعد نجاته من النار ، وهي ما يلي :

١ ـ النجاة من أرض الكفر والوثنية إلى أرض الإيمان والتوحيد ، وذلك بهجرة إبراهيم الخليل مع ابن أخيه لوط من بلاد العراق إلى أرض الشام المباركة ببعثة أكثر الأنبياء فيها ، وبكثرة الخيرات الزراعية ، فهي معادن الأنبياء ، وكثيرة الخصب والنمو ، ووافرة الثمار والأنهار العذبة.

٢ ـ هبة الذرية الطيبة له ، فقد وهبه الله إسحاق إجابة لدعائه ، وزاده يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة ، أي زيادة على ما سأل.

٣ ـ جعل الله كلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب صالحا عاملا بطاعة الله ،

ورأى البيضاوي إضافة رابع وهو لوط. قال القرطبي : وجعلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد ، فهو مخلوق لله تعالى.

٤ ـ جعلهم رؤساء يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات ، يعملون بأمر الله وبما أنزله عليهم من الوحي والأمر والنهي ، ويهدون الناس إلى دين الله الحق بأمر الله لهم ، ويدعونهم إلى التوحيد.

٥ ـ الإيحاء لهم بأن يفعلوا الطاعات.

٦ ـ أمرهم بإقامة الصلاة المفروضة التي هي أشرف العبادات البدنية.

٧ ـ الوحي لهم أيضا بإيتاء الزكاة الواجبة التي هي أشرف العبادات المالية. وكانوا مشتغلين بالعبودية ، مطيعين لأوامر الله تعالى ، كأنه سبحانه وتعالى لما وفي بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام ، فهم أيضا وفّوا بعهد العبودية ، وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة.

القصة الثالثة . قصة لوط عليه السلام

﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾

الإعراب :

﴿وَلُوطاً﴾ منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وآتينا لوطا آتيناه ، وقيل : تقديره : واذكر لوطا.

البلاغة :

﴿وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية ، أي أدخلناه في الجنة ؛ لأنها مكان تنزل الرحمات.

المفردات اللغوية :

﴿وَلُوطاً﴾ هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، كما عرفنا ﴿حُكْماً﴾ حكمة ، أو نبوة ، أو فصلا بين الخصوم ﴿وَعِلْماً﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء ﴿وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ هي قرية سدوم التي بعث إليها لوط عليه السلام ﴿الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ﴾ أي يعمل أهلها ، وصفها بصفة أهلها ﴿الْخَبائِثَ﴾ أي الأعمال الخبيثة من اللواط وغيره كالرمي بالبندق واللعب بالطيور ﴿قَوْمَ سَوْءٍ﴾ مصدر ساء نقيض سرّ ، وقوله : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ كالتعليل لما سبق ﴿وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا﴾ بأن أنجيناه من قومه ، وجعلناه في أهل رحمتنا أو في جنتنا ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى.

المناسبة :

بعد بيان ما أنعم الله تعالى به على إبراهيم عليه السلام ، ذكر نعمه على لوط عليه السلام ، لما بينهما من القرابة والاشتراك في النبوة. ولوط : هو لوط بن هاران بن آزر ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ، وَقالَ : إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٢٦].

التفسير والبيان :

﴿وَلُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ أي آتى الله لوطا النبوة والحكمة (وهي ما يجب فعله) والحكم : وهو حسن الفصل في الخصومات بين الناس ، وكذلك آتاه علما بما ينبغي للأنبياء وهو كل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة وطاعة الله تعالى ، وبعثه إلى «سدوم» وتوابعها وهي سبع قرى ، فخالفوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ، ودمر عليهم ، كما أخبر في مواضع من القرآن العزيز. وهاتان نعمتان على لوط ، والنعمة الثالثة هي :

﴿وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ﴾ أي ونجاه الله من عذابه الذي عذّب به أهل القرية «سدوم» الذين كانوا يرتكبون خبائث الأعمال ، وأخطرها اللواط. وسبب ذلك أنهم كما قال تعالى :

﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ﴾ أي إنهم كانوا جماعة سوء وقبح ، خارجين عن طاعة الله ، مرتكبين معاصيه ، والفسوق : الخروج.

والنعمة الرابعة هي : ﴿وَأَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا﴾ أي وجعلناه من أهل رحمتنا أو في جنتنا ، كما جاء في الحديث الصحيح : «قال الله عزّ وجلّ للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء من عبادي» وقيل : الرحمة : هي النبوة ، أو الثواب. والسبب هو كما قال :

﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من الذين يعملون الصالحات ، ويؤدون الطاعات ، بفعل الأوامر ، واجتناب النواهي.

فقه الحياة أو الأحكام :

أنعم الله تعالى على لوط عليه السلام بأربع نعم وهي :

١ ـ إيتاؤه الحكم : أي النبوة ، والحكمة : وهي ما يجب فعله.

٢ ـ تعليمه العلم النافع : وهو المعرفة بأمر الدين ، وما يقع به الحكم بين الخصوم.

٣ ـ إنجاؤه من العذاب الذي حل بالقرى التي أرسل إليها ، لارتكاب أهلها خبائث الأعمال ، وأهمها اللواط ، ولأنهم قوم سوء فاسقين ، أي خارجين عن طاعة الله تعالى.

٤ ـ إدخاله في جنان الخلد التي هي متنزل الرحمات الإلهية ؛ لأنه من القوم الصالحين الذين آمنوا بالله ، وأطاعوا ربهم ، وائتمروا بأمره ، وانتهوا عن نهيه.

القصة الرابعة ـ قصة نوح عليه‌السلام

﴿وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾

المفردات اللغوية :

﴿وَنُوحاً﴾ أي واذكر نوحا ﴿إِذْ نادى﴾ إذ دعا على قومه بالهلاك ، بقوله : ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح ٧١ / ٢٦] وهو بدل مما قبله. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل المذكورين : إبراهيم ولوط ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ دعاءه ﴿فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ﴾ في السفينة ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي من الطوفان والغرق ، وأذى قومه ، والكرب : الغم الشديد ﴿وَنَصَرْناهُ﴾ جعلناه منتصرا ﴿كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ الدالة على رسالته ﴿فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لاجتماع الأمرين : تكذيب الحق ، والانهماك في الشر ، ولم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله.

المناسبة :

بعد بيان قصة إبراهيم أبي الأنبياء ولوط قريبه ، ذكر الله تعالى قصة نوح أب البشر الثاني ؛ لأن جميع الباقين بعد الطوفان من ذريته عليه‌السلام . وكل من إبراهيم ونوح من الرسل أولي العزم.

التفسير والبيان :

﴿وَنُوحاً ..﴾ أي واذكر أيها النبي وقت أن نادى نوح ربه بأن دعا على قومه لما كذبوه : ﴿فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر ٥٤ / ١٠] ﴿وَقالَ نُوحٌ : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ [نوح ٧١ / ٢٦] وذلك من قبلك وقبل إبراهيم ولوط ، فاستجبنا له دعاءه ونجيناه والذين آمنوا به من أهله ، كما قال

تعالى : ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود ١١ / ٤٠] نجيناهم من الغرق والشدة والأذى. فقوله ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين. والكرب : الطوفان والغم الشديد والعذاب النازل بالكفار ، وتكذيب قومه إياه وما لقي منهم من الأذى.

وذلك بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، فلم يؤمن به منهم إلا القليل.

﴿وَنَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ أي وجعلناه منتصرا على القوم الذين كذبوا بأدلتنا الدالة على رسالته. وفي لغة هذيل : اللهم انصرهم منه ، أي اجعلهم منتصرين منه.

﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إن سبب إهلاكهم أنهم قوم سوء لأجل تكذيبهم لنبيهم ، فكان جزاؤهم أن أهلكهم الله جميعا صغارا وكبارا ، ولم يبق منهم أحد ، كما دعا عليهم نبيهم ، بعد أن أصروا على كفرهم ، وتصدوا لإيذائه ، وتواصوا قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل على مخالفته وعصيان أمره.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن في عذاب الاستئصال للأمة أو القوم جميعا عبرة وعظة بالغة ، فهؤلاء قوم نوح الذين عكفوا على عبادة الأوثان ، وأصروا على الكفر ، وتمردوا على دعوة نوح ورسالته ، قد أهلكهم الله عامة بالطوفان الذي عمّ السهول والجبال.

والسبب هو تكذيبهم لنبيهم وإيذاؤهم له ، بالرغم من الصبر عليهم قرابة عشرة قرون (٩٥٠) عاما ، وهي مدة طويلة جدا.

وكان النصر حليف نوح عليه السلام ، فنجاه الله والمؤمنين الذين آمنوا به ، وعددهم قليل.

فلله الأمر والحكمة ، وبيده مقاليد السموات والأرض ، ولا يصدر عنه إلا الخير والعدل ، ولا يظلم أحدا من عباده ، فلو علم الله فيهم خيرا لما عذبهم وأهلكهم ، وسيلقون أيضا في الآخرة عذاب النار.

وقد أجمع المحققون ـ كما ذكر الرازي ـ على أن دعاء نوح على قومه كان بأمر الله تعالى ، وإلا كان ذلك مبالغة في الإضرار ، وسببا لنقصان حال الأنبياء.

القصة الخامسة ـ قصة داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَكُلاًّ آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (٨٢)﴾

الإعراب :

﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ﴾ أي واذكر داود وسليمان.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ﴾ الضمير في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ راجع إلى داود وسليمان ، على طريقة إقامة الجمع مقام التثنية. أو أن المراد بالضمير الحاكمان والمتحاكمان وهم جماعة.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ الجملة حال ، أو استئناف لبيان وجه التسخير معه متعلق بيسبحن أو بسخرنا.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ منصوب معطوف على ﴿الْجِبالَ﴾ ، أو لأنه مفعول معه.

﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ أي الصنعة ، وقرئ بالياء أي ليحصنكم الله وقرئ بالنون ، أي : لنحصنكم نحن.

المفردات اللغوية :

﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ﴾ أي واذكر قصتهما ﴿إِذْ يَحْكُمانِ﴾ بدل مما قبله ﴿الْحَرْثِ﴾ الزرع ، وقيل : كرم تدلت عناقيده ﴿نَفَشَتْ﴾ رعت ليلا بلا راع ، بأن انفلتت من حظيرتها ، والنفش : الرعي ليلا. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ﴾ أي حاضرين ، وفيه استعمال ضمير الجمع لاثنين أو كنا شاهدين عالمين حكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما. وكان حكم داود : أن يتملك صاحب الزرع الأغنام ، وحكم سليمان : تبادل المتحاكمين الشيء المملوك لمدة سنة ، فينتفع صاحب الزرع بدرّ الغنم ونسلها وصوفها إلى أن يعود الحرث كما كان بإصلاح صاحب الغنم ، ثم يردها إلى صاحبها.

﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ الضمير يعود للفتوى الصادرة. وكان حكم داود وسليمان باجتهاد ، ثم رجع داود إلى حكم سليمان ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ أي آتينا كلا منهما حكما أي نبوة ، وعلما بأمور الدين.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يقدسن الله معه ، إما بلسان الحال ، أو بصوت يتمثل له ، أو بخلق الله فيها صوتا بلغة معينة. ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أي وكذلك سخرنا الطير له للتسبيح معه ، بأمره به في وقت الراحة ﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي تسخير التسبيح معه ، فكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ببدع منا ، وإن كان عجبا عندكم أي مجاوبة الجبال والطير لسيدها داود ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ المراد هنا الدروع ؛ لأنها تلبس ، وهو أول من صنعها ، وكان قبلها صفائح. واللبوس في الأصل : السلاح بأنواعه ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿وَعَلَّمْناهُ﴾ أو متعلق بصفة للبوس. ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ لتحميكم وتمنعكم وتصونكم الصنعة ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ بدل اشتمال بإعادة الجار ، وبأسكم : حربكم مع أعدائكم ، البأس : الحرب ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿شاكِرُونَ﴾ نعمتي ، بتصديق الرسول ، فإن شكركم لي يكون بذلك. وقوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾؟ أمر في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع.

﴿وَلِسُلَيْمانَ﴾ أي وسخرنا له ﴿الرِّيحَ عاصِفَةً﴾ الريح العاصف : هي الشديدة الهبوب. وكانت رخاء أي لينة خفيفة في نفسها طيبة ، كما جاء في آية أخرى ، فقد جمعت بين الوصفين ، فهي لينة طيبة ، وتسرع في جريها كالعاصف ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ هي الشام

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ﴾ أي نعلم بكل شيء ، فنجزيه على ما تقتضيه الحكمة ، وقد علم الله تعالى بأن ما يعطيه سليمان يدعوه للخضوع لربه.

﴿وَمِنَ الشَّياطِينِ﴾ أي وسخرنا له ﴿مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي يدخلون في البحر ، فيخرجون منه الجواهر لسليمان ، والغوص : النزول إلى أعماق البحار لاستخراج اللؤلؤ. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ﴾ أي سوى الغوص أو غيره ، كبناء المدن والقصور واختراع الصائع الغريبة ، كقوله تعالى : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٣]. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره ، أو يفسدوا ما عملوا ؛ لأنهم كانوا إذا فرغوا من عمل أفسدوه إن لم يشتغلوا بغيره.

المناسبة :

هذه القصة كسابقاتها أيضا فيها تعداد النعم العظمى على داود وسليمان عليهما السلام ، فذكر فيها أولا النعمة المشتركة بينهما وهي تزيينهما بالعلم والفهم كما قال تعالى : ﴿وَكُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَعِلْماً﴾ مما يدل على شرف العلم ، لتقديم ذكره على سائر النعم الأخرى. ثم ذكر ما اختص به كل منهما من النعم ، أما داود فخص بنعمة تسخير الجبال والطير للتسبيح معه ، وبصناعة الدروع. وأما سليمان فاختص بنعمة تسخير الريح ، وتسخير الشياطين للغوص في أعماق البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان ، ولأعمال أخرى كبناء المدن والقصور وصناعة الأشياء الغريبة من قدور ومحاريب وتماثيل.

التفسير والبيان :

ذكر الله تعالى قصة الحكم بين المزارع والراعي ، ثم ذكر النعم الجليلة المختصة بكل من داود وسليمان.

أما قصة الحكم كما قال أكثر المفسرين وكما ذكر الرازي : فهي أن راعي غنم رعت غنمه زرع فلاح ليلا ، فاحتكما إلى داود عليه السلام ، فحكم بالغنم لصاحب الحرث (الزرع) فقال سليمان ـ وهو ابن إحدى عشرة سنة ـ : غير هذا أرفق بهما ، وأمر بتسليم الغنم إلى أهل الحرث ، فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها ، وتسليم

الحرث إلى أرباب الغنم ، يتعهدونه بالمطلوب ، حتى يعود إلى ما كان ، ثم يترادّان. وكان حكمهما باجتهاد.

والحكم في شرعنا في رأي الإمام الشافعي : وجوب ضمان المتلف بالليل ، إذ المعتاد ضبط الدواب ليلا ، وكذلك قضى النبي ﷺ لما دخلت ناقة البراء حائطا (بستانا) وأفسدته ، فقال : «على أهل الأموال حفظها بالنهار ، وعلى أهل الماشية حفظها بالليل»(١).

وفي رأي الإمام أبي حنيفة : لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ حارس ؛ لقوله ﷺ : «جرح العجماء جبار» (٢) أي أن ما تتلفه البهيمة هدر لا ضمان فيه.

أما النص القرآني في هذا الحكم فهو :

﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ ..﴾ أي واذكر أيها الرسول قصة داود وسليمان حينما حكما في زرع رعته ليلا غنم لآخرين ، وكان الله عليما شاهدا بما حكم به داود وسليمان ، لا تخفى عليه خافية.

ولكنه تعالى أفهم سليمان القضية والحكومة والفتوى الصحيحة الراجحة فكان رأيه هو الأصوب ، مع أنه سبحانه آتى كلا من داود وسليمان النبوة وحسن الفصل في الخصومات والعلم والفهم والإدراك السليم للأمور ، مما يدل على إقرار الحكمين في الجملة ، وعلى أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه ، وإن كان الصواب واحدا ، وهو ما قضى به سليمان ، ودل قوله : ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ على إظهار ما تفضل الله عليه به في صغره.

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن حرام بن سعد بن محيّصة.

(٢) نص الحديث «العجماء جرحها جبار» رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قال ابن العربي : لم يرد إذ جمعها في القول اجتماعهما في الحكم ، فإن حاكمين على حكم واحد لا يجوز ، وإنما حكم كل واحد منهما على انفراد بحكم ، وكان سليمان هو الفاهم لها [١].

أما نعم الله على داود عليه السلام فهي :

١ . ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ، وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي وسخر أي ذلل الله الجبال والطيور مسبحات مقدّسات الله مع داود لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تسبيحا ، فيكون ذلك أكثر تأثيرا في مشاعره وعواطفه ، فيستديم في التسبيح ، وقد وصف النبي ﷺ صوت أبي موسى الأشعري حين استمع لقراءته القرآن فقال فيما رواه أحمد والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة ، والنسائي عن عائشة : «لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود».

وقدمت الجبال على الطير ؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة الإلهية ، وأروع في الإعجاز ؛ لأنها جماد ، والطير حيوان إلا أنه غير ناطق.

ونطق الجبال والطير بأن يخلق الله فيها الكلام ، كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى عليه السلام ، فإذا ذكر داود ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه ، لذا قال تعالى :

﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي قادرين على أن نفعل هذا ، وإن كان عجبا عندكم.

ونظير الآية : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ١٧ / ٤٤].

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١١٥٤

٢ . ﴿وَعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ، فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾ أي وعلمنا داود صناعة الدروع لباسا لكم ، وكانت الدروع قبله صفائح وهو أول من جعلها حلقا ، كما قال تعالى : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ ٣٤ / ١١] أي لا توسع الحلقة ولا تغلظ المسمار. وذلك لتحميكم وتمنعكم وتحرسكم من شدة الحرب في القتال من جرح وقتل وضرب ، فهل أنتم شاكرون نعم الله عليكم بتعليمه داود ذلك من أجلكم؟ وهذا استفهام معناه الأمر للمبالغة والتقريع ، أي اشكروا الله على هذه الصنعة. والبأس : الحرب.

وفيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود عليه السلام ، ثم تعلم الناس منه ، وتوارثوا الصنعة عنه ، فعمّت النعمة كل المحاربين إلى آخر الدهر.

وأما نعم الله على سليمان عليه السلام فهي كما قال قتادة : ورّث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته ، وزاده أمرين : سخر له الريح والشياطين ، فقال.

١ . ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً ..﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة الشديد السرعة والهبوب ، وجعلناها طائعة منقادة له ، مع كونها في نفسها رخاء أيضا أي لطيفة لينة ، فهي تجري بأمره ، وتخضع لحكمه ، وتنقله إلى أجزاء الأرض المقدسة المباركة ، وهي أرض الشام ، فيخرج مع صحبه في الغداة حيث شاؤوا ، ثم يرجعون في يومهم إلى منزله ، أي أن تلك الريح كانت جامعة بين الأمرين : رخاء في نفسها ، وعاصفة في عملها ، مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ﴾ أي وكان الله عالما بكل شيء وعالما بتدبيره ، فما آتاه الملك والنبوة ، وما سخر له الريح بأمره إلا لعلمه بما فيه الحكمة والمصلحة

والاستحقاق ، فيشكر هو وقومه المنعم عليهم ، ويعرفوا هذه المعجزات الظاهرة.

روي أنه كان له بساط من خشب ، يوضع عليه كل ما يحتاجه من أمور المملكة ، كالخيل والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله ، فتدخل تحته ، ثم تحمله وترفعه ، وتسير به وتظله الطير ، لتقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل ، وتوضع آلاته ، كما قال تعالى : ﴿فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ﴾ [ص ٣٨ / ٣٦] وقال : ﴿غُدُوُّها شَهْرٌ ، وَرَواحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٢] (١).

٢ . ﴿وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي وسخرنا له فئة من الشياطين تغوص في أعماق البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان والجواهر ونحوها ، والغوص : النزول تحت الماء.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلِكَ﴾ أي ويؤدون له عملا غير ذلك كبناء المدن والقصور والمحاريب والتماثيل والقدور الراسيات ونحوها ، كما قال تعالى : ﴿وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾ [ص ٣٨ / ٣٨] وقال : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٣] وأما الصناعات فهي مثل الطواحين والقوارير والصابون.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ﴾ أي حافظين لأعمالهم ، نحرسه من أن يناله أحدهم بسوء ، وقد جعلنا له سلطة مطلقة عليهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال في الآية السابقة : ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٧

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي من الأحكام :

١ . الحق والصواب واحد لا يتعدد ، فإن حكم سليمان كان هو الأصوب ، ولكن لا مانع من الخطأ في الاجتهاد ، فمن اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، ولكن لا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع ، وعلى المجتهد أن يجدد النظر عند وقوع الحادثة ، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدم ، لإمكان أن يظهر له ثانيا خلاف ما ظهر له أولا.

فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» وفي السنن الصحاح : «القضاة ثلاثة : قاض في الجنة ، وقاضيان في النار : رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه ، فهو في النار».

وقال الحسن البصري : لولا هذه الآية لرأيت القضاة قد هلكوا ، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده.

وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن : ما رواه الإمام أحمد في مسنده والشيخان والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «بينما امرأتان معهما ابنان لهما ، إذ جاء الذئب ، فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا ، فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقّه بينكما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله ، هو ابنها ، لا تشقه ، فقضى به للصغرى».

وأما حكم مسألة رعي الزرع ليلا في شرعنا ، فقال الجصاص : ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم داود وسليمان بما حكما به من ذلك منسوخ ؛ وذلك لأن داود

عليه السلام حكم بدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، وحكم سليمان له بأولادها وأصوافها ، ولا خلاف بين المسلمين أن من نفشت غنمه في حرث رجل أنه لا يجب عليه تسليم الغنم ، ولا تسليم أولادها وألبانها وأصوافها إليه ، فثبت أن الحكمين جميعا منسوخان بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم [١].

وأما آراء فقهائنا فهي كما يلي [٢] :

قال مالك وأبو حنيفة والشافعي : لا ضمان على أرباب المواشي فيما أصابت بالنهار. وقال الليث : يضمن أرباب المواشي بالليل والنهار.

وأما ما تتلفه المواشي بالليل فللعلماء فيه رأيان مشهوران :

رأي الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة) : وهو ضمان ما تتلفه البهائم ليلا ، عملا بما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم في ناقة البراء ، وهو أن حفظ البهائم بالليل على أرباب المواشي ، وهذا حديث خاص ، وأما حديث «العجماء جرحها جبار» أي أن فعل البهائم هدر ، فهو عام ، ولا خلاف أن العام يقضي عليه الخاص ، أي أنه يقدم الخاص على العام ، ولأنه لا إشكال في أن من أتلف شيئا فعليه الضمان ، ويكون الضمان بالقيمة ، وإن زادت على قيمة المواشي.

ورأي أبي حنيفة : ألا ضمان لما تتلفه المواشي ، ليلا أو نهارا ، للحديث المتقدم : «العجماء جرحها جبار».

٢ ـ قال ابن العربي : من أراد أن يتخذ ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مكّن منه ، مثل النحل والحمام والإوز والدجاج ، وذلك كالماشية. وأما انتفاعه بما

---

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٣ / ٢٢٣

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ٣ / ١٢٥٦ وما بعدها ، تفسير الرازي : ٢٢ / ١٩٩ ، تفسير القرطبي : ١١ / ٣١٥.

يتخذه بإضراره بأحد ، فلا سبيل إليه ، قال ﷺ فيما رواه أحمد وابن ماجة عن ابن عباس : «لا ضرر ولا ضرار» [١].

٣ ـ إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس ، وقضاء من مضى من السلف ؛ لأن اجتهاده عبادة ، ولا يؤجر على الخطأ ، بل يوضع عنه الإثم فقط. فأما من لم يكن محلا للاجتهاد ، فهو متكلف لا يعذر بالخطإ في الحكم ، بل يخاف عليه أعظم الوزر ، بدليل الحديث المتقدم : «القضاة ثلاثة» قال ابن المنذر : إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب ، لا على الخطأ ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾.

٤ ـ أكثر الفقهاء قالوا : إن الحق واحد من أقوال المجتهدين ، وليس الحق أو الصواب في جميع أقوالهم ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ﴾ فخص سليمان بالفهم ، ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة.

٥ ـ هل للأنبياء الاجتهاد؟ اختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء ، فمنعه قوم ، وجوزه المحققون الأكثرون ؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية ؛ لأنه دليل شرعي ، فلا مانع أن يستدل به الأنبياء ، والله تعالى قال : ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ [الحشر ٥٩ / ٢] وهو أمر للكل بالاعتبار ، وذلك يشمل الرسول ﷺ ، ولأنه إذا غلب على ظنه أن الحكم في الأصل المقيس عليه معلل بمعنى ، ثم وجد ذلك المعنى في صورة أخرى ، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن الفرع كالأصل في الحكم ، ثم إنه لو جاز الاجتهاد للعلماء وهو أرفع درجات العلم ، لثبت لأحد من أمة النبي ﷺ من الفضيلة ما لا يثبت له.

٦ ـ في هذه الآية دليل على جواز رجوع القاضي عما حكم به ، إذا تبين له أن

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٢٥٨ ، تفسير القرطبي : ١١ / ٣١٨

الحق في غيره ، فقد رجع داود إلى حكم سليمان عليهما السلام ، وهذا ثابت أيضا في رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما .

٧ ـ كان ترتيل داود عليه السلام لكتابه الزبور وتسبيحه تتردد أصداؤه في الجبال والطيور ، وكانت هذه تتجاوب معه بالتسبيح ، وتذكر الله معه بلغة خاصة بها ، قال مقاتل : إذا ذكر داود عليه السلام ربه ، ذكرت الجبال والطير ربها معه. وقيل : كان داود إذا وجد فترة أي راحة أمر الجبال ، فسبّحت حتى يشتاق ، ولهذا قال : ﴿وَسَخَّرْنا﴾ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. وقيل : إن سيرها معه تسبيحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٠]. قال الرازي : والقول الأول (أي قول مقاتل) أقرب ؛ لأنه لا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره. وتسبيح الجبال والطير فيه دلالة على قدرة الله تعالى ، وعلى تنزهه عما لا يجوز.

٨ ـ كان داود أول من اتخذ الدروع وصنعها ، وتعلمها الناس منه ، وإنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحلقها ، فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر ، لحماية الناس وحراستهم من السلاح في أثناء القتال ، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

وذلك يقتضي الشكر ، لذا قال تعالى : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾ أي على تيسير نعمة الدروع لكم ، وأن تطيعوا رسول الله فيما أمر به. والمراد : اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة.

٩ ـ هذه الآية دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب ، فالسبب سنة الله في خلقه ، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف ، واتخاذ الحرفة كرامة ، وقد أخبر الله تعالى عن داود أنه كان يصنع الدروع ، وكان أيضا

يصنع الخوص ، وأخبر نبينا ﷺ عن داود عليه السلام أنه كان يأكل من عمل يده ، وذلك أفضل الكسب. وكان آدم حراثا ، وكان نوح يصنع السفن وكان نجارا ، وكان إدريس ولقمان خياطين ، وطالوت دباغا ، أو سقّاء ، وكل ذلك يدل على أن العمل كان منهج الأنبياء والصالحين ، وطريق المؤمنين الأقوياء. والإسلام دين يحب العمل ويوجبه ، ويكره البطالة والكسل ، ويحارب العاطلين والخاملين إذا كانوا قادرين على العمل ، جاء في الحديث الصحيح الذي يرويه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «لأن يأخذ أحدكم حبلة ، ثم يغدو إلى الجبل ، فيحتطب ، فيبيع ، فيأكل ، ويتصدق ، خير له من أن يسأل الناس». وبالصنعة يكف الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها الضرر والبأس عن نفسه. جاء في حديث آخر رواه الحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي عن أبي هريرة ، وهو ضعيف : «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف الضعيف المتعفف ، ويبغض السائل الملحف».

١٠ ـ كان من إكرام الله تعالى لسليمان تسخير الريح التي تجري بأمره إلى حيث شاء ، ثم تردّه إلى بلاد الشام المباركة. يروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد ، ثم تردّه إلى الشام.

ومن إنعام الله عليه تسخير الشياطين له يعملون بصفة غواصين لاستخراج الجواهر من البحر ، كما يعملون له أعمالا أخرى غير الغوص ، من بناء المدن والقصور ، ونحت المحاريب والتماثيل ، وصناعة القدور الراسيات والجفان الواسعة والطواحين والقوارير والصابون ، وغير ذلك مما يسخّرهم فيه ، ويحفظ الله له أعمالهم من أن يفسدوها ، أو أن يهيجوا أحدا من بني آدم في زمان سليمان ، أو أن يهربوا أو يمتنعوا من أمره ، فقد كانوا رهن إشارته ، وطوع إرادته ، لا يجرأ أحد منهم على الاقتراب منه.

القصة السادسة . قصة أيوب عليه‌السلام

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ (٨٤)﴾

الإعراب :

﴿رَحْمَةً﴾ مفعول لأجله ﴿مِنْ عِنْدِنا﴾ صفة.

البلاغة :

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ألطف في السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب.

﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فيهما جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿وَأَيُّوبَ﴾ أي واذكر أيوب ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ﴾ لما ابتلي به من المرض ، وهو بدل مما قبله ﴿أَنِّي﴾ أي بأني ﴿الضُّرُّ﴾ بالضم : الضرر والشدة في النفس من مرض وهزال. وأما الضّرر بالفتح : فهو الأذى في كل شيء ، فالضّر خاص بما في النفس من مرض وهزال ، والضرر : شائع في كل ضرر. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وصف ربه بغاية الرحمة ، بعد ما ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب ، لطفا في السؤال.

﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ أجبنا له نداءه ﴿فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي أزلنا ورفعنا ضره بالشفاء من مرضه ﴿وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أي وأعطيناه مثل أهله عددا ، وزيادة مثل آخر ، بأن ولد له ضعف ما كان عنده من زوجته وزيد في شبابها ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ﴾ أي رحمة على أيوب ، وتذكرة لغيره من العابدين ، ليصبروا كما صبر ، فيثابوا كما أثيب.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصص خمسة من الأنبياء : إبراهيم ، ولوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وما تعرضوا له من الابتلاء في سبيل الدعوة إلى الله ، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاءه له بأنواع المحن في نفسه وأهله ، والكل قد صبروا على المحن والبلايا ، وشكروا الله على ما أنعم عليهم من رفع البلاء ، والنصر على أقوامهم.

أضواء على قصة أيوب عليه السلام :

ورد اسم أيوب عليه السلام في القرآن الكريم اربع مرات في سور النساء والأنعام والأنبياء وص. وهو أيوب بن أنوص ، وأمه من ولد لوط عليه السلام ، وكان عليه السلام روميا من ولد يعقوب بن إسحاق عليهما السلام . كان موطنه أرض عوص من جبل سعير أو بلاد أدوم ، قيل : إنه كان قبل موسى ، أو قبل إبراهيم بأكثر من مائة سنة ، قال ابن إسحاق : الصحيح أنه كان من بني إسرائيل ، ولم يصح في نسبه شيء ، إلا أن اسم أبيه : أموص.

آتاه الله النبوة ، وبسط عليه الدنيا ، وكثّر أهله وماله ، فكان له سبعة بنين ، وسبع بنات ، وذلك تعويضا عما ابتلاه الله من محنة في نفسه إذ مرض مدة طويلة هي ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبع سنوات ونيف ، على حسب الروايات ، ولكنه مرض غير منفر للناس ؛ لأن الأنبياء متصفون بالسلامة عن الأمراض المنفرة طبعا. وابتلاه الله أيضا في أهله بذهاب ولده ، انهدم عليهم البيت ، فهلكوا. وابتلاه كذلك في ماله بذهابه وفنائه ، وكان رحيما بالمساكين ، ويكفل اليتامى والأرامل ، ويكرم الضعيف.

وقد أكرمه الله تعالى بكفارة يمينه ، كما ذكر في سورة ص ، بأن يأخذ بيده ضغثا ، فيضرب به زوجته ، حتى لا يكون حانثا. وزوجته : هي رحمة بنت أفرايم بن يوسف ، أو ماخر بنت ميشا (منسا) بن يوسف ، أو ليا بنت يعقوب ، على اختلاف الروايات ، ذهبت لحاجة ، فأبطأت ، أو بلغت أيوب

عن الشيطان أن يقول كلمة محظورة فيبرأ ، وأشارت عليه بذلك ، فقالت له : إلى متى هذا البلاء؟ فحلف إن برئ ليضربنها مائة ضربة ، فحلل الله له يمينه وأمره بأن يأخذ ضغثا (وهو حزمة صغيرة من حشيش أو ريحان أو قضبان) ويضربها به ، وذلك رحمة به وبها ، لحسن خدمتها إياه ، ورضاه عنها.

وهي رخصة مقررة في عقوبات الحدود في شريعتنا وفي غيرها أيضا في حالات الضرورة كالمرض والحمل.

التفسير والبيان :

أيوب عليه السلام مثل أعلى ومشهور في الصبر على المحنة والبلاء ، حتى صار يضرب به المثل ، فيقال : كصبر أيوب ، وها هي قصته :

﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ ..**﴾ أي واذكر أيها الرسول للعبرة والعظة والتأسي خبر أيوب الذي أصابه البلاء في ماله وولده وجسده ، حين دعا ربه ، وقد مسّه الضر فقال : رب إني مسني الضر والعناء ، وأنت أرحم الرحماء. وصف نفسه بما يقتضي الرحمة ، ووصف ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بمطلوبه بطريق التلطف في السؤال ، وإيمانه بأن ربه عليم به. والنداء : الدعاء.

وكان مرضه طويل الأمد ، إلا أنه غير منفر للناس ولا مشوه للجسد ؛ لأن الأنبياء معصومون ، سالمون عن الأمراض المنفرة طبعا. وقد لازمته زوجته ، وظلت تحنو عليه وتقوم بأمره. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه عن سعد : «أشد الناس بلاء : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلبا ، اشتد بلاؤه».

قال الضحاك ومقاتل : بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر ، وسبعة أيام ، وسبع ساعات. قال ابن العربي : وهذا ممكن ، ولكنه لم يصح في مدة إقامته خبر ولا في هذه القصة.

﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ أي أجبنا دعاءه ، ورفعنا عنه ضره ، وعافيناه.

﴿وَآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ أي وعوضناه عما فقد في الدنيا ، فأعطيناه مثل أهله وزيادة مثل آخر ، فقد ولد له من زوجته من الأولاد ضعف ما كان عنده.

﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ، وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ﴾ أي أعطيناه التعويض عن المال والأهل والولد ، وعافينا جسده ، رحمة منا به ، وتذكيرا للعابدين بالاقتداء به ، والصبر كما صبر ، ليثابوا كما أثيب ، وحتى لا ييأس مؤمن من عفو الله ورحمته وفضله ، ولا يطمع مؤمن في أنه لا يصاب بسوء أو مكروه ، فالدنيا دار ابتلاء وامتحان.

وقال الزمخشري : أي لرحمتنا العابدين ، وأنا نذكرهم بالإحسان ، لا ننساهم ، أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر ، حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

ذكر القرطبي سبعة عشر قولا في بيان الضر الذي مس أيوب ، والحق الاقتصار على ظاهر النص القرآني ، وهو أنه أصيب بضرر في نفسه وبدنه وأهله وماله ، فصبر ، ثم عافاه الله تعالى ، وأعطاه خيرا مما فقد ، وأثنى عليه بالصبر : ﴿إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص ٣٨ / ٤٤]. والثابت المؤكد أن مرضه لم يكن منفرا. والهدف أن قصته عبرة ، وتعريف أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن الواجب على الإنسان أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ، وألا يضجر من شيء ، وألا يتسخط ولا يتبرم ، وإنما يصبر على حالتي الضراء والسراء. وقد أجمل الله تعالى هذه العبرة بقوله : ﴿رَحْمَةً

﴿مِنْ عِنْدِنا ، وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ﴾ أي فعلنا ذلك به رحمة من عندنا ، وتذكيرا للعبّاد ؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ، وصبره عليه ومحنته له ، وهو أفضل أهل زمانه ، صبروا صبر أيوب ، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة ، واحتمال الضرر. وأما مدة إقامته في البلاء ففيها روايات ، قال القرطبي : الأصح منها ـ والله أعلم ـ ثماني عشرة سنة ؛ رواه ابن شهاب الزهري عن النبي ﷺ ، كما ذكر ابن المبارك.

القصة السابعة ـ قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل

عليهم السلام

﴿وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾

البلاغة :

﴿الصَّابِرِينَ الصَّالِحِينَ﴾ بينهما جناس ناقص.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِسْماعِيلَ﴾ أي واذكر ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ يعني إلياس وقيل : يوشع بن نون ، وقيل: زكريا ، سمي بذلك ؛ لأنه كان ذا حظ من الله ، أو تكفل منه ، أو له ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم. والكفل في اللغة بمعنى النصيب ، والكفالة ، والضعف. قيل : لم يكن نبيا ، والأكثرون أنه نبي وهو ابن أيوب عليه السلام ، وهذا ما صرح به الرازي والزمخشري ، خلافا للقرطبي.

قيل : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين : إسرائيل ويعقوب ، إلياس وذو الكفل ، عيسى والمسيح ، يونس وذو النون ، محمد وأحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي كل هؤلاء من الصابرين على مشاق التكاليف وشدائد النوائب ، أو على طاعة الله وعن معاصيه ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ يعني في النبوة ، أو في نعمة الآخرة ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي الكاملين في الصلاح ، وهم الأنبياء ، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى صبر أيوب عليه السلام ودعاءه ربه ، أتبعه بذكر هؤلاء الأنبياء ، فإنهم كانوا أيضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة. أما إسماعيل عليه السلام : فلأنه صبر على الانقياد للذبح ، وصبر على الإقامة ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء ، وصبر في بناء البيت ، فأكرمه الله بجعل خاتم النبيين من صلبه.

وأما إدريس فكما قال ابن عمر رضي الله عنهما : «بعث إلى قومه داعيا لهم إلى الله تعالى ، فأبوا ، فأهلكهم الله تعالى ، ورفع إدريس إلى السماء الرابعة» وهو أول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح عدّة للحرب.

وأما ذو الكفل : فإنه صبر على صلاة الليل حتى يصبح ، وعلى صيام النهار فلا يفطر ، ويقضي بين الناس فلا يغضب ، ووفى بذلك وبما ضمن على نفسه.

قيل : إنه كان عبدا صالحا ، كان يصلي لله كل يوم مائة صلاة ، والأكثرون كما ذكرت أنه من الأنبياء عليهم السلام ، بدليل اقترانه مع الأنبياء.

التفسير والبيان :

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي واذكر أيها النبي نبأ إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وإدريس بعد شيث وآدم ، وذي الكفل أي الحظ الكثير ، الذي هو إلياس ومن بني إسرائيل ، وقد عاش في بلاد الشام ، كل

واحد من هؤلاء من الصابرين المحتسبين الذين صبروا على البلاء والمحن ، وعلى طاعة الله وعن معاصيه. وقد عرفنا أحوال صبر كل منهم.

﴿وَأَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وجعلناهم من أهل رحمتنا بالنبوة ، ودخول الجنة ، والظفر برضانا وثوابنا ؛ لأنهم من فئة الكاملي الصلاح ؛ لأنهم أنبياء معصومون ، وصلاحهم لا يعكره فساد.

فقه الحياة أو الأحكام :

هؤلاء الأنبياء الثلاثة : إسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل من الذين صبروا على أمر الله تعالى ، والقيام بطاعته ، واجتناب معاصيه ، فكافأهم الله تعالى بنيل رضاه ، ودخول جنته ؛ لأنهم قوم صالحون ، كاملوا الصلاح والتقوى ، بعيدون عن الفساد بمظاهره المختلفة.

والمراد هو التأسي والاقتداء بهم ، فإنه لم يقصّ الله في قرآنه على الناس نبأ أحد من الأنبياء إلا وكان في ذلك الخير والفائدة ، والعبرة والعظة ، وضرب الأمثال العملية الواقعية للالتزام بأمر الله ، والاستقامة في الدين والحياة.

القصة الثامنة ـ قصة يونس عليه‌السلام

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾

الإعراب :

﴿وَذَا النُّونِ﴾ منصوب بفعل مقدر ، تقديره : واذكر ذا النون ﴿مُغاضِباً﴾ منصوب على الحال من ضمير ﴿ذَهَبَ﴾ وهو العامل في الحال. ﴿وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقرئ : نجي المؤمنين قال أكثر النحويين : إن هذه القراءة محمولة على إخفاء النون من ﴿نُنْجِي﴾ فتوهمه الراوي إدغاما. وأجازه آخرون على أنه فعل مبني للمجهول ، على تقدير المصدر ، لدلالة الفعل عليه ، وإقامته مقام الفاعل ، أي : نجّي النجاء المؤمنين ، كقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني : ليجزي قوما أي ليجزي الجزاء قوما.

المفردات اللغوية :

﴿وَذَا النُّونِ﴾ أي واذكر صاحب الحوت وهو يونس بن متى ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً﴾ لقومه ، و ﴿إِذْ﴾ : بدل مما قبله ، أي ذهب غضبان من قومه ، مما قاسى منهم ، لطول دعوتهم ، وإصرارهم على الكفر ، ذهب قبل أن يؤمر أو يؤذن له في الذهاب. ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي فظن أن لن نضيق عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد ١٣ / ٢٦ وغيرها] أي ويضيق ، وقوله : ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٧] أي ضيق أو ظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة ، من التقدير أي القضاء والحكم. أو أن يكون ذلك من باب التمثيل بمعنى : فكانت حاله ممثلة بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه ، من غير انتظار لأمر الله. هذه تأويلات. ويجوز أن يكون ذلك مجرد وسوسة الشيطان ، ثم يردعه ويرده بالبرهان ، فسمي ظنا للمبالغة ، كما قال تعالى مخاطبا المؤمنين : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب ٣٣ / ١٠]. والخلاصة : أن الظن هنا ليس حاصلا من يونس عليه السلام ؛ لأن من ظن عجز الله تعالى فهو كافر.

﴿فَنادى فِي الظُّلُماتِ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة ، أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل ﴿أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أي بأنه لا إله إلا أنت ﴿سُبْحانَكَ﴾ تنزيها لك من أن يعجزك شيء ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسي بالمبادرة إلى المهاجرة من غير إذن. جاء في الحديث الذي أخرجه البيهقي عن سعد عن النبي ﷺ : «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له».

﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِ﴾ أي أجبنا له دعاءه بتلك الكلمات ، بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات مكث فيها في بطنه ، وقيل : ثلاثة أيام. ﴿مِنَ الْغَمِ﴾: أي من غمه بسبب كونه في بطن الحوت ، وبسبب خطيئته ﴿وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس إذا دعانا ، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا.

المناسبة :

هذه قصة يونس عليه‌السلام ، تبين مدى فضل الله وإنعامه عليه ، كما أنعم على الأنبياء المتقدمين الذين ذكر قصصهم ، وأجاب دعاءهم بعد الكرب والشدة ، ومقاساة الأهوال ، والصبر على العناء.

التفسير والبيان :

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً﴾ أي واذكر أيها الرسول قصة يونس بن متى عليه‌السلام حين بعثه الله إلى أهل قرية نينوى (من أرض الموصل) وكان اسم ملكها «حزقيا» فدعاهم إلى الله تعالى وإلى توحيده وطاعته ، فأبوا عليه ، وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بينهم مغاضبا لهم ، وأوعدهم بالعذاب بعد ثلاث.

فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عزّ وجلّ ، ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب ، كما قال تعالى : ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ، فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ، لَمَّا آمَنُوا ، كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ﴾ [يونس ١٠ / ٩٨].

وأما يونس عليه‌السلام : فإنه ذهب ، فركب مع قوم في سفينة ، فاضطربت بهم وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم في البحر ، للتخفيف ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم أعادوها ، فوقعت القرعة عليه أيضا فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضا ، كما قال تعالى : ﴿فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٤١] أي وقعت عليه القرعة.

فقام يونس عليه‌السلام ، وتجرد من ثيابه ، ثم ألقى نفسه في البحر ،

فأرسل الله سبحانه إليه من البحر حوتا يشق البحار ، فالتقمه [١].

وقوله : ﴿ذَا النُّونِ﴾ أي الحوت ، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة. وقوله : ﴿مُغاضِباً﴾ أي غضبان من قومه ، لتكذيبهم إياه ، وكراهيته خلف ما أوعدهم به من العذاب بعد ثلاث ، لكنه لم يأتهم ، لتوبتهم التي لم يعلم بها ، لا كراهية لحكم الله ، أو مغاضبا ربه ، وإلا كان مرتكبا كبيرة لا تليق بالشخص العادي فضلا عن النبي ، فهو مغاضب من أجل ربه ، بدليل وصف نفسه أنه من الظالمين ، وهذا رأي أكثر المفسرين.

﴿أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت ، ونقضي عليه بالعقوبة ، من القدر والتقدير أي القضاء والحكم ، كما في قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر ٥٤ / ١٢] أي قدّر ، وكان خروجه يشبه حالة الآبق.

﴿فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ﴾ أي فدعا ربه في أعماق الظلمات المتكاثفة أو من تحت الظلمات الثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل : تنزيها لك يا رب ، أنت الإله وحدك لا شريك لك ، تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد ، لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نفسي بالخروج دون أمر أو إذن منك ، وهذا خلاف الأولى للأنبياء ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ، وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم ٦٨ / ٤٨].

﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ أي فأجبنا له دعاءه الذي أظهر به الندم والتوبة.

﴿وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وأخرجناه من بطن

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ١٩١

الحوت وتلك الظلمات ، وكما أنجيناه من الكرب والشدة ، ننجي أيضا المؤمنين الصادقين إذا استغاثوا بنا ، وطلبوا رحمتنا.

روى البيهقي وغيره عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال : «دعوة ذي النون في بطن الحوت : ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط ، إلا استجاب له» فهو قد بدأ بالتوحيد ، ثم بالتنزيه والتسبيح والثناء ، ثم بالاستغفار والإقرار على نفسه بالظلم أي الذنب.

وروى ابن أبي حاتم عن أنس يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ : أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات ، وهو في بطن الحوت قال : اللهم ، لا إله إلا أنت ، سبحانك ، إني كنت من الظالمين فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب ، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة ، فقال : أما تعرفون ذاك؟ قالوا : لا ، يا رب ، ومن هو؟ قال : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبّل ، ودعوة مجابة ، قالوا : يا رب ، أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء ، فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى ، فأمر الحوت ، فطرحه في العراء.

فقه الحياة أو الأحكام :

أحوال الأنبياء عجائب وغرائب ومعجزات خاصة يظهرها الله على أيديهم ، لا تقاس عليها إطلاقا أحوال البشر العاديين. وقصة يونس من هذه العجائب الفريدة.

فقد ذهب يونس عليه السلام مغاضبا من أجل الله ، والمؤمن يغضب لله عزّ وجلّ إذا عصي ، وكانت هذه المغاضبة صغيرة في رأي القرطبي ، ولم يغضب على الله ، ولكن غضب لله ، إذ رفع العذاب عنهم.

فلا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه ؛ لأن ذلك صفة الجاهل كون الله مالكا للأمر والنهي ، والجاهل بالله لا يكون مؤمنا ، فضلا على أن يكون نبيا ، وإنما خرج مغاضبا من أجل ربه ، أي غضب على قومه من أجل كفرهم بربه.

لكن كان الأولى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في الهجرة عن قومه ، لهذا قال تعالى : ﴿وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم ٦٨ / ٤٨] كأن الله تعالى أراد لمحمد ﷺ أفضل المنازل وأعلاها.

وقال القشيري : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه (أي يونس) وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم ؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم.

وظن يونس عليه السلام عند ذهابه أن لا يضيق الله عليه بالحبس ، أو ألا يقضي عليه بالعقوبة ، من القدر الذي هو القضاء والحكم ، وورد القدر بمعنى التضييق كما في الآيتين المتقدمتين : ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد ١٣ / ٢٦] أي يضيق ، وقوله : ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٧]. وورد بمعنى التقدير وهو الحكم ، وليس القدرة والاستطاعة ، كما في قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر ٥٤ / ١٢].

ثم أدرك يونس وهو في ظلمات الليل والبحر وبطن الحوت أنه ظلم نفسه في الخروج من غير أن يؤذن له ، أو في ترك الصبر على قومه ، وليس في ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، وإنما كان ذلك تمحيصا وتعليما ، وقد يؤدب من لا يستحق العقاب كالصبيان ، فتضرع إلى الله وجأر إليه بالدعاء المتقدم : ﴿لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ ..﴾ فأكرمه الله تعالى ، وحماه من أن يهضم الحوت جسده ، وإنما جعله له سجنا فقط ، ثم أمر الحوت بإلقائه ، فطرحه على ساحل البحر.

جاء في الخبر : في هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه ، كما أجابه ، وينجّيه كما أنجاه.

ومن فضل الله ورحمته أن هذا الإنجاء لمن استغاث بالله واستعان به ليس خاصا بيونس عليه السلام ، وإنما هو شامل لكل المؤمنين إذا استغاثوا بالله ، وطلبوا رحمته ، فإن الله تعالى يخلصهم من همهم بما سبق من عملهم. وذلك قوله تعالى : ﴿فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٤٤].

وهذا من حفظ الله لعبده يونس رعى له حق تعبده ، وحفظ له ما أسلف من الطاعة.

والله يجيب دعاء الداعين في أي مكان ، لذا قال ﷺ : «لا تفضلوني على يونس بن متى فإني لم أكن ، وأنا في سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو في قعر البحر في بطن الحوت» [١]. وهذا دليل على أن الباري سبحانه وتعالى ليس في جهة معينة.

القصة التاسعة والعاشرة ـ قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

مع قصة مريم

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها

---

(١) روى البخارى ومسلم وابو داود عن ابن عباس الحديث بلفظ آخر.

﴿مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (٩١)﴾

الإعراب :

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها وَالَّتِي﴾ : منصوب بفعل مقدر ، أي : واذكر التي أحصنت. ﴿آيَةً﴾ منصوب مفعول ثان بجعل. وقال : ﴿آيَةً﴾ ، ولم يقل : آيتين لوجهين: أحدهما . لأن التقدير : وجعلناها آية ، وجعلنا ابنها آية ، إلا أنه اكتفى بذكر الثاني عن ذكر الأول. والثاني . أن يكون ﴿آيَةً﴾ في تقدير التقديم ، أي وجعلناها آية للعالمين وابنها ، والوجه الأول أوجه.

البلاغة :

﴿رَغَباً وَرَهَباً﴾ بينهما طباق.

﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾ نسب الروح إليه تعالى تشريفا وتكريما ، مثل ﴿ناقَةُ اللهِ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٣ ومواضع أخرى].

المفردات اللغوية :

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ أي واذكر زكريا. ﴿إِذْ نادى﴾ بدل منه ، أي دعا ربه بقوله : ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً﴾ أي لا تتركني وحيدا بلا ولد يرثني. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ الباقي بعد فناء خلقك ، فإن لم ترزقني من يرثني ، فلا أبالي. ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ﴾ أي نداءه. ﴿وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للولادة ، فأتت بالولد بعد عقمها. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي المذكورين من الأنبياء عليهم السلام . ﴿يُسارِعُونَ﴾ يبادرون. ﴿فِي الْخَيْراتِ﴾ أي الطاعات. ﴿رَغَباً﴾ في رحمتنا. ﴿وَرَهَباً﴾ من عذابنا. ﴿خاشِعِينَ﴾ متواضعين في عبادتهم.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ﴾ أي واذكر مريم التي حفظت فرجها من أن ينال بالحلال أو الحرام. ﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾ أي أحيينا عيسى وأوجدناه في جوفها ، ويجوز أن يراد : وفعلنا النفخ في مريم من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام ، حيث نفخ في جيب درعها (قميصها) فوصل النفخ إلى جوفها. ﴿وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ هم الإنس والجن والملائكة حيث ولدته من غير رجل. ولم يقل : آيتين ، كما في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء ١٧ / ١٢] لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها إياه من غير فحل.

المناسبة :

بعد بيان النعم الخاصة بكل نبي ، أبان الله تعالى ما أنعم به على زكريا عليه السلام بمنحه الولد ، في حال الكبر هو وزوجته ، وبعد أن مسّه الضر بتفرده ، فدعا ربه أن يرزقه الولد ، وأحب أن يكون معه من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ، ويقوم مقامه بعد موته.

وكان دعاؤه دعاء مخلص عارف بأن الله تعالى قادر على ذلك ، وإن بلغ هو وزوجته سن اليأس من الولد ، بحسب العادة. قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان سنّه مائة ، وسن زوجته تسعا وتسعين.

ثم ذكر تعالى قصة مريم وولادتها عيسى ، لما بين ولادته وولادة يحيى من الغرابة وتشابه المعجزة. وتقدمت القصتان في سورتي آل عمران ومريم.

التفسير والبيان :

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ ...﴾ أي واذكر أيها الرسول خبر زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا ، يكون من بعده نبيا ، فدعا ربه خفية عن قومه قائلا : ربّ لا تتركني وحيدا ، لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في دعوة الناس إليك ، وأنت الباقي بعد فناء خلقك ، فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي ، فإنك خير وارث. وقوله : ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ دعاء وثناء.

﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى ، وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي فأجبنا نداءه ومطلبه ، ووهبناه ولدا اسمه يحيى ، وأصلحنا له امرأته بإزالة موانع الولادة ، فولدت بعد العقم وفي حال الكبر.

﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ﴾ أي إن المذكورين من الأنبياء عليهم السلام ، ومنهم زكريا وزوجه كانوا يبادرون إلى طاعتنا والتقرب إلينا ، أو إلى

فعل الطاعات ، وعمل القربات ، والمراد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ، ومسارعتهم في تحصيلها ، كما يفعل الراغبون في الأمور الجادة.

﴿وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾ أي ويدعوننا رغبة في رحمتنا وفضلنا ، وخوفا من عذابنا وعقابنا ، وكانوا لنا متواضعين متذللين. والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين :

أحدهما . الفزع إلى الله تعالى ، رغبة في ثوابه ، ورهبة من عقابه.

والثاني . الخشوع : وهو المخافة الثابتة في القلب ، أو الخوف اللازم للقلب ، لا يفارقه أبدا.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ، ثم قال : «أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال : ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ، وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً ، وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾».

ثم يذكر الله تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، كما هو المعتاد في كلامه تعالى ، فيذكر أولا قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ؛ لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير طاعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر ، لم تكن تلد في حال شبابها. أما قصة مريم فهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر.

حدث هذا الاقتران بين القصتين في سورتي آل عمران ومريم ، وهاهنا في سورة الأنبياء.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها﴾ أي واذكر نبأ مريم التي منعت نفسها من الرجال ، سواء في الحلال أو الحرام ، كما حكى تعالى عنها : ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم ١٩ / ٢٠] وكما قال في سورة التحريم : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها ، فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا﴾ [١٢].

﴿فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾ أي نفخنا الروح في عيسى في بطنها ، أي أحييناه في جوفها. ويلاحظ أن الضمير هنا عائد إلى مريم ، وليس المقصود كما هو الظاهر إحياء مريم ، وإنما إحياء عيسى في جوفها. وأما في سورة التحريم فالضمير عائد إلى فرجها ، أي فنفخنا في فرجها ، وقرئ : فيها أي في مريم أو الحمل. وقوله : ﴿مِنْ رُوحِنا﴾ في السورتين أي من روح خلقناه بلا توسط أصل. وأضيف إلى الله تعالى تشريفا.

﴿وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ أي وجعلنا أمر مريم وعيسى وهو الحمل من غير أب آية ومعجزة خارجة عن العادة ، دالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. ونظير الآية قوله سبحانه : ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم ١٩ / ٢١] ولم يقل : آيتين ؛ لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين ، أو أن الآية واحدة وهي الولادة من غير رجل ، وقوله: ﴿لِلْعالَمِينَ﴾ أي الجن والإنس والملائكة.

وهناك آيات أخرى لكل من مريم وعيسى ، مثل إتيان الملائكة لها برزقها : ﴿يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا؟ قالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران ٣ / ٣٧]. وأما آيات عيسى فمثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله كما جاء في [آل عمران : الآية ٤٩].

فقه الحياة أو الأحكام :

إن في كلّ من قصتي زكريا وابنه يحيى ومريم وابنها عيسى آية خارقة للعادة ، ومعجزة غير معتادة دالة على قدرة الله تعالى الفائقة ، والشاملة لكل شيء.

أما قصة زكريا فقد أكرمه الله تعالى بولادة يحيى بعد دعاء ومناجاة ، وتضرع وإخلاص ، وأدب وتفويض لله تعالى ، وذلك في سن الكبر هو وامرأته ، التي كانت عاقرا لا تلد في وقت الشباب. ووجه الآية الفريدة أن الكبير عادة لا ينجب ، وأن العاقر العقيم لا يلد ، فأزال الله موانع الولادة ، وهيأ القدرة على الإنجاب والإخصاب عند الأب زكريا عليه السلام .

وسبب هذه الإجابة لدعاء زكريا أنه كان كغيره من الأنبياء يبادر إلى فعل الطاعات ، وعمل القربات ، وأنه كان يدعو في حال الرخاء وحال الشدة ، وحال الرجاء والرهبة ، وأملا في رحمة الله وفضله ، وخوفا من عذابه وعقابه ؛ لأن الرغبة والرهبة متلازمتان.

وأما قصة مريم الطاهرة البتول فقد أحصنت فرجها إحصانا كليا من الحلال والحرام جميعا ، ولم يقربها رجل ، وتمّ نفخ الروح في جوفها ، وإيجاد عيسى بواسطة جبريل الروح القدس من غير أصل ذكر.

فقوله : ﴿**فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا**﴾ معناه أمرنا جبريل حتى نفخ في درعها أي قميصها ، فأحدثنا بذلك النفخ (المسيح) في بطنها ، ووصل النفخ إلى جوفها ، وسرت الروح إلى فرجها ، وكان ذلك آية أي علامة وأعجوبة للخلق ، وعلما لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء.

وآيات مريم كثيرة كما تقدم :

أحدها ـ ظهور الحمل فيها من غير ذكر.

وثانيها ـ أن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة.

وثالثها ورابعها ـ قال الحسن البصري : إنها لم تلتقم ثديا يوما قط ، وتكلمت هي أيضا في صباها ، كما تكلم عيسى عليه السلام [١].

وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها في سورة آل عمران.

وكل تلك الآيات بإذن الله وأمره ، وليس للبشر فيها قدرة مع قدرة الله تعالى وتدبيره وحكمته.

وحدة الرسالات السماوية والسنّة الإلهية

﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (٩٤) وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (٩٧)﴾

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢ / ٢١٨

الإعراب :

﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ حال لازمة.

﴿لا يَرْجِعُونَ﴾ : إما زائدة ، أي وحرام أنهم يرجعون ، أي إلى الدنيا ، وأن واسمها وخبرها خبر المبتدأ : ﴿حَرامٌ﴾. وإما غير زائدة ، ويكون ﴿حَرامٌ﴾ مبتدأ ، وخبره مقدر ، أي : وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون كائن أو محكوم عليه ، فحذف الخبر ، وحذف الخبر أكثر من زيادة «لا» وهو الأوجه عند أبي علي الفارسي والزجاج.

﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ ..﴾ جواب ﴿إِذا﴾ إما مقدر ، تقديره : قالوا : ﴿يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾ ، وإما أن يكون الجواب قوله : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُ﴾ والواو زائدة ، وهذا مذهب الكوفيين ، وإما أن يكون الجواب قوله : ﴿فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

البلاغة :

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين للتقبيح ، واستعارة تمثيلية ، مثل اختلافهم في الدين وتفرقهم أحزابا بالجماعة التي تتوزع الشيء أنصباء.

﴿فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ﴾ استعارة ، أستعير الكفران لمنع الثواب ، كما أستعير الشكر لإعطائه.

﴿يا وَيْلَنا﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي : ويقولون : يا ويلنا.

﴿فَاعْبُدُونِ﴾ ، ﴿راجِعُونَ﴾ ، ﴿كاتِبُونَ﴾ سجع لطيف.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ الأمة لغة : القوم المجتمعون على أمر ، ثم شاع استعمالها في الدين أو الملة ، أي إن ملة التوحيد أو الإسلام ملتكم ودينكم أيها المخاطبون ، التي يجب عليكم أن تكونوا عليها. ﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾ أي ملة واحدة غير مختلفة فيما بين الأنبياء. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي أنا الله لا إله غيري ، فوحدوني واعبدوني لا غير.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي جعل بعض المخاطبين أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، بمعنى أنهم تفرقوا في الدين ، وتخالفوا فيه ، وجعلوا أمره قطعا موزّعة بقبيح فعلهم ، وهم طوائف اليهود والنصارى. ﴿كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ﴾ أي كل من الفرق المتجزئة راجعون إلينا فنجازيهم بأعمالهم.

﴿فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا جحود ولا إنكار لعمله ، ولا تضييع لثوابه. ﴿وَإِنَّا لَهُ

﴿كاتِبُونَ﴾ أي وإنا لسعيه مثبتون في صحيفة عمله ، لا نضيع شيئا منه بوجه ما ، ونأمر الحفظة بكتبه ، فنجازيه عليه.

﴿وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ﴾ أي ممتنع على أهلها ، غير متصور منهم. ﴿أَهْلَكْناها﴾ أي حكمنا بإهلاكها أو قدرنا هلاكها ، أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ لا﴾ : زائدة ، أي ممنوع عليهم رجوعهم إلى التوبة أو إلى الدنيا.

﴿حَتَّى﴾ غاية لامتناع رجوعهم ، أي يستمر عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها وهو فتح سد يأجوج ومأجوج. ﴿إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي إذا فتح سدهما ، وذلك قرب يوم القيامة ، وهما اسمان أعجميان لقبيلتين. ﴿وَهُمْ﴾ يعني يأجوج ومأجوج ، أو الناس كلهم. ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ مرتفع من الأرض. ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يسرعون أو يخرجون مسرعين ، مأخوذ من نسلان الذئب ، أي إسراعه.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُ﴾ أي قرب يوم القيامة. ﴿فَإِذا هِيَ﴾ أي القصة ، وإذا : للمفاجاة ، كقوله : ﴿إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم ٣٠ / ٣٦] وهي جواب الشرط السابق وهو ﴿حَتَّى إِذا ...﴾. ﴿شاخِصَةٌ﴾ مرتفعة أجفانها لا تكاد تنظر ، من شدة الهول. ﴿يا وَيْلَنا﴾ أي يقولون : يا هلاكنا ، ويا : للتنبيه. ﴿قَدْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا﴾ اليوم ، لم نعلم أنه حق ﴿بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾ أنفسنا بتكذيبنا الرسل ، وإخلال النظر.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن أن دين الإنسانية دين واحد ، فيقول :

﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ...﴾ أي إن ملة التوحيد أو ملة الإسلام هي ملة واحدة وشريعة واحدة ، متفق عليها بين جميع الأنبياء والشرائع ، وهي التي يجب أن تكونوا عليها ، فكونوا عليها أمة واحدة غير مختلفة فيما بين الأنبياء ، وأنا الله الذي لا إله غيري فاعبدوني وحدي ، ولا تشركوا معي شيئا آخر ، من ملك أو بشر أو حجر أو شجر أو صنم.

وقال في آية أخرى : ﴿وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٥٢]. وقال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد :

«نحن معاشر الأنبياء أولاد علّات [١] ديننا واحد» يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له ، بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ [المائدة ٥ / ٤٨] فليس الاختلاف في أصول العقيدة والأخلاق والفضيلة والعبادة ، وإنما الاختلاف في الفروع والجزئيات والأشكال بحسب الاختلاف في الأزمنة والعصور.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن الأمم اختلفت على رسلها ، بين مصدق لهم ومكذب ، وفرقوا أمر دينهم بينهم فرقا شتى ، وهذا بطريق الالتفات إلى الغيبة للتقبيح ، والأصل : وتقطعتم ، كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ، ويقبّح عندهم فعلهم ، ويقول لهم : ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء. والمعنى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا ، كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه ، فيصير لهذا نصيب ، ولهذا نصيب ، تمثيلا لاختلافهم فيه ، وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى. وهذا التفرق في أمر الدين الواحد معيب شنيع ، ولهذا قال تعالى متوعدا على فعلهم :

﴿كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ﴾ أي كل فرقة منهم سيرجعون إلينا يوم القيامة ، فنجازي كل واحد بحسب عمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر. وطريق الجزاء ومنهاجه هو :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ ، وَإِنَّا لَهُ كاتِبُونَ﴾ من : للتبعيض لا للجنس إذ لا قدرة للمكلف أن يأتي بجميع الطاعات كلها ، فرضها ونفلها ، والمعنى : ومن يعمل عملا صالحا موافقا لمنهاج الله تعالى ، وهو بقلبه ولسانه مصدق بربه ورسله ، أو من يعمل شيئا من الطاعات وهو موحد مسلم ، فلا تضييع لسعيه ، ولا بطلان لثواب عمله ، ولا جحود لعمله ،

---

(١) أولاد العلّات : أولاد الرجل من نسوة شتى.

أي لا يضيع جزاؤه ولا يغطى ، بل يشكر أي يثاب عليه ، ونوفيه الجزاء الأوفى ، ولا يظلم مثقال ذرة ، وإنا له مثبتون حافظون جميع عمله في صحيفته ، لنجازي عليه ، فلا يضيع عليه منه شيء ، مهما صغر ، كما قال في آيات أخرى منها : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٣٠] ومنها : ﴿وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ ، وَسَعى لَها سَعْيَها ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإسراء ١٧ / ١٩].

والآية دليل على أن أساس القبول والنجاة الجمع بين أن يكون الشخص مؤمنا ، وبين أن يعمل الصالحات ، والإيمان : يشمل العلم والتصديق بالله ورسوله ، والعمل الصالح هو فعل الواجبات وترك المحظورات. والكفران : مثل في حرمان الثواب ، والشكر مثل في إعطائه ، والمراد من الآية ﴿فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ﴾ المراد نفي للجنس ، وفيه ترغيب العباد في التمسك بطاعة الله تعالى.

﴿وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أي وممتنع على أهل قرية حكمنا بإهلاكها رجوعهم إلى التوبة أو الحياة الدنيا قبل يوم القيامة. وتكون ﴿لا﴾ زائدة للتأكيد ، وهو كقوله تعالى : ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٥٠]. وقوله : ﴿حَرامٌ﴾ مستعار لمنع الوجود بحال ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٠] أي منعهما.

﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي يستمر عدم رجوع القوم المهلكين إلى قيام الساعة وظهور أماراتها وهو فتح سد يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان أو الناس جميعا ، وإتيان الناس مسرعين من كل مرتفع من الأرض. ويكون المقصود من الآية الردّ على المشركين الذين ينكرون البعث والجزاء.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ، فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي وقرب يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلايا ، وإذا حدث ذلك أو وقع ترى أبصار الكافرين مرتفعة الأجفان ، مثبتة الحدق ، جامدة لا تتحرك ، لا تكاد تنظر من هول وشدة ما يشاهدونه من الأمور العظام.

﴿يا وَيْلَنا ، قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا ، بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ﴾ أي يقولون : يا هلاكنا ، والويل : الهلاك ، قد كنا في الدنيا غافلين لاهين ، لم نعلم أن هذا هو الحق ، وأن البعث والرجوع إلى الله للحساب والجزاء ثابت قائم ، بل إننا في الواقع ظالمون لأنفسنا بتعريضها للعذاب ، وهذا اعتراف صريح بظلمهم لأنفسهم ، حيث لا ينفعهم ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على وحدة الرسالات السماوية في أصولها ، وعلى تفرق الناس في أمر الدين ، وعلى وحدة السنن الإلهية في إثابة المؤمن الصالح العمل ، وتعذيب الكافر المسيء ، وعلى إثبات البعث والجزاء وما يشتمل عليه من شدائد وأهوال.

أما وحدة الرسالات السماوية : فالأنبياء كلهم متفقون على التوحيد ، لذا وجب اتفاق البشر قاطبة على أن الإله واحد لا شريك له ، وعلى وجوب إفراده بالعبادة. أما المشركون فقد خالفوا كل الأنبياء.

وأما الاختلاف في الدين بين مصدق ومكذب : فهو ظاهرة شائعة ، لذا نعى الله تعالى التفرق في أمر الدين ، سواء المسلمين أو اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين ، وذمهم لمخالفتهم الحق ، وندد بغير المسلمين اتخاذهم آلهة من دون الله ، فيكون المراد بقوله : ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ جميع الخلق ، بأن جعلوا أمرهم في أديانهم قطعا ، وتقسموه بينهم ، فمن موحّد ، ومن يهودي ، ومن نصراني ، ومن عابد ملك أو صنم. والكل من هؤلاء الفرق المختلفة راجع إلى حكم الله فيجازيهم.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : «تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، فهلكت سبعون وخلصت فرقة ، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ، فتهلك إحدى وسبعون فرقة ، وتخلص فرقة واحدة ، قالوا : يا رسول الله ، من تلك الفرقة الناجية؟ قال : الجماعة ، الجماعة ، الجماعة» فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى : ﴿إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات ، وأن في قول الرسول ﷺ في الناجية : إنها الجماعة ، إشارة إلى أمة الإيمان. ولكن المراد بقوله : «ستفترق أمتي» أي في حال ما ، وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الأحوال ، لا يجوز أن يزيد أو ينقص [١].

والقاعدة الثابتة أن من يعمل شيئا من الطاعات ، فرضا أو نفلا ، وهو موحد مسلم ، مصدق بمحمد ﷺ ، فلا جحود ولا كفران لعمله ، ولا يضيع جزاؤه ، والكفر ضدّ الإيمان ، وهو أيضا جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ، والله حافظ لعمله ، كما قال تعالى : ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى﴾ [آل عمران ٣ / ١٩٦] أي كل ذلك محفوظ ليجازى به. وفي هذا ترغيب الناس بطاعة الله تعالى.

ومن القواعد والسنن الثابتة الجارية على منهاج واحد أنه ممتنع على أهل قرية أهلكهم الله أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا ، وهذا على أن ﴿لا﴾ زائدة. والراجح عند أبي علي الفارسي والزجاج أن ﴿لا﴾ غير زائدة ، إذ لا فائدة في أن المراد : وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا ، وإنما في الكلام إضمار ، أي وحرام على قرية حكمنا باستئصالها أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم ؛ لأنهم لا يرجعون ، أي لا يتوبون. وهذا هو الأولى عندي.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢ / ٢١٩ ، والحديث رواه أصحاب السنن الأربعة عن أبي هريرة ، ولفظه : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

ويظل المنع من رجوعهم إلى فتح سد يأجوج ومأجوج ، وهم الناس جميعا ، أو هم يأجوج ومأجوج ، وهو الأظهر في رأي القرطبي ، وإلى خروج الناس من قبورهم مقبلين من كل حدب (مرتفع من الأرض) ، وذلك يحصل عند قيام الساعة (القيامة) وهذا دليل على إثبات النشر والحشر.

ثم أثبت الله تعالى البعث والجزاء بقوله : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ وما يتعرض له الكفار من أهوال وشدائد تشخص منها أبصارهم ، أي ترتفع من هول القيامة لا تكاد تطرف ، ويقولون : يا ويلنا ويا هلاكنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا ، ووضعنا العبادة في غير موضعها.

أحوال الكافرين والمؤمنين في الآخرة وحال السماء فيها

﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (٩٨) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (١٠٦)﴾

الإعراب :

﴿كَطَيِّ السِّجِلِ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ لأنها صفة مصدر محذوف ، أي نطوي السماء طيّا كطي السجل ، فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه ، والمصدر مضاف إلى المفعول إذا كان بمعنى المكتوب فيه وهو الصحيفة ، أي كما يطوى السجل. وللكتاب : أي للكتابة ، كقوله تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران ٣ / ٤٨].

﴿وَعْداً عَلَيْنا﴾ منصوب بوعدنا المقدر قبله ، وهو مؤكد لمضمون ما قبله.

البلاغة :

﴿نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ فيه تشبيه مرسل مفصل ، أي نطوي السماء طيا مثل طيّ الصحيفة على ما كتب فيها.

المفردات اللغوية :

﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي إنكم أيها الكفار والمشركون وما تعبدونه من الأوثان من غير الله ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يرمى به إليها من حطب ووقود. ﴿وارِدُونَ﴾ داخلون فيها. ﴿لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً﴾ لو كان هؤلاء الأوثان آلهة كما زعمتم. ﴿ما وَرَدُوها﴾ دخلوها ؛ لأن المؤاخذ المعذّب لا يكون إلها. ﴿وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ﴾ كل من العابدينوالمعبودين خالدون دائمون في جهنم.

﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ﴾ أي للعابدين في جهنم أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف. ﴿لا يَسْمَعُونَ﴾ شيئا لشدة غليانها. ﴿الْحُسْنى﴾ المنزلة الحسنى أو الكلمة الحسنى التي تبشر بثوابهم الحسن على أعمالهم. ﴿حَسِيسَها﴾ صوتها الذي يحس من حركتها. ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من النعيم. ﴿خالِدُونَ﴾ دائمون في غاية التنعم ، وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به. ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ النفخة الثانية أو الأخيرة ؛ لقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل ٢٧ / ٨٧] وقيل : هو الانصراف إلى النار وهو أن يؤمر بالعبد إلى النار ، وقيل : حين يطبق على النار ، أو حين يذبح الموت على صورة كبش أملح. ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ تستقبلهم الملائكة مهنئين عند خروجهم من القبور. ﴿هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي ويقولون لهم : هذا اليوم الذي كنتم توعدون به في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ﴾ أي اذكر يوم الطي : وهو ضد النشر. ﴿السِّجِلِ﴾ الصحيفة المكتوب فيها. ﴿لِلْكُتُبِ﴾ للكتابة فيها. ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ أي من عدم. ﴿نُعِيدُهُ﴾ بعد إعدامه. ﴿وَعْداً﴾ منصوب ب ﴿نُعِيدُهُ﴾ ، أو بفعل مقدر تأكيدا ل ﴿نُعِيدُهُ﴾ أي وعدناه وعدا. ﴿عَلَيْنا﴾ أي علينا إنجازه. ﴿إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ ما وعدنا ذلك لا محالة.

﴿الزَّبُورِ﴾ كتاب داود. ﴿الذِّكْرِ﴾ أي التوراة ، أو جنس الكتب المنزلة ، أو اللوح المحفوظ. ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أرض الجنة. ﴿عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي عامة المؤمنين أو كل صالح.

﴿إِنَّ فِي هذا﴾ القرآن أو ما ذكرناه من الأخبار والمواعظ والمواعيد. ﴿لَبَلاغاً﴾ كفاية في دخول الجنة. ﴿لِقَوْمٍ عابِدِينَ﴾ أي همهم العبادة دون العادة.

سبب النزول :

نزول الآية (١٠١):

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى﴾ : أخرج الحاكم عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ، أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ قال ابن الزّبعرى : عبد الشمس والقمر والملائكة وعزير ، فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا ، فنزلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ ونزلت : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ، وَقالُوا : أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٧ ـ ٥٨].

المناسبة :

بعد بيان أحوال أهل النار وأهل الجنة ، واقتراب الساعة ، ذكر الله تعالى حال العابدين والمعبودين من دون الله ، وأنهم سيكونون وقود جهنم ، باستثناء أهل السعادة أو البشرى بالثواب.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ ..﴾ إنكم أيها المشركون بالله من عبدة الأصنام والأوثان وما تعبدون من غير الله ، وقود جهنم ، أنتم جميعا داخلون فيها ، كما قال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٤].

ويشمل ما يعبدون من دون الله الأصنام وإبليس وأعوانه ؛ لأنهم بطاعتهم

لهم ، واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم. ولا تشمل هذه الآية عزيرا والمسيح والملائكة ؛ لأن قوله : ﴿إِنَّكُمْ﴾ خطاب مشافهة مع مشركي قريش ، وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط ، ولأنه تعالى لم يقل : (ومن تعبدون) بل قال : ﴿وَما تَعْبُدُونَ﴾ وكلمة ﴿ما﴾ لا تتناول العقلاء ، فسقط سؤال ابن الزبعرى ، كما أبان الرازي [١]. وأما قوله تعالى : ﴿وَالسَّماءِ وَما بَناها﴾ [الشمس ٩١ / ٥] وقوله : ﴿لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون ١٠٩ / ٢] فهو محمول على الشيء ، ونظيره هاهنا أن يقال : إنكم والشيء الذي تعبدون من دون الله ، لكن لفظ الشيء لا يفيد العموم ، فلا يرد سؤال ابن الزبعرى.

ويتضح سبب النزول المتقدم ودخول الشياطين في المعبودين بما يأتي :

روى محمد بن إسحاق في سيرته : «أن رسول الله ﷺ دخل المسجد ، وصناديد قريش في الحطيم [٢] ، وحول الكعبة ثلاث مائة وستون صنما ، فجلس إليهم ، فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية ، فأقبل عبد الله بن الزّبعرى ، فرآهم يتهامسون ، فقال فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ، فقال عبد الله : أما والله ، لو وجدته لخصمته ، فدعوه ، فقال ابن الزّبعرى : أأنت قلت ذلك؟ قال : نعم ، قال : قد خصمتك وربّ الكعبة ، أليس اليهود عبدوا عزيرا ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة؟ فقال ﷺ : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى﴾ الآية ، يعني عزيرا والمسيح والملائكة عليهم السلام .

---

(١) تفسير الرازي : ٢٢ / ٢٢٣

(٢) الحطيم : جدار حجر الكعبة أي حجر إسماعيل من ناحية الشمال.

وأما سبب إدخال المعبودين في النار : فهو كما أبان الزمخشري [١] ليزداد العابدون بهم غمّا وحسرة ، وليكونوا أبغض شيء لديهم بعد أن اتخذوهم في الدنيا شفعاء لهم في الآخرة.

ثم ذكر تعالى دليل كون المعبودين غير آلهة فقال :

﴿لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها﴾ أي لو كان هؤلاء الأصنام وأشباههم آلهة صحيحة تنفع وتضر كما يظن العابدون ما دخلوا النار ، إذ لو كانت تنفع وتضر لأبعدت الضر عن نفسها ، فهي جديرة بالهجرة والإهانة.

﴿وَكُلٌّ فِيها خالِدُونَ﴾ أي وكل من هؤلاء الآلهة المعبودين دائمون في عذاب النار ، لا مخرج لهم منها.

﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ﴾ أي ولهم في النار من شدة العذاب وشدة الكرب والغم أنين وتنفس شديد يخرج من أقصى الجوف ، كما قال تعالى : ﴿لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود ١١ / ١٠٦] وهم لا يسمعون فيها ما يسرهم أو ينفعهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية.

وبعد بيان أحوال أهل النار ، ذكر الله تعالى أحوال السعداء من المؤمنين فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ﴾ أي إن الذين سبقت لهم من الله السعادة ، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ، فهم مبعدون عن دخول النار ، وهم في الجملة : أهل السعادة أو البشرى بالثواب ، أو التوفيق للطاعة ، كما قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ [يونس ١٠ / ٢٦]. يروى أن عليا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ، ثم قال : أنا منهم ، وأبو بكر ،

---

(١) الكشاف : ٢ / ٣٣٨

وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، ثم أقيمت الصلاة ، فقام يجرّ رداءه ، وهو يقول : ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾.

وأوضاع نعيمهم هي :

١ ـ ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها﴾ أي لا يسمعون صوت النار ، وحريقها في الأجساد ، ولا يصيبهم شررها.

٢ ـ ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ﴾ أي وهم ماكثون أبدا فيما يشتهونه من نعيم الجنة ولذائذها. والشهوة : طلب النفس اللذة.

٣ ـ ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ لا يخيفهم هول النفخة الثانية أو الأخيرة بعد قيامهم من قبورهم للحساب ، كما قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ [النمل ٢٧ / ٨٧]. وقيل بغير ذلك كما تقدم في بيان المفردات. والأصح : أنه أهوال يوم القيامة والبعث.

٤ ـ ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ : هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي وتستقبلهم الملائكة تقول لهم وتبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم : هذا يومكم الذي وعدتم به في الدنيا ، يوم المسرة والكرامة والمثوبة والحسنى.

وذلك التلقي والاستقبال هو كما قال تعالى :

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوي السماء ، أو تتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء يوم القيامة كما يطوى السجل ، أي الصحيفة للكتابة فيه ، وهذا موقف آخر فيه روع وخوف وحيرة ، كما قال تعالى : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٦٧].

﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي أن هذا الطي

كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق بالبعث خلقا جديدا ، كما بدأهم في المرة الأولى ، وهو القادر على إعادتهم ، وذلك وعد الله الذي لا يخلف ، والله تعالى فاعله حتما ، فهو واجب الوقوع ، ولا بدّ من تحققه ؛ لأنه قادر عليه. وقوله : ﴿إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ أي قادرين على أن نفعل ذلك.

ونظير الآية : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام ٦ / ٩٤] ، وقوله : ﴿وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف ١٨ / ٤٨].

ثم أخبر الله تعالى عما قضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة ، فقال :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ ..﴾ أي ولقد قضينا قضاء محتما في كتاب الزبور بعد التوراة أو القرآن أن وراثة الأرض في الدنيا والآخرة لا تكون إلا للعباد الصالحين وهم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى.

والذّكر : التوراة ، وقال ابن عباس : القرآن ، وقيل : إنه أم الكتاب يعني اللوح المحفوظ ، فهو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

والأرض : إما أرض الجنة ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧٤]. وإما أرض الدنيا ، وأهلها الصالحون لعمارتها ، كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور ٢٤ / ٥٥] ، وقال سبحانه : ﴿قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ ، يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٨]. وإما الأرض المقدسة يرثها الصالحون ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٧].

﴿إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ﴾ أي إن في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة البلاغ أي الكفاية والمنفعة لقوم عابدين : وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبّه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن المشركين بالله والآلهة التي عبدوها من دون الله من الأصنام والأوثان والشياطين وقود جهنم ، هم جميعا داخلون فيها ، إظهارا لعدم فائدة عبادتها ، وزيادة لعابديها في الغم والحسرة ، وإيجاد الكراهية الشديدة لها ، وإمعانا في السخرية منهم ومن عبادتهم ، وإقامة الحجة القاطعة على قدرة الله الشاملة لكل شيء.

وقد استدل الأصوليون بقوله تعالى : ﴿وَما تَعْبُدُونَ﴾ على القول بالعموم وأن له صيغا مخصوصة بدليل الاستثناء منها.

٢ ـ الدليل على إبطال صفة الألوهية لتلك الآلهة المزعومة أنه لو كانت الأصنام وأمثالها آلهة لما ورد عابدوها النار ، ولما خلدوا هم والمعبودون فيها.

٣ ـ أحوال المعذبين النفسية في النار غريبة وشديدة ، فلهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين زفير : وهو صوت المغموم الذي يخرج من القلب ، ولا يسمعون ما يسرهم ، بل ما يسوؤهم من أصوات الزبانية الذين يتولون تعذيبهم.

٤ ـ إن أهل السعادة والتوفيق للطاعة والبشرى بالثواب مبعدون عن دخول النار.

وأحوالهم سارة ، فهم لا يسمعون حسّ النار وحركة لهبها وحريقها الأجساد ، ويتمتعون بنحو دائم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ﴾ [فصلت ٤١ / ٣١]. ولا يحزنهم الفزع الأكبر الذي يصيب غيرهم وهو أهوال يوم القيامة والبعث ، وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فما أجمل هذا الاستقبال والترحاب الحار الصادق ، وما أحسنه اطمئنانا وإسعادا للنفس!!

٥ ـ الثابت في هذه الآية : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ﴾ وغيرها على أن السموات والأرض تتبدل يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤٨].

٦ ـ والثابت أيضا أن الله تعالى سيحشر الناس من قبورهم ويعيدهم خلقا جديدا أحياء ، كما خلقهم في المرة الأولى يوم بدئوا بالخلق في البطون. روى النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : «يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلا ـ غير مختونين ـ أوّل الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، ثم قرأ : ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾». وأخرجه مسلم أيضا عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : «يا أيها الناس ، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنا ، إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام».

٧ ـ المقرر في جميع الكتب السماوية المنزلة أن أرض الجنة في الآخرة ، وكذا الأرض في الدنيا ـ كما يفهم من إطلاق الآية ـ يرثها عباد الله الصالحون. والصالحون للآخرة هم المؤمنون العاملون بطاعة الله ، والصالحون للدنيا : من يصلح لعمارتها والقيام بحقها.

٨ ـ إن في هذا القرآن الذي أنزله الله على عبده محمد ﷺ لبلاغا لقوم عابدين أي لمنفعة وكفاية للذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه ، وآثروا طاعته على كل شيء.

نبي الرحمة المهداة

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (١١١) قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (١١٢)﴾

الإعراب :

﴿عَلى سَواءٍ﴾ إما منصوب على أنه صفة مصدر محذوف ، وتقديره : آذنتكم إيذانا على سواء ، وإما في موضع نصب على الحال من الفاعل والمفعول في ﴿آذَنْتُكُمْ﴾ وهما التاء والكاف والميم ، مثل قول الشاعر :

«فلئن لقيتك خاليين لتعلمن» فنصب خاليين على الحال من ضمير الفاعل والمفعول في «لقيتك».

البلاغة :

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ استفهام يراد به الأمر ، أي أسلموا كما في الآية المتقدمة : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ﴾ أي فاشكروا [الأنبياء ٢١ / ٨٠].

المفردات اللغوية :

﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا للرحمة بالعالمين : الإنس والجن ؛ لأن ما بعثت به سبب لإسعادهم ، وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم.

﴿قُلْ : إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ أي ما يوحى إلى في أمر الإله إلا وحدانيته ، فهو الإله الواحد ؛ لأن المقصود الأصلي من بعثته مقصور على التوحيد ، فكلمة ﴿إِنَّما﴾ الأولى لقصر الحكم على الشيء ، والثانية على العكس. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون خاضعون لما يوحى إلي من وحدانية الإله. والاستفهام بمعنى الأمر ، أي أسلموا وأخلصوا العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن ذلك. ﴿آذَنْتُكُمْ﴾ أعلمتكم ما أمرت به ، وكثر استعماله في الإنذار ، كما قال تعالى : ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٧٩].

﴿عَلى سَواءٍ﴾ أي مستوين في علمه ، أي أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به أو في الحرب والمعاداة. ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ أي ما أدري. ﴿ما تُوعَدُونَ﴾ من العذاب أو من غلبة المسلمين عليكم أو من القيامة والحشر ، فذلك كائن لا محالة ، وإنما يعلمه الله. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ﴾ إنه تعالى. ﴿الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي ومن الفعل ، منكم ومن غيركم من الطعن في الإسلام. ﴿وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ﴾ أي وما أدري لعل تأخير عذابكم استدراج لكم ، وزيادة في الامتحان والاختبار. ﴿لَكُمْ﴾ ليرى كيف صنعكم. ﴿وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ وتمتع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ﴾ أي اقض بيني وبين مكذبيّ كأهل مكة بالعدل ، أي بتعجيل العذاب لهم أو النصر عليهم ، فعذبوا ببدر وأحد وحنين والأحزاب أو الخندق ، ونصره الله عليهم. ﴿تَصِفُونَ﴾ أي أن الله هو كثير الرحمة على خلقه ، المطلوب منه المعونة على ما تصفون من الحال بأن الشوكة تكون لهم ، وبكذبكم على الله باتخاذه ولدا ، وعلي بأني ساحر ، وعلى القرآن بأنه شعر.

المناسبة :

بعد بيان قصص الأنبياء المتقدمين عليهم ، وبعد الاعلام بأن القرآن بلاغ ومنفعة وكفاية للعابدين ، أخبر الله تعالى عن سبب بعثة النبي ﷺ وهو أنه رحمة للعالمين في الدين والدنيا ، أما في الدين فبتخليصهم من الجاهلية والضلالة ، وأما في الدنيا فبالتخليص من كثير من الذل والقتال والحروب ، والنصر والعلو ببركة دينه. وأما مجيئه بالسيف أيضا فهو لتأديب من استكبر وعاند ، ولم يتفكر ولم يتدبر ، كما أن الله رحمن رحيم ، وهو أيضا منتقم من العصاة.

التفسير والبيان :

﴿وَما أَرْسَلْناكَ ..﴾ أي وما أرسلناك يا محمد بشريعة القرآن وهديه وأحكامه إلا لرحمة جميع العالم من الإنس والجن في الدنيا والآخرة ، فمن قبل هذه الرحمة ، وشكر هذه النعمة ، سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردّها وجحدها ، خسر الدنيا والآخرة. وقيل : كونه رحمة للكفار : أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

قال تعالى مبينا خسارة الجاحدين : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٢٨ ـ ٢٩].

وقال سبحانه في صفة القرآن : ﴿قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٤]. وقال ﷺ ـ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة : «إني لم أبعث لعانا ، وإنما بعثت رحمة» ورواه الحاكم بلفظ : «إنما أنا رحمة مهداة».

ثم أمر الله رسوله أن يقول للمشركين بما يكون إعذارا وإنذارا في مجاهدتهم : ﴿قُلْ : إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي قل يا محمد لمشركي مكة ولكل إنسان : ما يوحى إلي شيء في شأن الإله إلا أنه إله واحد لا شريك له ، فاعبدوه وحده ، وأسلموا له وانقادوا ، وأطيعوني واتبعوني على ذلك.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا ، فَقُلْ : آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ﴾ أي فإن أعرضوا وتركوا ما دعوتهم إليه ، فقل : أعلمتكم أني حرب لكم ، كما أنكم حرب لي ، وأنا بريء منكم ، كما أنتم برآء مني ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي ، وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٤١] ، وقوله سبحانه : ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٥٨] أي ليكن

علمك وعلمهم بنبذ العهد على السواء ، وهذا معنى الآية هنا ﴿فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم ، وبراءتكم مني ، لعلمي بذلك ، وقد استوينا في هذا العلم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ﴾ أي إن ما توعدون من العذاب وغلبة المسلمين عليكم واقع كائن لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ ، وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ﴾ أي إن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون ، يعلم ما تجهرون به من الطعن في الإسلام ، وما تضمرونه من الحقد والكيد على المسلمين ، وسيجزيكم على قليل ذلك وكثيره.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ أي وما أدري لعل تأخير العذاب عنكم ابتلاء واختبار لكم ، وتمتع بلذات الدنيا إلى أجل مسمى ، لينظر كيف تعملون.

﴿قالَ : رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ﴾ أي قال النبي : ربنا افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق والعدل ، فقولك الحق ، وأنت الحق ، ووعدك الحق ، وحكمك بالحق ، ولا تحب إلا الحق. قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٨٩] وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وروى مالك عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال : ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ﴾.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ أي والله ربنا هو المطلوب منه العون على ما تصفون من الشرك والكفر ، والكذب والباطل ، وهو القول : بأن لله ولدا ، وأني ساحر شاعر ، وأن القرآن شعر ، وعلى ما تطمعون أن تكون الشوكة والغلبة لكم.

والاحتكام إلى الله إنذار وإظهار للحق ، وتوعد للكفار ، وتهديد بالهزيمة والاندحار أمام جند الإيمان وأنصار الحق.

فقه الحياة أو الأحكام :

في اختتام سورة الأنبياء بهذه الآيات دلالات ظاهرة وحجة بينة على الحق الأبلج وهي :

١ ـ إن رسول الله ﷺ خاتم النبيين الذي توج الله برسالته رسالات الأنبياء المتقدمين رحمة لجميع الناس ، فمن آمن به ، وصدّق بدعوته ، سعد ، ومن لم يؤمن به سلم في الدنيا مما لحق الأمم من الخسف والمسخ والغرق وعذاب الاستئصال ، وخسر الآخرة خسرانا مبينا.

٢ ـ جميع رسالات الأنبياء ورسالة خاتمهم أيضا لا يوحى فيها شيء في شأن الإله إلا التوحيد والوحدانية ، فلا يجوز الإشراك به ، فهل أنتم أيها البشر قاطبة منقادون لتوحيد الله تعالى ، أي فأسلموا تسلموا.

٣ ـ إن أعرض المشركون والكفار عن رسالة الإسلام فقد تمّ إنذارهم وإعذارهم ، وتمّ إعلامهم ألّا لقاء بين الإيمان والكفر ، وألّا صلح بين المسلمين والكفار ، وأن الحرب والعداوة مستمرة بين الفريقين ، ولكن لا يشترط أن تكون حربا مستعرة وقتالا دائرا ، وإنما ذلك إعلان قاطع عما يكنّ في أصائل قلوب المؤمنين من إنكار قلبي لمختلف ألوان الكفر ، دون مهادنة ولا رضا ، ولا إقرار لأي شيء من أوضاع الكفر الفاسدة.

٤ ـ إن أجل العذاب ويوم القيامة لا يدريه أحد ، لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب.

٥ ـ الله تعالى عالم الغيب والشهادة ، والسر والجهر ، والباطن والظاهر

يعلم مطاعن الكفار بالإسلام ، ومكائدهم وأحقادهم على المسلمين وشركهم وكفرهم ، وسيجزيهم على ما يصدر منهم من صغير أو كبير.

وربما كان الإمهال بالعذاب اختبارا ليرى ما يصنعون ، والله أعلم بما يفعلون ، وربما كان عدلا وفضلا تأخير العذاب ليتمتع الكفار بلذائذ وشهوات الدنيا ، ثم يحرموا منها في الآخرة.

٦ ـ عقيدة المؤمن الصادق الإيمان لها محوران في أزمات الاحتكاك مع الكفار ، المحور الأول ـ هو تفويض الأمر إلى الله وتوقع الفرج من عنده ، وهذا ما أمر به الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿قالَ : رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وانصرني عليهم. والمحور الثاني ـ هو الاستعانة بالله القوي الغالب ، وهذا ما ختمت به السورة : ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ أي ما تصفونه من الكفر والتكذيب ، والطمع في الغلبة على أهل الإيمان.

٧ ـ يقوم شرع الله ودينه على عقيدة التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، وعلى العدل والقسط ، فالله سبحانه يقضي بالحق ، وينصر أهل الحق والإيمان بالله ، ويخذل الظلمة والكفار ، ويدحر الظلم وأهله ، ويعين المظلوم ، وينصر الضعيف ، وينتصف للفقير من الغني ، ويسوي بين الخصمين ، ولو كان أحدهما مسلما والآخر كافرا ، ويدعو إلى الرحمة والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وهذه هي أصول الحضارة الصحيحة ، ونواة (الديمقراطية) السديدة ، فلا تعصب فيه ، ولا ظلم ، ولا جهل ، ولا فوضى ، وإنما العلم والمعرفة والوعي منهاج الحياة الإسلامية ، وطريق الدعوة القرآنية ، ومصباح العالم كله.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة الحج

مدنية ، وهي ثمان وسبعون آية.

تسميتها :

سميت سورة الحج لإعلان فريضة الحج فيها على الناس ، على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ﴾ بعد بناء البيت العتيق ، فأذن ، فبلغ صوته أنحاء الأرض ، وأسمع النطف في الأصلاب والأجنة في الأرحام ، وأجابوا النداء : «لبيك اللهم لبيك».

صلتها بما قبلها :

هناك تناسب وارتباط بين بداية هذه السورة ، وخاتمة السورة السابقة ، فقد ختم الله سورة الأنبياء ببيان اقتراب الساعة ووصف أهوالها في قوله : ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ، فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وافتتح هذه السورة بقوله : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ﴾.

وفي السورة المتقدمة بيان قصص أكثر من عشرة من الأنبياء تدور على ما قاموا به من إثبات توحيد الله ، ونبذ الشرك ، والإيمان بالبعث ، وفي هذه السورة استدلال بخلق الإنسان بأطواره المتعددة وبإبداع السموات والأرض على قدرة الله على إحياء البشر للبعث ، وعلى وجوده تعالى ووحدانيته ، ثم تنبيه الأفكار على الالتفات لأحوال أهل القرى الظالمة التي أهلكها الله ، والاتعاظ بها بسبب تكذيبهم الرسل.

مشتملاتها :

بالرغم من أن هذه السورة مدنية تضمنت الكلام عن فرضية الحج ومناسكه ، وعن مشروعية القتال ومقومات النصر ، فإنها تحدثت عن أمور مشابهة لموضوعات السور المكية من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده ، والبعث والاستدلال عليه ، والجزاء على الأعمال.

افتتحت السورة بما يهز المشاعر ، وينشر الرعب والخوف من أهوال الساعة ، وشدائد يوم القيامة.

ثم انتقلت إلى بيان أدلة البعث ، وإتيان القيامة ، وبيان بعض مشاهدها من جعل الأبرار في دار النعيم ، وزجّ الكفار في نار الجحيم ، وإعلان خسارة المنافقين المضطربين الذين لا يعرف لهم قرار ولا اتجاه. ثم أبانت حرمة المسجد الحرام ، وفرضية الحج ومنافعه ، وحرماته وشعائره ، ومناسكه وذبائحه ، وأردفت ذلك بالحديث المقنع عن أسباب فرضية القتال ، ومقومات النصر على الأعداء ، مع تسلية الرسول ﷺ عما ناله من أذى قومه ، وتكذيبهم له ، والتعريف بحال أهل القرى الظالمة التي أهلكها الله ، وجعل العاقبة للمتقين ، وتحديد مهمة النبيﷺ وهي الإنذار مكذبي القرآن بالنار ، وتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة والنعيم ، وإظهار مدى فضل الله على المهاجرين وإثابتهم.

واقتضت الحكمة بعدئذ الكلام عن أدلة القدرة الإلهية من خلق الليل والنهار ، والسماء والأرض ، والإحياء والإماتة ، والعلم الشامل لجميع مكنونات الكون ، وتفرد الله تعالى بالحساب والفصل والحكم بين الناس. ثم بيان مدى تبرم الكفار بآيات الله ، وإظهار الغضب على وجوههم ، وتحديهم بأن معبوداتهم من الأصنام وغيرها لا تستطيع خلق ذبابة ، فضلا عن خلق الإنسان ، وأن منشأ

شركهم إقفار قلوبهم من تقدير الله حق قدره ، علما بأن الله يرسل رسلا من الملائكة ومن البشر لتبليغ الرسالة الإلهية على أتم وجه.

ثم عاد الكلام إلى بيان أحكام التشريع من أمر المؤمنين بفرائض جوهرية ثلاث : هي إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والجهاد في سبيل الله حق الجهاد ، وأردف ذلك بالتذكير بسماحة الإسلام ، وأن الدين يسر لا عسر ، ثم أمرهم بالاعتصام بدين الله والقرآن والإسلام ، وبيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة ، وأن أمته تشهد على الأمم المتقدمة بتبليغ أنبيائهم لهم دعوة الله وتشريعه ، وتلك مزية سامية لهذه الأمة.

فضلها :

قال العزيزي : وهي من أعاجيب السور ، نزلت ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، مكيا ومدنيا ، سلميا وحربيا ، محكما ومتشابها.

الأمر بتقوى الله تعالى

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النَّاسَ سُكارى وَما هُمْ بِسُكارى وَلكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (٤)﴾

الإعراب :

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا يَوْمَ﴾ منصوب بتذهل. ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ ما : موصولة أو مصدرية.

﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ في موضع رفع على أنه نائب فاعل ، وهاء ﴿أَنَّهُ﴾ ضمير الشأن. والحديث. و ﴿مَنْ﴾ : إما بمعنى الذي ، و ﴿تَوَلَّاهُ﴾ : صلته ، وهو وصلته مبتدأ ، وقوله : ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ خبره ، ودخلت الفاء ؛ لأن الموصول يتضمن معنى الشرط والجزاء. ومن وصلته وخبره : خبر «أن» الأولى. وإما أن تكون ﴿مَنْ﴾ شرطية ، و ﴿تَوَلَّاهُ﴾ : مجزوم بها ، وجواب الشرط : ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾. ومن الشرطية وجوابها خبر «أن» الأولى. وأما فتح «أن» الثانية فهو على أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : فشأنه أنه يضله ، أي فشأنه الإضلال.

البلاغة :

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ تشبيه بليغ ، حذف فيه أداة التشبيه والشبه ، أي كالسكارى من شدة الهول.

﴿شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ استعارة ، استعار لفظ الشيطان لكل طاغية عات متمرد على الله.

﴿يُضِلُّهُ﴾ و ﴿يَهْدِيهِ﴾ بينهما طباق.

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أسلوب تهكم.

المفردات اللغوية :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي يا أهل مكة وغيركم. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ احذروا عقابه ، بأن تطيعوه. ﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ تحريكها للأشياء ، على الإسناد المجازي ، والزلزلة : الحركة الشديدة للأرض ، وقيل : تكون هذه الزلزلة حقيقة ، ثم يكون بعدها طلوع الشمس من مغربها ، وإضافتها إلى الساعة ؛ لأنها من أشراطها. ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ هائل ، مزعج للناس ، وهو نوع من العقاب. وقد علل أمر الناس بالتقوى بفظاعة الساعة ، ليتصوروها بعقولهم ، ويعلموا أن الأمان منها بالتدرع بلباس التقوى.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الضمير للزلزلة. ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي تذهل كل مرضعة (وهي الأنثى حال الإرضاع) عن رضيعها وتنساه ، أي تذهلها الزلزلة ، والذهول : الذهاب عن الأمر بدهشة بسبب ما يطرأ من هم أو وجع أو غيره ، والمقصود تصوير هولها والدلالة على ترك التعلق بأحب الأشياء. ﴿حَمْلَهَا﴾ جنينها. ﴿سُكَارَى﴾ كأنهم سكارى من شدة الخوف. ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ على الحقيقة. ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ أي يرهقهم هوله ويذهب عقولهم وتمييزهم ، فهم يخافونه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيقولون : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، وينكرون البعث وإحياء من صار ترابا. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في جداله وعامة أحواله. ﴿كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ متمرد عات ، متجرد للفساد.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضي على الشيطان. ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ اتبعه. ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ أي كتب عليه إضلال من يتولاه ؛ لأنه جبل عليه. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي يدعوه إلى النار ، ويحمله على ما يؤدي إليه.

نزول الآيتين (١ ـ ٢):

روي أن هاتين الآيتين نزلتا ليلا في غزوة بني المصطلق ، فقرأهما رسول الله ﷺ على الناس ، فلم ير باكيا أكثر من تلك الليلة ، وأصبح الناس بين باك وجالس حزين متفكر.

نزول الآية (٣):

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ﴾ قال : نزلت في النضر بن الحارث.

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى عباده بتقواه ، ويخبرهم عما يستقبلون من أهوال القيامة وزلازلها وأحوال الآخرة ، فيقول :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي يا أيها البشر قاطبة ، احذروا عقاب ربكم ، بطاعته وعدم عصيانه ، فإن زلزلة القيامة أو حركتها الشديدة حين قيامها قبل قيام الناس من قبورهم شيء عظيم الهول ، خطير الوقع. وذلك بدليل قوله تعالى : ﴿إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها﴾ [الزلزلة ٩٩ / ٢ ـ ١] وقوله : ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ ، فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً ، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ [الحاقة : ٦٩ / ١٤ ـ ١٥].

وقوله : ﴿إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ، وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا ، فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة ٥٦ / ٤ . ٦].

وأوصاف ذلك اليوم هي :

١ . ﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ يوم تذهل الزلزلة كل مرضعة عن وليدها الرضيع. والذهول : الغفلة عن الشيء مع دهشة ، والمرضعة : التي هي في حال الإرضاع ، ملقمة ثديها الصبي. والمرضع : المستعدة للإرضاع أو التي من شأنها أن ترضع ، وإن لم تباشر الإرضاع ، في حال وصفها به ، وقوله : ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي إرضاعها أو عن الطفل الذي ترضعه.

٢ . ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها﴾ أي وتسقط الحامل جنينها من بطنها من شدة الهول والخوف والفزع.

قال الحسن البصري : تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام ، وتضع الحامل ما في بطنها لغير تمام.

٣ . ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكارى ..﴾ أي وترى الناس كالسكارى من الخوف ، وهم في الحقيقة والواقع غير سكارى من الشراب ، ولكن شدة العذاب أفقدتهم عقولهم وتمييزهم.

ومع هذا التحذير الشديد ينكر بعض الناس البعث ويجادل في المغيبات بغير علم ، فيقول تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعض الناس من يجادل في صفات الله وأفعاله ، وقدرته على البعث وغيره بغير علم صحيح ، ولا عقل رشيد ، ويتبع في جداله بالباطل خطوات كل شيطان متمرد عات ، فهو لا يجادل بالحق ، وإنما يجادل بالباطل.

قيل كما بينا : نزلت في النضر بن الحارث ، وكان جدلا ، يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله غير قادر على إحياء من بلي وصار ترابا.

والآية كما قال في الكشاف عامة في كل من تعاطى الجدال ، فيما لا يجوز على الله ، وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ، ولا يتّبع حجة ولا برهانا صحيحا ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل. والآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، وهي المجادلة مع العلم ، المرادة بقوله تعالى : ﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل ١٦ / ١٢٥]. أما المجادلة الباطلة فهي المراد من قوله تعالى : ﴿ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً﴾ [الزخرف ٤٣ / ٥٨].

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ..﴾ أي قضي على من اتبع الشيطان ، وجعله وليا ناصرا له أن يوقعه في الضلال ، وأن ولايته له لم تثمر إلا الإضلال عن طريق الجنة ، والهداية إلى النار ، وإيصاله إلى جهنم. والمقصود أن اتباع الشيطان يؤدي إلى الضلال في الدنيا ، وإلى عذاب النار في الآخرة ، وكأنه تعالى قال : قضي على من يتبع الشيطان أن الشيطان يضله عن الجنة ، ويهديه إلى النار ، وهذا وعيد لمتبع الشيطان.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ وجوب التحلي بالتقوى وهي التزام الأوامر الإلهية ، واجتناب النواهي ، لاتقاء أهوال يوم القيامة ذات الخطر الشديد.

٢ ـ إن وقع الساعة وتأثير القيامة على النفس شديد الأثر ، حتى لتكون زلزلتها مذهلة (شاغلة) الأم الحنون عن طفلها الرضيع ، ومسقطة الجنين من

بطن أمه ، وجاعلة الناس كأنهم سكارى من شدة الخوف ، وما هم في الحقيقة سكارى من الشراب.

٣ ـ إن المشرك بالله هو الذي يجادل بالباطل وبغير علم صحيح في صفات الله وأفعاله ، وقدرته على البعث ، والإحياء بعد الإماتة ، وهو في جداله يتبع كل شيطان متمرد ، ومن يتبع الشياطين ويتولاهم فإنهم يوقعونه في الحيرة والضلال في النار ، ويأخذون بيده إلى عذاب جهنم في الآخرة. وهذا يدل على تحريم المجادلة الباطلة القائمة على الجهل ، وعلى الزجر من الله تعالى على اتباع خطوات الشيطان.

أما المجادلة بالحق وهي القائمة على العلم ، فهي جائزة غير ممنوعة.

الاستدلال بخلق الإنسان والنبات على البعث

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)﴾

الإعراب :

﴿بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً شَيْئاً﴾ : منصوب بالمصدر قبله ، على قول البصريين ؛ لأنه الأقرب ، وب ﴿يَعْلَمَ﴾ على قول الكوفيين ؛ لأنه الأول.

﴿ذلِكَ بِأَنَّ ..﴾ ذا : إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : الأمر كذلك ، وإما منصوب على تقدير فعل ، تقديره : فعل الله ذلك بأنه الحق. وقال البيضاوي : وهو مبتدأ ، وخبره : ﴿بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.

البلاغة :

﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ استعارة تبعية ، شبه الأرض بنائم ، ثم يتحرك بنزول المطر عليه.

المفردات اللغوية :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿رَيْبٍ﴾ شك. ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ من إمكانه وكونه مقدورا. ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم وأصلكم آدم ، فإنه يزيح ريبكم. ﴿مِنْ تُرابٍ﴾ أي خلق آدم منه ، وخلق الأغذية التي يتكون منها المني. ﴿نُطْفَةٍ﴾ مني : وهو ما يخرج عند اللذة من صلب الرجل ، سمي نطفة لقلته ، مأخوذ من النّطف : أي الصب أو القطر. ﴿عَلَقَةٍ﴾ قطعة من دم جامد. ﴿مُضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم ، قدر ما يمضغ. ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مصوّرة معالم الخلقة أو غير مصوّرة ، أو مسوّاة لا نقص فيها ولا عيب ، أي تامة الخلق ، وغير مسوّاة. ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التدرج في الخلقة كمال قدرتنا وحكمتنا ، لتستدلوا بها في ابتداء الخلق على إعادته. ﴿وَنُقِرُّ﴾ أي نبقي ، وهو كلام مستأنف. ﴿ما نَشاءُ﴾ أن نقرّه. ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو وقت الوضع ، وأدناه بعد ستة أشهر ، وغالبة تسعة أشهر ، وأقصاه في رأي أهل الخبرة سنة. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ عطفا على ﴿لِنُبَيِّنَ﴾ ، أي نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا. و ﴿طِفْلاً﴾ : حال أجريت على تأويل كل واحد ، أو الدلالة على اسم الجنس فيكون للواحد والجمع. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ أي ثم نعمركم لتبلغوا الكمال في القوة والعقل وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين سنة ، والأشد : كمال القوة والعقل والتمييز ، وهو جمع شدة ، كالأنعام جمع نعمة ، وقال الزمخشري : هو من ألفاظ المجموع التي لم يستعمل لها واحد ، كالأسدة والقتود والأباطيل وغير ذلك.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ يموت قبل بلوغ الأشد. ﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أدناه وأردؤه من الهرم والخرف. ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولة من سخافة العقل وقلة الفهم ، فينسى ما علمه ، وينكر من عرفه. قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة.

والآية استدلال ثان على إمكان البعث بما يعتري الإنسان في أطواره من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة ، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره.

﴿هامِدَةً﴾ يابسة ميتة لا نبات فيها. ﴿اهْتَزَّتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾ ارتفعت وزادت وانتفخت بالماء والنبات. ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي أنبتت من كل صنف حسن رائق. و ﴿مِنَ﴾ : زائدة ﴿ذلِكَ﴾ أي المذكور من بدء خلق الإنسان إلى آخر إحياء الأرض. ﴿بِأَنَّ اللهَ﴾ بسبب أن الله. ﴿هُوَ الْحَقُ﴾ الثابت في نفسه ، الدائم الذي يحق ثبوته ، أي لأن الله هو الحق. ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى﴾ أي أنه يقدر على إحيائها ، وإلا لما أحيى النطفة والأرض الميتة ﴿وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته ، فمن قدر على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها. ﴿لا رَيْبَ فِيها﴾ لا شك. ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف.

المناسبة :

بعد أن حكى الله تعالى عن المشركين الجدل بغير علم في قضية البعث والحشر والنشر ، وذمّهم على ذلك ، أورد تعالى الأدلة على إثبات البعث بخلق الإنسان ، وخلق النبات ، فقال هنا عن الأول : ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ الآية ، وقال في آيات أخرى : ﴿قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس ٣٦ / ٧٩]. ﴿فَسَيَقُولُونَ : مَنْ يُعِيدُنا ، قُلِ : الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء ١٧ / ٥١] وقال عن الثاني : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ..﴾.

التفسير والبيان :

بعد أن ذكر الله تعالى موقف المنكر للبعث ، ذكر الدليل على قدرته على المعاد بما يشاهد من بدئه الخلق ، فقال :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ أي يا أيها البشر المنكرون للبعث ، إن كنتم في شك من إمكان البعث ومجيئه ، يوم القيامة ، فانظروا إلى بدء خلقكم ، فمن قدر على البدء قدر على الإعادة بدليل المراحل والأدوار السبعة التي يمر بها الإنسان وهي :

١ . ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ أي خلقنا أصلكم آدم من التراب ، وخلقنا الأغذية التي يتكون منها المني من النبات المتولد من الماء والتراب.

٢ . ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي ثم صار التوالد المعتاد بواسطة المني المتولد من الغذاء الناشئ من التراب.

٣ . ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي ثم تتحول بإذن الله النطفة بعد أربعين يوما إلى قطعة دم مكثف أو جامد ، أو علقة حمراء.

٤ . ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثم تصبح العلقة قطعة لحم ، وتلك القطعة إما أن تتم منها أحوال الخلق ، فتصير تامة الصورة والحواس والتخطيط لمعالم الجسد ، وإما ألا تتم ، وتسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط أو بعده ، أو تبقى ناقصة الصور والحواس والتخطيطات وتتم ولادتها ، قال الرازي : فيجب أن تحمل ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ على من سيصير إنسانا ؛ لأنه تعالى قال في أول الآية : ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ﴾ وذلك يبعد حمل قوله : ﴿غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ على السقط.

والخلاصة : أن المخلقة هي القطعة المسوّاة التي لا نقص فيها ولا عيب أي التامة الخلقة ، وغير المخلقة : هي القطعة غير المسوّاة التي فيها عيب.

﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي خلقناكم على هذا النحو من التدرج لنبين لكم كمال قدرتنا وحكمتنا ، لتستدلوا بها على إمكان البعث ، فإن من قدر على خلق البشر من تراب أولا ، ثم من نطفة ثانيا . ولا تناسب بين الماء والتراب . وقدر على أن يجعل النطفة علقة . وبينهما تباين ظاهر . ثم يجعل العلقة مضغة ، والمضغة عظاما ، قدر على إعادة ما بدأه ، بل هذا أهون ، كما قال الزمخشري ﷺ تعالى.

٥ . ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا ضعافا في البدن والعقل والحواس ، ثم ينمو كل طفل ويعطيه الله القوة شيئا فشيئا.

٦ . ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ ثم تتكامل قواكم البدنية والعقلية ، حتى تصلوا إلى حد الكمال في عنفوان الشباب.

٧ . ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ...﴾ أي ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشد أو في حال الشباب والقوة ، ومنكم من يعيش حتى يصل إلى سن الشيخوخة والهرم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، والخرف ، حتى يعود إلى ما كان عليه حال الطفولة ، ضعيفا ، سخيف العقل ، قليل الفهم ، ينسى ما كان يعلمه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس ٣٦ / ٦٨]. والخلاصة : أن تدرج الخلق في مراحله المذكورة ، وطروء الموت وعوارض الأحوال على الإنسان دليل قاطع على وجود الخالق القادر المهيمن ، الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه في القياس والعقل ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم ٣٠ / ٥٤].

ثم ذكر الله تعالى الدليل الثاني على إمكان البعث بخلق النبات المشابه لخلق الإنسان فقال :

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً ...﴾ أي وإذا تأملت أيها الإنسان ترى الأرض [١] ميتة يابسة لا نبات فيها ولا زرع ، فإذا أنزلنا عليها ماء المطر أو غيره ، تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وازدادت وارتفعت وانتفخت بالماء والنبات ، ثم

---

(١) خاطب تعالى الناس أولا بصيغة الجمع ، فقال : فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ ثم خاطب بصيغة الواحد ، للتنويع فقال : وَتَرَى الْأَرْضَ فانفصل اللفظ عن اللفظ ، ولكن المعنى متصل ، للاحتجاج به على منكري البعث.

أنبتت من كل صنف من النبات والزرع ، ذي منظر حسن وبهاء ورونق وطيب ريح ، لاختلاف ألوان الثمار والزروع ، وطعومها ، وروائحها ، وأشكالها ، ومنافعها ، فمن قدر على إحياء الأرض الميتة الهامدة التي لا ينبت فيها شيء ، قادر على إحياء الموتى. ونتائج ما ذكر هي الأمور الخمسة التالية :

١ . ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك المذكور الذي بينته لكم من خلق الإنسان والحيوان والنبات ، وانتقال كل مخلوق من حال إلى حال ، بسبب أن الله هو الحق الموجود الثابت الذي لا شك فيه ، ولا يحول ولا يزول ، الخالق المدبر الفعال لما يشاء. وأما ما عداه من جميع المخلوقات فضعيف عاجز لا يقدر على فعل شيء مما ذكر. وهذا دال على وجود الصانع المتفرد بالخلق.

٢ . ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى﴾ أي وبأنه الإله القادر على إحياء الموتى ، كما أحيى الإنسان والحيوان والنبات ، فأنبت من الأرض الميتة ما فيه الحياة ، وهذا تنبيه على أن من لم يعجزه إيجاد هذه الأشياء ، فكيف يعجزه إعادة الأموات؟! ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت ٤١ / ٣٩].

٣ . ﴿وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وبأنه تعالى القادر على كل شيء ، فمن كان قادرا على ما ذكر وعلى جميع الممكنات ، فهو قادر على إعادة الأجساد بعد الفناء ، وعالم بكل المعلومات : ﴿قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس ٣٦ / ٧٩].

٤ . ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها﴾ أي ولتعلموا أن من قدر على إحياء الموتى أو إعادتهم أحياء قادر على الإتيان بيوم القيامة ، فالساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية ، كما وعدكم بها. فقوله : ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾ معطوف على قوله : ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ من حيث اللفظ ، وليس عطفا في المعنى ، فلا بد من إضمار فعل يتضمنه ، أي وليعلموا أن الساعة آتية.

٥ ـ ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي ولتتيقنوا أن الله سيبعث أهل القبور ، أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما ، ويوجدهم مرة أخرى أحياء ، ليوم المحشر والحساب ، والثواب والعقاب.

والخلاصة : أن بيان مراتب خلق الإنسان والحيوان ، والنبات ، دليل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات ، وعالم بكل المعلومات ، مما يثبت كون الإعادة ممكنة ، وأن المعاد مقدور عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

الغاية من التنزيل القراني إثبات ثلاثة أمور أساسية في العقيدة ، وهي توحيد الله ، واتصافه بصفات الكمال ، وتنزيهه عن كل نقص ، وإثبات البعث والحياة الأخروية ، وما فيها من ثواب وعقاب ، وإثبات الوحي والنبوة ورسالات الأنبياء بالمعجزة الخارقة للعادة ، لذا تكرر في القرآن التركيز على هذه الأصول ، وجاءت الآيات هنا للاستدلال على الأمر الثاني.

١ ـ استدل الله سبحانه وتعالى على إمكان حدوث البعث والقيامة وإحياء الموتى بإحياء الإنسان والحيوان والنبات بعد الموت والعدم ، فمن خلق أصل الإنسان من تراب ، ثم من ماء منشؤه الغذاء الناتج من التراب ، ثم رعاه حتى خلقه في أحسن تقويم ، ثم أعاده إلى الضعف ، قادر على إعادة خلقه وإيجاده وتكوينه كما قال : ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس ٣٦ / ٨٢].

ولقد أوضحت السنة أطوار الخلق ، جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه

وأجله وعمله وشقي أو سعيد» وفي رواية : «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين يوما علقة ، ثم أربعين يوما مضغة ، ثم يبعث الملك ، فينفخ فيه الروح» أي إن أطوار الجنين الأولى أربعة أشهر ، قال ابن عباس : وفي العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح ، فذلك عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر.

ويلاحظ أن الخلق والتصوير للملك نسبة مجازية لا حقيقية ، وأن النفخ سبب يخلق الله به الروح والحياة ، وأن الخلق بقدرة الله واختراعه ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف ٧ / ١١]. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر ٤٠ / ٦٤] وللآية هنا : ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ..﴾. وتكون الحياة في المادة المنوية عند التقائها ببويضة المرأة حياة نباتية خلوية.

ولم يختلف العلماء أن نفخ الروح الحركية في الجنين يكون بعد مائة وعشرين يوما ، أي بعد تمام أربعة أشهر ، ودخول الشهر الخامس.

لذا ليست النطفة بشيء يقينا ، كما قال القرطبي ، ولا يتعلق بها حكم إذا ألقتها المرأة إذا لم تجتمع في الرحم ، كما لو كانت في صلب الرجل ، فإذا طرحته علقة ، فقد تحققنا أن النطفة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال وجود الولد ، فيكون وضع العلقة فما فوقها من المضغة وضع حمل ، تبرأ به الرحم ، وتنقضي به العدّة ، ويثبت به لها حكم أم الولد. وهذا مذهب مالك وأصحابه.

وقال الشافعي : لا اعتبار بإسقاط العلقة ، وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط ، أي بإلقاء المضغة المخلقة دون الأربعة أشهر [١]. قال ابن زيد : المخلّقة : التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٢ / ٨

وقال مالك رحمه الله : ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغرّة [١]. وقال الشافعي رضي الله عنه : لا شيء فيه حتى يتبين من خلقه شيء. وقال مالك : إذا سقط الجنين فلم يستهلّ صارخا ففيه الغرّة. فإذا استهل صارخا فقال هو والشافعي فيه الدية كاملة.

وذكر القاضي إسماعيل أن عدة المرأة تنقضي بالسقط الموضوع ؛ لأنه حمل ، والله تعالى يقول : ﴿وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ﴾ [الطلاق ٦٥ / ٤]. وقال ابن العربي : ولا يرتبط به شيء من الأحكام ، إلا أن يكون مخلّقا ؛ لقوله تعالى : ﴿فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ ، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾[٢].

٢ ـ إن في مراحل خلق الإنسان المذكورة لدليلا واضحا وبيانا قاطعا يدل على كمال قدرة الله تعالى.

وفي رعاية الله للإنسان بولادته طفلا ، ثم اكتمال جسده وعقله وقوته في سن الشباب نعمة تستحق الشكر والتقدير وعرفان حق الخالق.

ثم في الرد إلى الشيخوخة والهرم دون خرف أو مع الخرف عبرة وعظة تدل على إطلاق تصرف الله في خلقه ، وكان النبي ﷺ ـ فيما رواه النسائي عن سعد ـ يدعو فيقول : «اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر».

٣ ـ وهناك دليل أقوى على البعث وهو خلق النبات من الأرض الميتة إذا أنزل الله عليها الماء ، فتخرج منه الزروع والثمار ذات المنظر أو اللون الحسن ، وذات الرائحة العبقة ، والطعم الشهي.

---

(١) الغرة : دية الجنين ، وهي ما بلغ عوضه نصف عشر الدية ، أي خمسين دينارا.

(٢) أحكام القرآن : ٣ / ١٢٦١

٤ ـ إن خلق الإنسان والنبات حاصل بالله ، وهو السبب في حصوله ، ولو لاه لم يتصور وجوده ، فإن الله هو الحق ، أي الثابت الموجود ، وأنه قادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور ، وأنه حكيم لا يخلف ميعاده ، وقد وعد الساعة والبعث ، فلا بد أن يفي بما وعد ، وأنه عالم بكل شيء ، وقادر على جمع ذرأت الإنسان المتفرقة في أنحاء الأرض أو قيعان البحار أو أجواف الحيوانات ، أو في أي مكان.

أحوال الناس

الجدال بالباطل والإيمان المضطرب وجزاء المؤمنين الصالحين

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ (٨) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (٩) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (١٤)﴾

الإعراب :

﴿ثانِيَ عِطْفِهِ﴾ حال من ضمير. ﴿يُجادِلُ﴾ عائد على ﴿مِنَ﴾ والإضافة في تقدير أو نية الانفصال ، أي ثانيا عطفه ، ولذلك لم يكتسب التعريف بالإضافة.

﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ من : فيه أربعة أوجه :

الأول ـ أنه منصوب ب ﴿يَدْعُوا﴾ واللام في غير موضعها ، أي يدعو من لضرّه أقرب من نفعه ، فقدمت اللام إلى (من) و ﴿ضَرُّهُ﴾ : مبتدأ ، و ﴿أَقْرَبُ﴾ : خبره. وهذا قول الكوفيين.

والثاني ـ أن مفعول ﴿يَدْعُوا﴾ محذوف ، واللام في موضعها ، أي يدعو إليها أي ﴿لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فمن : مبتدأ ، وخبره : ﴿أَقْرَبُ﴾ والجملة صلة (من). و ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلى﴾ : خبر ثان ل : (من). وهو قول المبرّد.

والثالث ـ أن ﴿يَدْعُوا﴾ بمعنى يقول ، وما بعده : مبتدأ وخبر ، أي يقول لمن ضرّه عندكم أقرب من نفعه هو إلهي ، فخبر المبتدأ محذوف ، أي يقول الكافر : الصنم الذي تعدونه من جملة الضرر : إلهي.

والرابع ـ أن ﴿يَدْعُوا﴾ تكرار للأول ، لطول الكلام ، مثل ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ ... فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ [آل عمران ٣ / ١٨٨].

البلاغة :

﴿ثانِيَ عِطْفِهِ﴾ كناية عن التكبر والخيلاء.

﴿بِما قَدَّمَتْ يَداكَ﴾ مجاز مرسل ، علاقته السببية ؛ لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر.

﴿مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾ استعارة تمثيلية ، شبه المنافقين وما هم فيه من اضطراب في دينهم بمن يقف على طرف هاوية يريد العبادة.

﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ مقابلة بديعة.

﴿يَضُرُّهُ﴾ و ﴿يَنْفَعُهُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿هُدىً﴾ هو النظر الصحيح الموصل إلى المعرفة. ﴿كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ الوحي المظهر للحق.

﴿ثانِيَ عِطْفِهِ﴾ متكبرا عن الإيمان ، معرضا عن القرآن كفرا وتعظما ، ولاويا عنقه ، والعطف : الجانب عن يمين أو شمال. ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي عن دينه ، وليضل : علة للجدال. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ﴾ عذاب وهوان وذل ، فقتل يوم بدر أي أبو جهل المجادل. ﴿عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ أي الإحراق بالنار. ﴿بِما قَدَّمَتْ يَداكَ﴾ عبر بهما دون غيرهما ؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بهما ، وهو وارد بطريق الالتفات ، أو إرادة القول ، أي يقال له يوم القيامة : ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي ليس بذي ظلم لأحد ، فيعذبهم بغير ذنب ، وإنما هو مجازيهم على أعمالهم ، والمبالغة في (ظلام) لكثرة العبيد.

﴿عَلى حَرْفٍ﴾ أي على طرف من الدين لا ثبات له فيه ، وهذا تشبيه حال المنافقين بحال من يقف على حرف جبل في عدم ثباته ، أو كالذي يكون على طرف الجيش ، فإن أحس بظفر قرّ ، وإلا فرّ ، فهو على شك وضعف في العبادة. ﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ﴾ صحة وسلامة في نفسه وماله. ﴿فِتْنَةٌ﴾ محنة ، وسقم في نفسه وماله. ﴿انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ﴾ أي رجع إلى الكفر وارتد. ﴿خَسِرَ الدُّنْيا﴾ ضيعها بفوات ما أمله منها ، وبذهاب عصمته لارتداده. ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ بالكفر وحبوط عمله. ﴿الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ البيّن ، إذ لا خسران مثله.

﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ﴾ أي يقول ، واللام زائدة : إن من ضرره بعبادته أقرب من نفعه ، إن نفع بتخيله ، هو إلهي. والضرر : هو استحقاق القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة ، والنفع : هو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى. ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلى﴾ الناصر أي لبئس هو الناصر. ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ الصاحب هو والمعاشر.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ من الفروض والنوافل. ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحد الصالح ، وإكرام من يطيعه ، وعقاب المشرك ، وإهانة من يعصيه.

سبب النزول :

نزول الآية (٨):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ﴾ نزلت في أبي جهل ، أنذره الله بالخزي (الذل والهوان) في الدنيا ، فقتل يوم بدر ، أو نزلت في النضر بن الحارث الذي قتل أيضا يوم بدر ، ومعظم المفسرين على هذا كالآية الأولى.

نزول الآية (١١):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ﴾ : أخرج البخاري عن ابن عباس قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فيسلم ، فإن ولدت امرأته غلاما ، ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ؛ وإن لم تلد امرأته ولدا ذكرا ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء ، فأنزل الله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾.

وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن مسعود قال : أسلم رجل من اليهود ، فذهب بصره وماله وولده ، فتشاءم بالإسلام ، فقال : لم أصب من ديني هذا خيرا ، ذهب بصري ومالي ، ومات ولدي ، فنزلت : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾ [٣] حال الأتباع الجهال المقلّدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصي والشياطين ، ذكر هنا حال المتبوعين ، الدعاة إلى الكفر والضلال ، رؤساء الشر والابتداع.

وبعد بيان حال هؤلاء المجادلين في توحيد الله بلا حجة ولا برهان صحيح ، أبان تعالى حال المنافقين مضطربي الإيمان ، الذين لم تستقر عقيدتهم ، من جماعة الأعراب القادمين إلى المدينة بقصد المنفعة المادية.

وبعد كشف حال عبادة المنافقين وحال معبوديهم من الأصنام والأوثان ، أوضح الله تعالى صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم ، فعبادة الأولين خطأ غير صواب ، ومعبودهم لا يضر ولا ينفع ، أما عبادة المؤمنين فهي حق وحقيقة ، ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة.

التفسير والبيان :

تضمنت هذه الآيات أحوال ثلاث فئات من الناس ، بعد بيان حال فئة هم الضلّال الجهال المقلدون في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ﴾.

أما الفئة الأولى هنا فهم الدعاة إلى الضلال رؤساء الكفر والبدع ، فقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾ أي وبعض الناس من يجادل في توحيد الله وأفعاله وصفاته ، بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى.

﴿ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي أنه يجادل وهو مستكبر عن الحق وقبوله إذا دعي إليه ، كما قال تعالى حكاية عن قول لقمان لابنه : ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان ٣١ / ١٨] أي تميله عنهم استكبارا عليهم ، وهدفه أو عاقبته صدّ الناس المؤمنين عن دين الله الذي فيه خيرهم. واللام في قوله : ﴿لِيُضِلَ﴾ إما لام العاقبة ؛ لأنه لا يقصد ذلك ، أي ليصير مآله ممن يضل عن سبيل الله ، وإما لام التعليل ، قال الزمخشري : تعليل للمجادلة ، ولما أدّى جداله إلى الضلال ، جعل كأنه غرضه.

ثم ذكر تعالى عقابه ، فقال :

﴿لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ ، وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ أي أن عقابه في الدنيا هو الخزي أي الهوان والذل ، وقد قتل يوم بدر ، وعقابه في الآخرة الزجّ به في عذاب النار المحرقة أو الإحراق في النار.

﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ ، وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي والسبب فيما مني به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة هو ما قدّم من الكفر والمعاصي ، وقد فعل

الله به ذلك عدلا في معاقبته الفجار وإثابته الصالحين ؛ لأن الله لا يظلم عباده. أو يقال له هذا تقريعا وتوبيخا ، كقوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ، إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان ٤٤ / ٤٧ . ٥٠]. ونظير آية العدل : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم ٥٣ / ٣١].

والخلاصة : أن هذا العقاب حق وعدل بسبب جرم الكفر والإثم الفاحش.

وأما الفئة الثانية أهل الضلالة الأشقياء : فهم أهل الشك والنفاق والمصلحة والمنفعة المادية ، وهم : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ ..﴾ أي وبعض الناس يعبد الله على شك وطرف من الدين لا في القلب ، كمن يقف على حافة واد ، أو على طرف الجيش ليفر عند الإحساس بالهزيمة ، فهو مضطرب الإيمان ، غير مطمئن القلب ، غير واثق بهذا الدين ، ولا صادق النية ، ولا مخلص في العبادة ، وهم صنف من المنافقين.

﴿فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ..﴾ أي فإن أصابه خير مادي من غنيمة ومال ، وزيادة نتاج في الولد ونسل الحيوان ، رضي عن هذا الدين. واطمأن إليه. وإن أصابه مرض أو لم تلد امرأته ، ولا ماشيته ، أي أحس بنقص في المال أو الأنفس ، أو هلاك أو جدب في الثمرات والغلات ، ارتد ورجع كافرا ، وهذا هو النفاق بعينه.

﴿خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ، ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ أي ضيع الدنيا والآخرة ، فلا هو حصل من الدنيا على شيء من عز وكرامة وغنيمة ، ولا استفاد من ثواب الآخرة ، لأنه كفر بالله العظيم ، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة ، وذلك هو الخسران البيّن الذي لا خسران مثله ، أو هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة.

وتأكيدا لعظم تلك الخسارة قال تعالى :

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ﴾ أي يعبد من غير الله آلهة من الأصنام والأنداد ، يستغيث بها ، ويستنصرها ، ويسترزقها ، وهي لا تضره إن لم يعبدها ، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها.

﴿ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ أي ذلك الارتداد ، وعبادة تلك الأصنام ، هو الضلال الموغل في الضلالة ، البعيد جدا عن طريق الصواب.

ثم زاد الأمر تأكيدا فقال :

﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ الْمَوْلى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي يدعو (تكرارا للأول) لمن ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن ، لبئس الناصر هو ، ولبئس الصاحب هو. أو يقول الكافر حينما يتحقق من تضرره بعبادته هذا المعبود الخاسر الذي أدخله النار : لبئس هذا المولى والناصر ، ولبئس هذا العشير والصاحب.

وأما الفئة الثالثة : وهم الأبرار السعداء فهم الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ..﴾ أي إن الله تعالى يكافئ المؤمنين الصادقي الإيمان ، الذين عملوا الصالحات ، أي الطاعات والقربات ، وتركوا المنكرات ، بإدخالهم روضات الجنات التي تجري من تحت أشجارها الأنهار.

﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ بإكرام أهل الطاعة وإثابتهم ، وإهانة أهل المعصية وحرمانهم من فضله ، يفعل وفق مراده ومشيئته المطلقة ، فلا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه ، يدخل المؤمنين الجنة ، ويدخل الكافرين النار.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ تكرر نزول الآيات في النضر بن الحارث ، فهو في جداله في الآية المتقدمة [٣] يريد إنكار البعث ، وفي هذه الآية [٨] يريد إنكار النبوة وإنكار نزول القرآن من جهة الله. وقد قيل : نزلت فيه بضع عشرة آية. وكان من قوله : إن الملائكة بنات الله ، وهذا جدال في الله تعالى. ووصف هنا بأنه أعرض عن القرآن والحق ، ولوى عنقه مرحا وتعظما وتكبرا ، وكانت عاقبته أنه يجادل فيضل عن دين الله تعالى.

وعقابه في الدنيا الهوان والذل مما يجري له من الذكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة ، وقتل يوم بدر ، ويغشى في الآخرة نار جهنم ، جزاء وفاقا للكفر والمعصية ، ولا يظلم ربك أحدا. وفيه دليل على أن الله لا يعذب الأطفال بكفر آبائهم.

ودليل أيضا على أن العقاب بسبب عمل الإنسان وفعله ، فإذا عاقبه بغير فعله كان ذلك محض الظلم. وهو على خلاف النص.

٢ ـ يجب أن يكون الإيمان في القلب كالجبال الراسيات ، لا يتأثر بحدوث ضرر ، ولا بزوال نفع ، أما المنافقون الماديون الذين ينتظرون حدوث النفع المادي من مال أو غنيمة ، ويستاءون بما يتعرضون له من نقص في المال والثمرات ، فهم الذين خسروا الدنيا ، فلا حظ لهم في غنيمة ولا ثناء ، وخسروا الآخرة بأن لا ثواب لهم فيها ، بل لهم العقاب الدائم بسبب ردتهم ورجوعهم إلى الكفر.

والراجع إلى الكفر يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ، ويدعو من ضرره أدنى من نفعه في الآخرة ؛ لأنه بعبادته دخل النار ، ولم ير منه نفعا أصلا. أو

يقول الكافر : لمن ضره أقرب من نفعه في قول المسلمين : هو معبودي وإلهي ، لبئس المولى في التناصر ، ولبئس المعاشر والصاحب والخليل.

٣ ـ يثيب الله من يشاء ، ويعذب من يشاء ، فللمؤمنين الجنة بحكم وعده الصدق وبفضله ، وللكافرين النار بما سبق من عدله ، لا أن فعل الرب معلل بفعل العبد.

٤ ـ ما أروع هذه المقارنة والموازنة في الآيات بين حال المشركين وحال المنافقين ، وحال المؤمنين في الآخرة! فالعاقل هو الذي ينحاز آليا لصف الإيمان ليبرأ في عالم الآخرة ، والجاهل الغبي أو المعاند أو المتلاعب هو الذي يبقى في عكر العقيدة ومفاسدها وخبائثها ، فيتلقى جزاءه عدلا ، ولا ظلم في الحساب.

حال اليائس من نصرة الرسول وإنزال الآيات البينات

﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (١٥) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦)﴾

الإعراب :

﴿آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ حال منصوب ، و ﴿بَيِّناتٍ﴾ صفة ، أي ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آيات واضحات.

﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي ..﴾ معطوف على هاء : ﴿أَنْزَلْناهُ﴾.

المفردات اللغوية :

﴿أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ﴾ أي أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي فليمدد حبلا إلى سقف بيته يشده فيه وفي عنقه ، ثم ليختنق به ، بأن يقطع أنفاسه من الأرض ، والمراد : فليستقص في إزالة غيظه أو جزعه ، بأن يفعل كل ما يفعله الممتلئ غضبا أو غيظا ، حتى يمد حبلا إلى سماء بيته ، فيختنق. وليس هذا دعوة إلى الانتحار ، وإنما كما يقول المثل العامي : اشرب البحر ، للدلالة على عدم الفائدة من الفعل.

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ﴾ أي فليتصور في نفسه ، هل يذهبن كيده في عدم نصرة النبي ﷺ غيظه ، والمعنى : فليختنق غيظا منها ، فلا بد منها.

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ﴾ أي مثل إنزالنا الآية السابقة ﴿أَنْزَلْناهُ﴾ أي القرآن الباقي ﴿آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ ظاهرات واضحات ﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ هداه ، أي ولأن الله يهدي به أو يثبّت على الهدى من يريد هدايته أو ثباته ، أنزله كذلك مبينا.

المناسبة :

بعد بيان حال المشركين المجادلين بالباطل ، والمنافقين ، والمؤمنين ، بيّن الله تعالى حال أمرين : هما نصرته رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة ؛ ليبأس المجادلون ، وإنزاله القرآن آيات واضحات ترشد إلى الحق والصواب.

التفسير والبيان :

من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا ﷺ في الدنيا والآخرة ، فليمدد بحبل إلى سقف بيته ، ثم ليختنق به ، ثم ليتأمل ويتصور في نفسه : هل يذهب فعله الذي فعله غيظه من نصرة رسول الله ﷺ ؟ كلا.

وسمي الاختناق قطعا ؛ لأن المختنق يقطع حياته ، وسمي فعله وهو نصب المشنقة كيدا استهزاء ؛ لأنه لم يكد به محسوده ، وإنما كاد به نفسه ، أو لأنه كالكيد ، حيث لم يقدر على غيره.

وقال أبو جعفر النحاس : من أحسن ما قيل في هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا ﷺ ، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه ، فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ، ثم ليقطع النصر إن تهيأ له ، ثم لينظر هل يذهبن كيده وحيلته ما يغيظه من نصر النبي ﷺ؟. والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا ، لم يصل إلى قطع النصر.

وعلى كلا المعنيين ، إن الله ناصر دينه وكتابه ورسوله لا محالة ، فليفعل أهل الغيظ ما شاؤوا.

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال للآية المتقدمة أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على معانيها ، ليتعظ بها المعتبر.

﴿وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي ولأن الله يهدي به ويوفق الذين يعلم أنهم يؤمنون ، ومستعدون للإيمان بما أنزل ، ويريد الله هدايتهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى على حسم الموقف بين النبي ﷺ وبين معاديه ، فالله تعالى لا محالة ناصر رسوله ، ومؤيد دينه وكتابه ودعوته ، ومحبط مكائد الأعادي ، وقاطع أطماعهم ، ورادّ كيدهم في نحورهم ، فلا أمل لهم بعدئذ في إحباط دعوة الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف ٦١ / ٩] وقال سبحانه : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١].

والله تعالى أيضا مؤيد رسوله ﷺ بوحيه ، وبما أنزله عليه من الآيات البينات الواضحات ، ليفهمها الناس ، أي القرآن ، وكذلك ﴿أَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ قال القرطبي : علق وجود الهداية بإرادته ، فهو الهادي لا هادي سواه.

وقال الزمخشري والبيضاوي : ولأن الله يهدي به الذين يعلم أنهم مؤمنون ، أو يثبّت الذين آمنوا على الهدى.

الفصل الإلهي بين الأمم وخضوع كل ما في الكون لعزة الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (١٨)﴾

الإعراب :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الخبر : إما محذوف ، وإما قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ لأنها فيها معنى الجزاء ، فحمل الخبر على المعنى.

﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ إما معطوف على ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى : ﴿يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ﴾ لأن السجود بمعنى الانقياد ، وكل مخلوق منقاد تحت قدرة الله تعالى ، وإما مبتدأ وخبره : إما ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي من الناس الذين هم الناس على الحقيقة ، وهم الصالحون المتقون ، وإما محذوف ، وهو مثاب ، أي وكثير من الناس ثبت له الثواب ، دل عليه خبر مقابله وهو قوله : ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾.

البلاغة :

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَالَّذِينَ هادُوا﴾ هم اليهود ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ هم فرقة بين اليهود والنصارى ، أو قوم يعبدون الملائكة ، ويقرءون الزبور ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ أتباع المتنبئ ، قوم يعبدون الشمس والقمر والنار ويقولون : إن هناك إلهين اثنين للخير والشر وهما النور والظلمة. ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ عبدة الأصنام والأوثان ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ يقضي بينهم لإظهار المحق من المبطل ، فيدخل المؤمنين الجنة ، ويدخل غيرهم النار ﴿عَلى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عملهم ﴿شَهِيدٌ﴾ عالم به علم مشاهدة ، مراقب لما يتعلق به.

﴿يَسْجُدُ لَهُ﴾ يخضع له بما يراد منه ، وهو السجود بالتسخير والانقياد لإرادته تعالى ، وهناك سجود بالاختيار خاص بالإنسان. ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة ، فهو فاعل فعل مضمر ، أو هو مبتدأ دل عليه قسيمه المقابل له بعده ، وخبره : حق له الثواب ، وهم المؤمنون بما هو أكثر من الخضوع في سجود الصلاة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ﴾ أي وكثير منهم ثبت له العذاب ، وهم الكافرون ؛ لأنهم أبوا السجود والخضوع لله بشرط الإيمان ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ أي ومن يجعله شقيا لما علم منه من اكتساب الشقاوة فما له أحد يكرمه ويسعده ﴿إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ﴾ من الإهانة والإكرام.

المناسبة :

هناك ارتباط عام وارتباط خاص بين هذه الآيات وما قبلها ، أما الارتباط العام : فبعد أن ذكر تعالى أحوال المشركين والمنافقين والمؤمنين ، أبان هنا أن الله يقضي بينهم جميعا ليبين المحق من المبطل ، وأما الارتباط الخاص ، فبعد أن ذكر تعالى في الآية السابقة ﴿أَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أتبعه في الآية الأولى ببيان من يهديه ومن لا يهديه.

ثم أردفه في الآية الثانية ببيان أنه ما كان ينبغي لأهل الأديان المختلفة أن يختلفوا ؛ لأن جميع العوالم خاضعة لسلطانه وقدرته ، وساجدة لعظمته طوعا أو كرها.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا ...﴾ إن الله تعالى يقضي بين أهل الأديان المختلفة من المؤمنين بالله ورسله ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والمشركين الذين يعبدون مع الله غيره ، ويحكم بينهم بالعدل ، فيدخل من آمن به الجنة ، ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أعمالهم ، حفيظ لأقوالهم وأفعالهم ، عليم بسرائرهم ، وما تكنّ ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ ...﴾ أي ألم تعلم أن الله تعالى يخضع ويسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرها ، وسجود كل شيء بما يختص به ، فيسجد له من في السموات : وهو الملائكة ، ومن في الأرض وهم الإنس والجن ، والشمس والقمر والنجوم من العوالم العلوية ، والشجر والدوابّ (الحيوانات كلها) من العالم السفلي ، وكثير من الناس حقّ له الثواب أو يسجد لله طوعا مختارا متعبدا بذلك ، أي ثبت وتقرر ، وكثير حق عليه العقاب ، ممن امتنع وأبى واستكبر. وقد نص على هذه الأشياء ؛ لأنها قد عبدت من دون الله ، فأبان تعالى أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة منقادة لله تعالى.

ومن يهنه الله فيشقيه ، أو من يهنه بالشقاء والكفر لسوء استعداده للإيمان ، لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ، ولا يسعده أحد ؛ لأن الأمر بيده تعالى ، يوفق من يشاء ويخذل من يريد.

إن الله تعالى يفعل في عباده ما يشاء من الإهانة والإكرام ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه.

ونظير الآية كثير ، مثل : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ ، عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمائِلِ ، سُجَّداً لِلَّهِ ، وَهُمْ داخِرُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٤٨].

ومثل ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ١٧ / ٤٤].

وأما إطلاق المشيئة لله تعالى فيوضحه ما رواه ابن أبي حاتم عن علي : أنه قيل لعلي : «إن هاهنا رجلا يتكلم في المشيئة ، فقال له علي : يا عبد الله ، خلقك الله كما يشاء ، أو كما شئت؟ قال : بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : والله ، لو قلت غير ذلك ، لضربت الذي فيه عيناك بالسيف» [(١)].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية الأولى على أن الله تعالى يقضي بالعدل بين أهل الأديان المختلفة ، وهم المؤمنون بالله وبرسوله ﷺ ، واليهود : وهم المنتسبون إلى ملة موسى عليه السلام ، والصابئون : وهم قوم يعبدون النجوم ، والنصارى : وهم المنتسبون إلى ملة عيسى ، والمجوس : وهم عبدة النيران القائلون بأن للعالم أصلين : نور وظلمة ، والمشركون : وهم العرب ونحوهم عبدة الأوثان. هذه الفرق الست : خمسة منها للشيطان ، وواحدة منها للرحمن. وإنه تعالى يقضي ويحكم بينهم ، فللكافرين النار ، وللمؤمنين الجنة ، إن الله تعالى شهيد على أعمال خلقه وحركاتهم وأقوالهم.

ودلت الآية الثانية على أن القلب والعقل يرى أن جميع ما في العوالم العلوية والسفلية من الكواكب والجمادات والنباتات والإنسان والحيوان يسجد لله تعالى سجود تذلل وانقياد لتدبير الله عزوجل في جميع الأحوال من ضعف وقوة ، وصحة وسقم ، وحسن وقبح ، وسجود خضوع لعظمته وسلطانه وجبروته.

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٢١١

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة ، اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود ، فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت ، فلي النار».

ومن أهانه الله بالشقاء والكفر لسوء استعداده لا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ، والذين حق عليهم العذاب ، ليس لهم أحد يقدر على إزالة ذلك الهوان عنهم ، فيكون مكرما لهم.

وإن الله تعالى هو الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب. والمراد من بيان إطلاق المشيئة لله أن مصير الكافرين إلى النار فلا اعتراض لأحد عليه.

جزاء الكافرين والمؤمنين

﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾

الإعراب :

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ﴾ : حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ أو خبر ثان.

﴿يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ : ﴿ما﴾ : نائب فاعل ، ﴿وَالْجُلُودُ﴾ : معطوف عليه ، وهاء ﴿بِهِ﴾ عائدة على ﴿الْحَمِيمُ﴾. والجملة : حال من ﴿الْحَمِيمُ﴾ أو من ضمير «هم».

﴿مِنْ غَمٍ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه بدل من قوله : ﴿مِنْها﴾ أي : كلما أرادوا أن يخرجوا من غم أعيدوا فيها.

﴿وَذُوقُوا عَذابَ﴾ على حذف القول ، أي : ويقال لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، وهذا كثير في كلام العرب.

﴿مِنْ أَساوِرَ﴾ صفة مفعول محذوف.

﴿وَلُؤْلُؤاً﴾ إما منصوب بتقدير فعل ، أي ويعطون لؤلؤا ، لدلالة ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ عليه في أول الكلام. وإما معطوف على موضع الجار والمجرور من قوله : ﴿مِنْ أَساوِرَ﴾ كأن يقال : مررت بزيد وعمرا. وعلى قراءة الجر يكون معطوفا على ﴿أَساوِرَ﴾ أو على الذهب بأن يرصع اللؤلؤ بالذهب.

البلاغة :

﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في دين ربهم ، فهو على حذف مضاف. وقوله : ﴿هذانِ﴾ للفظ ، و ﴿اخْتَصَمُوا﴾ للمعنى.

﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كإحاطة الثوب بلابسه.

المفردات اللغوية :

﴿هذانِ خَصْمانِ﴾ الخصم : من يعارض غيره في الرأي. وقد وصف به الفريق أو الفوج ، فكأنه قيل : هذان فوجان أو فريقان مختصمان متنازعان ، وقوله : ﴿هذانِ﴾ للفظ ، و ﴿اخْتَصَمُوا﴾ للمعنى ، والمراد بهما : المؤمنون والكافرون. والخصم : يطلق على الواحد والجماعة. ﴿اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أي في دينه أو في ذاته وصفاته ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ﴾ أي قدّرت لهم ثياب يلبسونها ، والمراد : نيران تحيط بهم إحاطة الثياب ﴿الْحَمِيمُ﴾ الماء البالغ نهاية الحرارة ﴿يُصْهَرُ بِهِ﴾ يذاب ﴿ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أي يؤثر من فرط حرارته في باطنهم تأثيره في ظاهرهم ، فيذاب به

أحشاؤهم ، كما يذاب أو يشوى به جلودهم ﴿مَقَامِعُ﴾ مضارب أو سياط حديد يجلدون بها ، جمع مقمعة.

﴿أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها﴾ أي من النار ﴿مِنْ غَمٍ﴾ حزن شديد يلحقهم بها ﴿أُعِيدُوا فِيها﴾ ردوا إليها بالمقامع ﴿ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ أي ويقال لهم : ذوقوا العذاب البالغ نهاية الإحراق ، أو العذاب المحرق.

﴿مِنْ أَساوِرَ﴾ جمع أسورة ، وهي جمع سوار ، أي فالأساور جمع الجمع ، وهي حلية تلبسها النساء في معاصمها ﴿وَلُؤْلُؤاً﴾ هو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف ﴿حَرِيرٌ﴾ هو المحرم لبسه على الرجال في الدنيا. ﴿وَهُدُوا﴾ أرشدوا ﴿إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، أو هو قولهم : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧٤] أو كلام أهل الجنة مع بعضهم بعضا ﴿صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ أي الطريق المحمود ، وهو الإسلام أو طريق الجنة ، أو آداب المعاشرة والاجتماع. والأصح أنه طريق الله الحميد أي المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة.

سبب النزول :

نزول الآية (١٩):

﴿هذانِ خَصْمانِ﴾ : أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي ذر قال : نزلت هذه الآية : ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ في حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب ، وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة. أي الفريقين اللذين قاما بالمبارزة في بداية معركة بدر.

وأخرج الحاكم عن علي قال : فينا نزلت هذه الآية ، وفي مبارزتنا يوم بدر : ﴿هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله : ﴿الْحَرِيقِ﴾.

وأخرج الحاكم من وجه آخر عن علي قال : نزلت في الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : أنها نزلت في أهل الكتاب قالوا

للمؤمنين : نحن أولى بالله منكم ، وأقدم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم ، فقال المؤمنون : نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد وبنبيكم ، وبما أنزل الله من كتاب.

المناسبة :

بعد بيان أهل الفرق الستة وقضاء الله بينهم بالعدل ، ذكر هنا تصنيفهم إلى فريقين : فريق الإيمان ، وفريق الكفر ، ثم محاورتهم فيما بينهم في الأهدى طريقا ، ومآل كل من الفريقين إلى الجحيم أو إلى النعيم.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن خصومة فريقين اختصموا في دين الله وذاته وصفاته فيقول : ﴿**هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ**﴾ أي إن أهل الأديان المختلفة الستة المتقدم بيانهم هم فريقان متميزان : فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين الذين هم أتباع الديانات الخمس المتقدمة ، تنازعوا وتجادلوا في شأن ربهم وفي دينه ، وكل منهم يعتقد أنه على حق ، وأن خصمه على الباطل ويبني على أساس ذلك جهاده وسلوكه وفكره.

والحق أن مصير الفريقين واضح ، أما الفريق الأول وهم الكافرون فجزاؤهم : ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ**﴾ أي فالكافرون تحيط بهم النار إحاطة شاملة ، وقد مثّل ذلك بأنه فصلت لهم مقطعات من نار تحيط بهم كإحاطة الثوب بلابسه ، مما يومئ بشدة عذابهم واحتقار شأنهم ، كما قال تعالى : ﴿**لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ ، وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ**﴾ [الأعراف ٧ / ٤١] وقال سبحانه : ﴿**سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ ، وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ**﴾ [إبراهيم ١٤ / ٥٠].

﴿**يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ**﴾ أي يصب على رؤوسهم الماء البالغ درجة الغليان الذي يذيب ما في بطونهم من أحشاء ، ويشوي جلودهم ، فيحرق الباطن والظاهر.

روى ابن جرير والترمذي وابن أبي حاتم وعبد بن حميد عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال : «إن الحميم ليصبّ على رؤوسهم ، فينفذ الجمجمة ، حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه ، حتى يبلغ قدميه ، وهو الصّهر ، ثم يعاد كما كان».

﴿وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي لهم مضارب أو سياط من حديد ، يضربون بها على وجوههم ورؤوسهم وأعضائهم وأجسادهم. أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : «لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض ، فاجتمع له الثقلان ، ما أقاموه من الأرض». وأخرج عن أبي سعيد أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : «لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ، ثم عاد كما كان ، ولو أن دلوا من غسّاق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا».

﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ ...﴾ أي كلما حاولوا الهرب من جهنم بسبب شدة العذاب والغم ، أي الحزن الشديد ، أعيدوا فيها كما كانوا ، ويقال لهم : ذوقوا العذاب المحرق ، وعذاب هذه النار المحرقة. قال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها ، وتردهم مقامعها.

وقوله : ﴿وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة ٣٢ / ٢٠] ومعنى الكلام : أنهم يهانون بالعذاب قولا وعملا.

وبعد بيان سوء حال الكافرين وما هم فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال ، ذكر تعالى حسن أهل الجنة ، فقال :

﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ..﴾ أي إن الله يدخل المؤمنين الذين يعملون الصالحات أي الطاعات والقربات ، ويتجنبون المنكرات

جنات عالية رفيعة تجري الأنهار من تحت أشجارها وجوانبها وقصورها ، يوجهونها حيث أرادوا.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ أي وحليتهم التي يلبسونها أساور الذهب في أيديهم أو تكون مرصعة باللؤلؤ ، ويؤتون لؤلؤا يزينون به هاماتهم ورؤوسهم ، كما قال النبيﷺ في الحديث المتفق عليه : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» واللؤلؤ كما تقدم : هو ما يستخرج من البحر من جوف الصّدف.

﴿وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ أي ويرتدون الحرير الذي كان محرما لباسه على الرجال في الدنيا ، في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، ويؤكدها آية أخرى : ﴿وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٣].

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي أرشدوا إلى القول الطيب ، وهو كلمة التوحيد أو قوله تعالى حين دخول الجنة : ﴿وَقالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧٤]. أو إلى تحية الملائكة لهم بالسلام ، وهذا في مقابل أهل النار الذين يقرعون ويوبخون ويقال لهم : ﴿ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ﴾ أي وأرشدوا إلى الطريق المحمود أو إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على نعمه وأفضاله ، أو إلى السلوك الحسن المرضي ربهم في أقوالهم وأفعالهم ، والأصح : إلى طريق الله الحميد أي المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه حال المؤمنين وحال الكافرين في الآخرة ، أما الكافرون من الفرق الخمس الذين تقدم ذكرهم ، فخيطت وسويت لهم ثياب شاملة من نار ، أي أنها

تحيط بهم إحاطة كاملة ، ويصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ، يذيب أحشاء بطونهم وشحومها ، ويشوي الجلود أو يحرقها ، فإن الجلود لا تذاب ، فيضم في كل شيء ما يليق به ، ويضربون ويدفعون بمضارب ثقيلة من حديد.

وإذا حاولوا الخروج من النار حين تفور بهم ، فتلقي من فيها إلى أعلى أبوابها ، فتعيدهم خزنة النار إليها بالمقامع ، ويقولون لهم : ﴿ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ أي المحرق. والذوق : مماسّة يحصل معها إدراك الطعم ، والمراد به إدراكهم الألم.

وأما المؤمنون فلهم ألوان عديدة من النعم ، منها أنهم يحلون بأساور الذهب ، ويحلون لؤلؤا يزينون به تيجانهم ، قال القشيري : والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ ، ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مصمت ، أي الذي لا يخالطه غيره. قال القرطبي : وهو ظاهر القرآن ونصه.

وجميع ما يلبسونه وينتفعون به من فرشهم ولباسهم وستورهم حرير ، وهو أعلى مما في الدنيا بكثير.

وأرشدوا إلى طيب القول ، قال ابن عباس يريد لا إله إلا الله ، والحمد لله ، كما أرشدوا إلى صراط الله وهو في الدنيا دينه وهو الإسلام ، وفي الآخرة الطيب من القول : وهو الحمد لله ؛ لأنهم يقولون غدا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا﴾ [الأعراف ٧ / ٤٣] ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٤] ؛ فليس في الجنة لغو ولا كذب ، فما يقولونه فهو طيّب القول. وقد هدوا في الجنة إلى صراط الله وهو الإسلام أو إلى طريق الجنة ، إذ ليس في الجنة شيء من مخالفة أمر الله وقيل : الطيب من القول : ما يأتيهم من الله من البشارات الحسنة.

أما في الدنيا فالحرير والذهب محرم استعمالهما حلية على الرجال ، حلال للنساء ، أما الانتفاع بآنية الذهب والفضة كالأكل والشرب فهو حرام مطلقا على

الرجال والنساء. روى النسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «من لبس الحرير في الدنيا ، لم يلبسه في الآخرة ، ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ، ومن شرب في آنية الذهب والفضة ، لم يشرب فيها في الآخرة». ثم قال رسول الله ﷺ : «لباس أهل الجنة وشراب أهل الجنة ، وآنية أهل الجنة».

والحرمان من ذلك : إنما هو في حال عدم وجود التوبة ، بدليل حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : «من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة».

فإذا لم تحدث التوبة ، فيحرم مما ذكر عملا بظاهر الحديث ، وإن دخل الجنة ، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ، ولم يلبسه هو». وكذلك «من شرب الخمر ولم يتب» و «من استعمل آنية الذهب والفضة» وليس ذلك بعقوبة ؛ لأن الجنة ليست بدار عقوبة ، ولا مؤاخذة فيها بوجه [١].

المنع من المسجد الحرام

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾

---

(١) تفسير القرطبي : ١٢ / ٣٠

الإعراب :

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الواو : إما واو عطف أو واو حال ، فإن كانت للعطف عطف المضارع على الماضي حملا على المعنى ، على تقدير : إن الكافرين والصادّين. وإن كانت للحال ، كان تقديره : إن الذين كفروا صادّين عن سبيل الله. وخبر ﴿إِنَ﴾ مقدّر ، أي معذّبون. والأصح هو الأول ، قال البيضاوي : لا يريد به حالا ولا استقبالا ، وإنما يريد استمرار الصدّ منهم ، كقولهم : فلان يعطي ويمنع ، ولذلك حسن عطفه على الماضي. وهذا مثل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد ١٣ / ٢٨].

﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ الْعاكِفُ﴾ : مبتدأ ، ﴿وَالْبادِ﴾ : عطف عليه ، وسواء على قراءة الرفع : خبر مقدم. وعلى قراءة النصب : منصوب على المصدر ، على تقدير : سوّينا ، أو على الحال من هاء ﴿جَعَلْناهُ﴾ وهو عامل فيه ، ورفع ﴿الْعاكِفُ﴾ به.

﴿بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان ، ومفعول ﴿يُرِدْ﴾ : متروك ليتناول كل متناول كما قال الزمخشري ، وهو الأولى كما قال الرازي.

البلاغة :

﴿الْعاكِفُ﴾ و ﴿الْبادِ﴾ بينهما طباق ، إذ العاكف : المقيم في المدينة ، والباد : المقيم في البادية.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي ويمنعون عن دين الله وطاعته. والصد : المنع ، والفعل يفيد استمرار المنع ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ مكة ﴿الَّذِي جَعَلْناهُ﴾ منسكا ومعبدا ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ﴾ أي تساوى فيه المقيم الملازم والطارئ من البادية ﴿بِإِلْحادٍ﴾ عدول عن القصد والاستقامة ، والباء زائدة للتأكيد ، أي إلحادا مثل ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٢٠] ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حق ، أي بسببه ، بأن ارتكب منهيا ، ولو شتم الخادم ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يتلقى بعض العذاب المؤلم ، وهو جواب الشرط لمن يرد ، ويفهم خبر ﴿إِنَ﴾ من قوله ﴿نُذِقْهُ﴾ أي نذيقهم من عذاب أليم.

سبب النزول :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب

وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام ، وقد كره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم ، وكان محرما بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود في العام المقبل.

وقوله : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ : روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : بعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس مع رجلين : أحدهما مهاجر ، والآخر من الأنصار ، فافتخروا في الأنساب ، فغضب عبد الله بن أنيس ، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام ، وهرب إلى مكة ، فنزلت فيه : ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ الآية.

المناسبة :

بعد بيان مآل الكفار والمؤمنين ، عظم الله تعالى حرمة البيت الحرام ، وعظم كفر المشركين الصادين عن الدخول إليه لأداء المناسك ، مع ادعائهم أنهم حماته.

التفسير والبيان :

إن الذين كفروا بالله ورسوله ، وهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله وعن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في الأمر نفسه ، فهم يمنعونهم من الدخول إليه ، مع أن الله تعالى جعله للناس جميعا لصلاتهم وعبادتهم ، وطوافهم وأداء مناسكهم ، يستوي في شأنه المقيم منهم فيه والطارئ عليه النائي عنه ، من أهل البوادي وغيرهم.

ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد والاستقامة ، ظالما ، أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار ، عامدا قاصدا أنه ظلم غير متأول ، وهو التعمد ، نذقه يوم القيامة من العذاب المؤلم.

قال مجاهد : ﴿بِظُلْمٍ﴾ : يعمل فيه عملا سيئا. وقال ابن أبي حاتم : وهذا

من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي في الشر إذا كان عازما عليه ، وإن لم يوقعه. وروى ابن أبي حاتم عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال : «احتكار الطعام بمكة إلحاد». وهذا بعض أمثلة الظلم ، فإن هذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر ، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه ، ومن نوى سيئة ، ولم يعملها ، لم يحاسب عليها إلا في مكة.

والخلاصة : أن الآية عامة تشمل كل أنواع المعصية ، ويختص الحرم بعقوبة من همّ فيه بسيئة وإن لم يعملها ، كما أن الله تعالى جعل الحرم مفتوحا ومنسكا لكل الناس ، أي الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد ، ومقيم وطارئ ، ومكي وآفاقي.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١ ـ حرية العبادة في الحرم المكي لجميع الناس ، من أهل مكة وغيرهم ، وهذا يومئ إلى أن من يمنع الناس من حج بيت الله الحرام ، يكون من الذين كفروا ؛ لأن الله تعالى ذكر فريضة الحج عقب هذه الآية.

٢ ـ كل من يرتكب معصية في مكة عدوانا وظلما ، أو يعزم فيه على الشر ، وإن لم يفعله ، له يوم القيامة عذاب مؤلم شديد الألم أي فيعاقب الإنسان على ما ينويه من المعاصي بمكة ، وإن لم يعمله. قال الإمام أحمد : أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير ، فقال : يا ابن الزبير : إياك والإلحاد في حرم الله ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنه سيلحد فيه رجل من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت».

وقد استدل الحنفية بالآية على امتناع جواز بيع دور مكة وإجارتها ، قائلين بأن المراد بالمسجد الحرام مكة ، ومستدلين بما رواه ابن ماجه والدارقطني

عن علقمة بن نضلة قال : توفي رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب ، من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن. وقال عبد الله بن عمرو . فيما رواه عنه عبد الرزاق : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها ، وقال : «من أكل من أجر بيوت مكة شيئا ، فإنما يأكل نارا». وروى عبد الرزاق أيضا عن ابن جريج قال : كان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم.

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر ، لحديث أسامة بن زيد في الصحيحين قال : قلت : يا رسول الله ، أتنزل غدا في دارك بمكة؟ فقال : «وهل ترك لنا عقيل من رباع»؟ وقال فيما رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن أسامة : «لا يرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر» وثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة ، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم.

وتوسط الإمام أحمد فقال : تملك وتورث ، ولا تؤجر ، جمعا بين الأدلة.

ومنشأ الخلاف : كيفية فتح مكة ، هل كان فتحها عنوة؟ فتكون مغنومة ، لكن النبي ﷺ لم يقسمها وأقرها لأهلها ، ولمن جاء بعدهم ؛ كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض سواد العراق ، فتبقى على ذلك لا تباع ولا تكرى ، ومن سبق إلى موضع كان أولى به. وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والأوزاعي.

أو هل كان فتحها صلحا؟ وإليه ذهب الشافعي ، فتبقى ديارهم بأيديهم ، ويتصرفون في أملاكهم كيف شاؤوا ، واستدل بقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٠] فأضافها إليهم. وقال ﷺ يوم فتح مكة فيما رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة : «من أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن».

ويلاحظ أنه لم يؤاخذ الله تعالى أحدا على الهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ﴾ لأنه مكان تطهير النفس والتوبة والنقاء والتخلص من الذنوب بالكلية لله عز وجل .

تعيين مكان البيت الحرام والأمر بالحج إليه

﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ﴾ اللام : إما زائدة ؛ لأن ﴿بَوَّأْنا﴾ يتعدى إلى مفعولين ، فإبراهيم هو المفعول الأول ، و ﴿مَكانَ﴾ : هو المفعول الثاني ، وإما ألا تكون زائدة ، ويكون ﴿بَوَّأْنا﴾ محمولا على معنى (جعلنا) فكأنه قال : جعلنا لإبراهيم مكان البيت : ظرف ، والمفعول محذوف ، تقديره : بوأنا لإبراهيم مكان البيت منزلا.

﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي﴾ أن : إما مخففة من الثقيلة في موضع نصب ، أي بأنه لا تشرك بي ، وإما مفسّرة بمعنى «أي» وإما زائدة.

﴿يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ رِجالاً﴾ : حال منصوب من واو ﴿يَأْتُوكَ﴾. و ﴿عَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ : جارّ ومجرور في موضع نصب على الحال ، أي يأتوك رجالا وركبانا. و ﴿يَأْتِينَ﴾ : يعود إلى معنى ﴿كُلِ﴾ وفعل غير العقلاء كفعل المؤنث ، ودلت ﴿كُلِ﴾ على العموم ، فأتى الخبر على المعنى.

﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ ذلِكَ﴾ : إما مجرور صفة للبيت العتيق ، وإما مرفوع خبر مبتدأ

محذوف ، أي الأمر ذلك ، مثل قوله تعالى : ﴿ذلِكَ ، وَمَنْ عاقَبَ﴾ [الحج ٢٢ / ٦٠] أي الأمر ذلك.

البلاغة :

عميق عتيق سحيق أي في الآية التالية سجع مستحسن في علم البديع.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنا﴾ أي واذكر إذ عيناه وبيناه ﴿مَكانَ الْبَيْتِ﴾ أي الكعبة ليبنيه ، وكان قد رفع من زمن الطوفان في عهد نوح ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي فيه ﴿وَالْقائِمِينَ﴾ المقيمين به ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلين ، جمع راكع وساجد.

﴿وَأَذِّنْ﴾ ناد بالحج ، أي بالدعوة إليه ، فنادى على جبل أبي قبيس : يا أيها الناس ، إن ربكم بنى بيتا ، وأوجب عليكم الحج إليه ، فأجيبوا ربكم. والتفت بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا ، فأجابه كل من كتب له أن يحج من أصلاب الرجال وأرحام الأمهات : لبيك اللهم لبيك. ﴿يَأْتُوكَ رِجالاً﴾ أي راجلين ماشين على الأقدام ، جمع راجل ، كتاجر وتجار وقائم وقيام ، و ﴿يَأْتُوكَ﴾ : جواب الأمر ﴿وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ أي وركبانا على كل بعير مهزول ، بأن أتعبه بعد السفر فهزل. والضامر : يطلق على الذكر والأنثى ﴿يَأْتِينَ﴾ اي الضوامر ، أتى به جمعا حملا على المعنى ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي طريق بعيد.

﴿لِيَشْهَدُوا﴾ ليحضروا ﴿مَنافِعَ لَهُمْ﴾ منافع دينية في الآخرة ، ودنيوية بالتجارة ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة ، أو يوم عرفة أو يوم النحر إلى آخر أيام التشريق . أيام عيد الأضحى ﴿بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ الإبل والبقر والغنم التي تنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ من لحومها ، أباح ذلك خلافا لما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه ، وهذا في المتطوع به ، المستحب ، دون الواجب ﴿الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي الذي أصابه بؤس أي شدة ، والفقير : المحتاج ، والأمر فيه للوجوب.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي يزيلوا أو ساخهم وشعثهم كطول الظفر والشعر ، ونتف الإبط ، والمراد هنا : قص الأشعار وتقليم الأظفار. ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون به من البر في حجهم ، ومن الهدايا والضحايا. والنذر : كل ما لزم الإنسان أو التزمه. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي يطوفوا طواف الركن الذي به تمام التحلل أي طواف الإفاضة ، فإنه قرينة قضاء التفث ، وقيل : طواف الوداع. والعتيق : القديم ؛ لأنه أول بيت وضع للناس.

سبب النزول :

نزول الآية (٢٧):

﴿وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ : أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : كانوا لا يركبون ، فأنزل الله : ﴿يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ فأمرهم بالزاد ، ورخص لهم في الركوب والمتجر.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى موقف المشركين من الصد عن المسجد الحرام ، أراد تعالى بيان مكانة البيت الحرام وتوبيخ أولئك المشركين على فعلهم ، فإن أباهم إبراهيم عليه السلام هو الذي بناه ، وأمر بتطهيره للطائفين والمصلين ، وأن يدعو الناس إلى الحج ، للحصول على المنافع الدينية والدنيوية.

التفسير والبيان :

﴿وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ ..﴾ أي واذكر يا محمد للناس وقت أن جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة ، أي مرجعا يرجع إليه للعبادة ، وأرشده إليه وأذن له في بنائه. والمراد بذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من حادث عظيم ، ليتذكر المشركون ، ويقلعوا عن عبادة الأوثان إلى عبادة الله الواحد الديان.

وفي هذا تقريع وتوبيخ لمن أشرك بالله في بقعة أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

وفيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وأنه لم يبن قبله بعد رفعه وطمس معالمه في أثناء طوفان نوح عليه السلام ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذرّ قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول؟ قال : «المسجد الحرام» قلت : ثم أي؟ قال : «بيت المقدس» قلت : كم بينهما؟

قال : «أربعون سنة». وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً﴾ الآيتين [آل عمران ٣ / ٩٦ ـ ٩٧] وقال تعالى : ﴿وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٥].

﴿أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ ..﴾ أي وقلنا له : ابنه على اسمي وحدي ، ولا تشرك بي شيئا من خلقي في العبادة ، وطهّر بيتي من الشرك والأوثان والأصنام والأقذار أن تطرح حوله ، واجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به يخص العبادة بالله تعالى ، لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ، والقائم في الصلاة أو الدعاء لله ، والراكع الساجد لله تعالى فيها. وقد قرن الطواف بالصلاة ؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه ، فالقائمون : هم المصلون ، وذكر تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهو القيام والركوع والسجود.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ ..﴾ أي ناد في الناس بالحج ، داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه ، يأتوك راجلين ماشين ، وراكبين على كل بعير ضامر مهزول ، من كل طريق بعيد. والأذان والتأذين : الاعلام برفع الصوت على نحو ما يكون للصلاة. والمراد هنا : النداء في الناس بأن الله قد كتب عليهم الحج ودعاهم إلى أدائه.

روي أنه لما أمر إبراهيم عليه السلام بالأذان للحج قال : يا ربّ ، وما يبلغ صوتي؟ قال : أذّن وعليّ الإبلاغ ، فصعد إبراهيم خليل الله جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس ، إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ، ليثيبكم به الجنة ، ويجيركم من عذاب النار ، فحجّوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، لبّيك اللهم لبّيك [١]. وهذا معجزة خارقة للعادة ، فهو سبحانه قادر على إيصال صوت إبراهيم إلى من يشاء في أنحاء الأرض والسماء.

---

(١) تفسير القرطبي : ١٢ / ٣٨ ، وسيأتي تخريج الرواية.

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم حيث قال في دعائه : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٣٧]. فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحنّ إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

وقد يستدل بقوله : ﴿رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ على أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبا ؛ لأنه قدّمهم في الذّكر ، فدل على الاهتمام بهم ، وقوة هممهم ، وشدة عزمهم. قال ابن عباس : ما آسى على شيء فاتني ، إلا أني وددت أني كنت حججت ماشيا ؛ لأن الله يقول : ﴿يَأْتُوكَ رِجالاً﴾[1].

والذي عليه أكثر العلماء أن الحج راكبا أفضل ، اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه حجّ راكبا ، مع كمال قوته ﷺ.

وإنما قال : ﴿يَأْتُوكَ﴾ مع أن الإتيان للبيت الحرام ، إشارة إلى أنه الداعي والقدوة لهم بعد ، وفيه تشريف إبراهيم.

ثم أبان تعالى سبب النداء إلى الحج وحكمته فقال :

﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ ..﴾ أي أدعهم إلى الحج ليحضروا منافع لهم دينية بأن يحظوا برضوان الله ، ودنيوية بما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات ، وما يكون في ذلك الاجتماع العظيم من التعارف. وهذا دليل على جواز الاتجار في الحج.

وليذكروا اسم الله أي حمده وشكره والثناء عليه بالتكبير والتسبيح ، على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، وذلك في أيام معلومات هي أيام النحر الثلاثة أو الأربعة وهو قول الصاحبين ومالك ، وقيل : عشر ذي

---

(١) رواه ابن سعد وابن أبي شيبة والبيهقي وجماعة عنه.

الحجة وهو رأي أبي حنيفة والشافعي. وإذا كان ذكر اسم الله بمعنى الحمد والشكر فتكون ﴿عَلى﴾ للتعليل ، ورأى الزمخشري أن ذكر اسم الله كناية عن الذبح والنحر ؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكّون عن ذكر اسمه إذا ذبحوا أو نحروا ، وتكون ﴿عَلى﴾ للاستعلاء. وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرّب به إلى الله أن يذكر اسمه. واختير هذا الأسلوب ليشير إلى أن ذكر الله وحده دون شرك هو المقصود الأعظم وتوسيط الرزق للحث على الشكر والتقرب بتلك القربة والتهوين عليهم في الإنفاق.

ثم أمر الله تعالى بالأكل من تلك الذبائح أمر إباحة فقال :

﴿فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي فاذكروا اسم الله على الذبائح ، وكلوا من لحومها ، وأطعموا البائس الذي أصابه بؤس أي شدة ، الفقير المحتاج.

والأمر بالأكل من الذبائح كما ذكر ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من نسائكهم. قال الزمخشري : ويجوز أن يكون ندبا ، لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم وإظهار التواضع ، ومن هنا استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث. وثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه ، أمر من كل بدنة ببضعة (قطعة من اللحم) فتطبخ ، فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها. ومذهب الشافعي أن الأكل مستحب ، والإطعام واجب ، فإن أطعمها جميعها جاز وأجزأ. وقوله : ﴿فَكُلُوا﴾ التفات إليهم بالخطاب ليؤكد لهم إباحة الأكل من تلك الذبائح.

ثم أمر تعالى بالنظافة وإيفاء النذر والطواف ، فقال :

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ، وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هذه أوامر بواجبات ثلاثة على سبيل الإيجاب ، أي ليزيلوا الأوساخ من على أجسادهم بقص الأظفار وحلق الأشعار ونحوه من الأغسال ، وليوفوا نذورهم التي نذروها

تقربا إلى الله تعالى من أعمال البر ، والنذر : كل ما لزم الإنسان أو التزمه ، وليطوفوا طواف الركن أو الإفاضة ، وقيل : طواف الوداع ، بالبيت العتيق أي القديم ، فهو أقدم بيت للعبادة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إن بناء الكعبة المشرفة أو البيت الحرام على يد إبراهيم الخليل عليه السلام بأمر من الله تعالى له هدفان :

الأول ـ إعلان وحدانية الله تعالى وإظهار التوحيد الخالص من شوائب الشرك.

الثاني ـ تطهير البيت من جميع الأصنام والأوثان والأقذار وكل مظاهر الكفر والبدع وجميع الأنجاس والدماء ، كما قال تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ﴾ [الحج ٢٢ / ٣٠].

والأصح أن الخطاب في ذلك وما يأتي لإبراهيم ، وليس لمحمد عليهما الصلاة والسلام.

٢ ـ قوله : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِ﴾ إعلام بفريضة الحج. وهذا يدل على أن الحج كان مفروضا في زمن إبراهيم عليه السلام ، فإن كانت الفرضية باقية لم تنسخ في عهد نبي بعده ، كانت الأوامر به في شريعتنا مؤكدة لتلك الفرضية. وإن نسخت تلك الفرضية ، كان وجوب الحج علينا بقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران ٣ / ٩٧]. وذلك في عام الوفود في السنة التاسعة.

وأما آية : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٦] النازلة في السنة

السادسة ، فليست صريحة في الإيجاب ؛ إذ يحتمل أن المراد وجوب إتمامهما بعد الشروع فيهما ، فيكون الشروع فيهما ليس واجبا.

وأما إن النبي ﷺ حج حجتين قبل الهجرة فهما نافلتان على ملة أبينا إبراهيم عليه السلام ، ثم حج بعد الهجرة حجة الوداع في السنة العاشرة ، وهي حجة الإسلام.

وأما إن النبي ﷺ لم يبادر بالحج سنة تسع عام الفرضية ؛ لأن الوقت حينئذ كان زمن النسيء (تأخير أزمان الشهور) ولم يكن الزمن الحقيقي قد استقر حتى تعود عشر ذي الحجة إلى مركزها الصحيح من السنة ، وقد علم النبي ﷺ أنها ستعود إلى مركزها الحقيقي في السنة العاشرة ، فتأخر إليها كي يقع حجة في الوقت الحقيقي الذي فرض الله على الناس الحج فيه. وليس على أبي بكر الذي حج في السنة التاسعة ولا على غيره حرج في حجهم ما دام أمر الزمان مختلطا.

ونداء إبراهيم بالحج على جبل أبي قبيس وإسماع صوته إلى الآفاق معجزة ، فالله قادر على إيصال صوت إبراهيم إلى من يشاء في أي مكان. أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال : ربّ قد فرغت ، فقال : أذّن في الناس بالحج ، قال : يا رب ، وما يبلغ صوتي؟ قال : تعال أذّن ، وعلي البلاغ ، قال : ربّ كيف أقول؟ قال : قل : «يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق» فسمعه أهل السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيبون من أقصى البلاد ، يلبّون.

٣ ـ قوله : ﴿يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ﴾ وعد بإجابة الناس إلى حج البيت ما بين راجل وراكب. وفيه دليل على جواز كل من المشي والركوب إلى الحج ، ولا خلاف في ذلك ، وإنما الخلاف في الأفضل منهما :

فرأى بعض المالكية أن المشي أفضل ، لما فيه من المشقة على النفس ، ولحديث ابن ماجه في سننه عن أبي سعيد الخدري قال : حجّ النبي ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة

، ولقول ابن عباس المتقدم.

وذهب جمهور الفقهاء منهم الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل ، اقتداء بالنبي ﷺ ، ولكثرة النفقة ، ولتعظيم شعائر الحج بأهبة الركوب. وأما مجرد تقديم ﴿رِجالاً﴾ على الركبان فلا يدل على الأفضلية ، لأن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب ، ولجواز أن يكون تقديم الرجال على الركبان ، للإشارة إلى مسارعة الناس في الامتثال ، حتى إن الماشي ليكاد يسبق الراكب.

وترفع الأيدي عند رؤية البيت الحرام في مذهب أحمد وجماعة ؛ لما روى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «ترفع الأيدي في سبعة مواطن : افتتاح الصلاة ، واستقبال البيت ، والصّفا والمروة ، والموقفين [١] ، والجمرتين».

٤ ـ دلّ قوله : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ﴾ على جواز التجارة في الحج ؛ قال مجاهد : المنافع : التجارة وما يرضي الله من أمر الدنيا والآخرة. ونص الفقهاء على جواز التجارة للحجاج من غير كراهة إذا لم تكن هي المقصودة من السفر ، بدليل قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٨] والفضل : التجارة بلا خلاف.

وكلمة ﴿مَنافِعَ﴾ تدل على حكمة الحج ، وأنه شرع لما فيه من منافع عظيمة في الدين والدنيا ، فمناسك الحج من أعظم مظاهر الخشية والإخلاص لله في الذكر والدعاء والعبادة ، وهي تدل على التجرد من مفاتن الدنيا وزينتها ، وتبعث على عدم التعلق بشهواتها وزخارفها. كما أنها بواعث على الرحمة والإحسان ، والعدل

---

(١) موقف عرفات والمشعر الحرام.

والمساواة ، والتعاون ، إذ يتعاون الناس في أسفارهم ، ويتراحمون ، ويتعارفون في هذا المؤتمر الأكبر ، ويكونون متساوين لا فرق بين حاكم ومحكوم ، ولا بين غني وفقير. ثم إنه كان وما يزال الحج محققا لمنافع معيشية لأهل الحجاز.

٥ ـ يرى المالكية أن ذبح الهدي لا يجوز ليلا ، للآية : ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ﴾ لأن الله جعل ظرف النحر هو الأيام لا الليالي. والحق أن اليوم يطلق على النهار ، وعلى مجموع النهار والليل. وغير المالكية يرون كراهة الذبح ليلا ، لاحتمال الخطأ فيه بسبب الظلمة.

والأيام المعلومة في رأي الإمام مالك وأبي يوسف ومحمد : هي أيام النحر ، وهي العيد واليومان بعده. وفي رأي أبي حنيفة والشافعي : هي عشر ذي الحجة ، وهي معلومات ؛ لأن شأن المسلمين الحرص على معرفتها.

وأيام النحر عند الحنفية والمالكية ثلاثة أيام : العاشر ويومان بعده ، وعند الشافعي : إنها أربعة : العاشر وما بعده. والرأي الأول مروي عن جمع من الصحابة. والثاني بدليل ما روى البيهقي عن جبير بن مطعم أن النبي ﷺ قال : «وكلّ أيام التشريق ذبح» وهي ثلاثة بعد يوم النحر ، لكن الإمام أحمد ضعّف هذا الحديث.

ووقت الذبح بعد النحر في رأي مالك : بعد صلاة الإمام وذبحه ، وعند أبي حنيفة : بعد الفراغ من الصلاة دون ذبح ، وفي رأي الشافعي : بعد دخول وقت الصلاة ومقدار خطبتين. قال ابن عبد البر : لا أعلم خلافا بين العلماء في أن من ذبح قبل الصلاة ، وكان من أهل المصر أنه غير مضحّ ، لقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب : «من ذبح قبل الصلاة فتلك شاة لحم».

وأما أهل البوادي ومن لا إمام له : فمشهور مذهب مالك أنه يتحرى ذبح الإمام أو أقرب الأئمة إليه. وقال الحنيفة : يجزيهم من بعد الفجر.

٦ ـ قوله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ يراد منه الإباحة ، مثل قوله : ﴿وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا﴾ [المائدة ٥ / ٢] وقوله : ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة ٦٢ / ١٠] أو يراد منه الندب والاستحباب ، فيستحب للرجل أن يأكل من هديه وأضحيته ، وأن يتصدق بالأكثر ، مع تجويز الصدقة بالكل وأكل الكل عند المالكية. وذلك خلافا لما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج عن الأكل من الهدايا ، فأباح النص الأكل منها أو ندب إليه لقصد مواساة الفقراء.

لكن جواز الأكل من الهدايا ليس عاما في كل هدي ، فإن دم الجزاء لا يجوز لصاحبه الأكل منه اتفاقا ، ودم التطوع يجوز الأكل منه اتفاقا.

أما دم التمتع والقران : فقال الشافعية : إنه دم جبر ، فلا يجوز لصاحبه الأكل منه. ورأى الحنفية أنه دم شكر ، فأباحوا لصاحبه الأكل منه ، عملا بظاهر الآية ، فإنها رتبت قضاء التفث على الذبح والطواف ، ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقران ، فإن سائر الدماء يجوز ذبحها قبل هذه الأفعال وبعدها ، فدل ذلك على أن المراد في الآية دم المتعة والقران. وثبت أن النبي ﷺ أكل من البدن التي ساقها في حجة الوداع ، وقد كان قارنا على الراجح عندهم. وإذا كان يجوز إطعام الأغنياء منها ، جاز لصاحب الذبيحة أن يأكل منها ، ولو كان غنيا.

ومشهور مذهب مالك رضي الله عنه أن صاحب الذبيحة لا يأكل من ثلاث من دماء الكفارات : جزاء الصيد ، ونذر المساكين ، وفدية الأذى ، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ محلّه ، واجبا كان أو تطوعا. وإذا أكل مما منع منه ، يغرم في قول راجح للمالكية قدر ما أكل ؛ لأن التعدي إنما وقع على اللحم ، وفي قول آخر : يغرم هديا كاملا.

٧ ـ قوله تعالى : ﴿وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ظاهره وجوب إطعام الفقراء

من الهدايا ، وبه أخذ الشافعي ، وقال أبو حنيفة : إنه مندوب ؛ لأنها دماء نسك ، فتتحقق القربة فيها بإراقة الدم ، أما إطعام الفقراء فهو مندوب. ويستحب عند أكثر العلماء أن يتصدق من أضحيته وهديه بالثلث ، ويطعم الثلث ، ويأكل هو وأهله الثلث. ولم يثبت هذا التقسيم عند مالك. والمسافر في رأي الجمهور يطالب بالأضحية كما يطالب بها الحاضر ، لعموم الخطاب بها. ولا يطالب بها عند أبي حنيفة. كما لا يطالب عند مالك من المسافرين الحاج بمنى ، فلم ير عليه أضحية.

٨ ـ لا يجوز بيع شيء من الهدايا ، لاقتصار النص على الأكل والطعام ، ولما رواه البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال : «أمرني النبي ﷺ أن أقوم على بدنه ، فقال : اقسم جلودها وجلالها ، ولا تعط الجازر منها شيئا» فلا يجوز بيع شيء منها بالأولى.

٩ ـ قوله : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ دليل على وجوب التحلل الأصغر ، وذلك بالحلق أو التقصير.

١٠ ـ قوله : ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ يدل على وجوب الوفاء بالنذر وإخراجه إن كان دما أو هديا أو غيره ، ويدل ذلك على أن النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاء بالنذر. وكذلك جزاء الصيد ، وفدية الأذى ؛ لأن المطلوب أن يأتي به كاملا من غير نقص لحم ولا غيره ، فإن أكل من ذلك ، كان عليه هدي كامل.

ولا وفاء بنذر المعصية ؛ لقوله ﷺ فيما رواه أحمد عن جابر : «لا وفاء لنذر في معصية الله» وقوله فيما رواه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن عائشة : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

١١ ـ قوله : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يدل على لزوم هذا الطواف ، والمراد به طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج. قال الطبري : لا خلاف بين المتأولين في ذلك.

أما القول بأنه طواف الوداع (الصّدر) فهو بعيد ؛ لأن الطواف الذي يلي قضاء التفث إنما هو طواف الإفاضة ، فلا مناسبة هنا لطواف الوداع.

وللحج ثلاثة أطواف : طواف القدوم ، وطواف الإفاضة ، وطواف الوداع. أما طواف القدوم فهو سنة عند الجمهور ، واجب على الأصح عند المالكية ، وعكسه طواف الوداع : مستحب عند المالكية ، واجب عند الجمهور ، وأما طواف الإفاضة فهو فرض وركن لا يتم الحج إلا به بالاتفاق ، لقوله تعالى : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

تعظيم حرمات الله وشعائره

﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)﴾

الإعراب :

﴿ذلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر والشأن ذلك المذكور.

﴿مِنَ الْأَوْثانِ مَنْ﴾ : لتبيين الجنس ؛ لأنه أعم في النهي.

﴿حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ حُنَفاءَ﴾ : حال من ضمير ﴿فَاجْتَنِبُوا﴾ وهو عامله ، وكذلك ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ القراءة المشهورة جرّ ﴿الْقُلُوبِ﴾ بالإضافة ، وتقرأ برفع ﴿الْقُلُوبِ﴾ بالمصدر ؛ لأن «التقوى» مصدر كالدعوى ، فيرتفع به ما بعده.

البلاغة :

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تأكيد بإعادة الفصل بالفعل ، ويسمى الإطناب ، للعناية بشأن كل منهما على حدة.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ تشبيه تمثيلي ؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد ، وكذا قوله : ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ﴾ تشبيه تمثيلي. والعطف فيه إما على قوله : ﴿خَرَّ مِنَ السَّماءِ﴾ أو على «تخطفه الطير».

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُها﴾ جناس ناقص.

المفردات اللغوية :

﴿ذلِكَ﴾ أي الأمر هكذا ، ويستعمل للفصل بين كلامين ، كقوله تعالى : ﴿هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص ٣٨ / ٥٥] ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ﴾ التعظيم : العلم بوجوب تكاليف الشرع والعمل بموجبه. ﴿حُرُماتِ اللهِ﴾ جمع حرمة ، والحرمة : الأحكام وسائر ما لا يحل انتهاكه ، عن زيد بن أسلم : الحرمات خمس : الكعبة الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام ، والمشعر الحرام. وقال المتكلمون : ولا تدخل النوافل في حرمات الله تعالى. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي فالتعظيم خير ثوابا في الآخرة ، للعلم بأنه يجب القيام بمراعاة الحرمات وحفظها.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ﴾ أي أحل أكلها بعد الذبح. ﴿إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ أي إلا المتلو عليكم تحريمه في آية : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة ٥ / ٣] وهو ما حرّم منها لعارض كالموت وغيره ، فلا تحرموا منها غير ما حرّمه الله كالبحيرة والسائبة ، والاستثناء منقطع ، ويجوز أن يكون متصلا ﴿الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ مَنْ﴾ للبيان ، أي الذي هو الأوثان ، كما تجتنب الأنجاس ، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها ، والتنفير عن عبادتها. والرجس : القذر ، أي اجتنبوا عبادة الأوثان.

والأوثان جمع وثن ، وسمي الصنم وثنا ؛ لأنه ينصب ويركز في مكانه لا يبرح عنه ، وقد يسمى الصنم تمثالا إذا كان على صورة الحيوان التي يحيى بها.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي الشرك بالله في تلبيتكم ، أو شهادة الزور ، قال ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن خريم بن فاتك : «عدّت شهادة الزور الإشراك بالله» ثلاث مرات ، وتلا هذه الآية. والزور : الكذب والانحراف. وهو تعميم بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، كأنه لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبعه بالنهي عن تعظيم الأوثان والافتراء على الله بأنه حكم بذلك.

﴿حُنَفاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين لله ، مسلمين ، عادلين عن كل دين سوى دينه ، جمع حنيف: وهو المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ تأكيد لما قبله. ﴿خَرَّ﴾ سقط. ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي تأخذه بسرعة ، والخطف : الاختلاس بسرعة. ﴿تَهْوِي﴾ تسقط. ﴿سَحِيقٍ﴾ بعيد ، أي فهو لا يرجى خلاصه ، فإن الشيطان قد طرح به في الضلالة. وأو : للتخيير ، كما في قوله تعالى : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة ٢ / ١٩] أو للتنويع ، فإن من المشركين من لا خلاص له أصلا ، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة ، ولكن على بعد.

﴿ذلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك المذكور. ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ﴾ أي دين الله أو فرائض الحج ومواضع نسكه ، أو الهدايا ؛ لأنها من معالم الحج ، والشعائر : جمع شعيرة أي علامة ، ويراد بها الهدايا ، وتعظيمها أن تختار من النوع الحسن السمين الغالي الثمن. وسميت شعائر لتعليمها بأنها هدي كالزينة أو الجرح البسيط.

﴿فَإِنَّها﴾ أي فإن تعظيم البدن التي تهدى للحرم بأن تستحسن وتستسمن. ﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات. وذكر القلوب ؛ لأنها منشأ التقوى والفجور.

﴿لَكُمْ فِيها مَنافِعُ﴾ كركوبها والحمل عليها ما لا يضرها. ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي وقت نحرها. ﴿مَحِلُّها﴾ أي مكان حل نحرها. ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي عنده ، والمراد : الحرم جميعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي ولكل أهل دين تقدموا ﴿مَنْسَكاً﴾ المراد هنا متعبدا أو قربانا يتقربون به إلى الله تعالى وهو الذبح تقربا إلى الله ، فهو اسم مكان ، والأصل في النسك والمنسك : العبادة مطلقا ، وشاع استعماله في أعمال الحج. ﴿عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ عند ذبحها. ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ انقادوا. ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ المطيعين الخاشعين المتواضعين. ﴿وَجِلَتْ﴾ خافت. ﴿ما أَصابَهُمْ﴾ من البلايا. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾ في أوقاتها. ﴿يُنْفِقُونَ﴾ يتصدقون.

المناسبة :

الكلام مرتبط بما قبله بنحو واضح ، فبعد أن أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالنداء للحج ، أبان ثواب تعظيم أحكام الله وشرعه ومنها مناسك الحج ، وإباحة ذبح الأنعام وأكلها إلا ما استثني تحريمه ، ثم أتبعه بالنهي عن تعظيم الأوثان ، والافتراء على الله ، والكذب في أداء الشهادات ، وهلاك من يشرك بالله ، ثم أوضح كون تعظيم الشعائر من علائم التقوى ودعائمها ، وأن محل نحرها هو الحرم المكي ، كما أن لكل أمة أو جماعة مؤمنة ذبائح يتقربون بها إلى الله تعالى.

التفسير والبيان :

﴿ذلِكَ ، وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ ...﴾ أي ذلك هو المأمور به من الطاعات في أداء المناسك وثوابها الجزيل ، ومن يعظم أحكام الله بالعلم بوجوبها والعمل بموجبها ، بأن يجتنب المعاصي والمحارم ، ويلتزم بالأوامر ، فله على ذلك ثواب جزيل ، والثواب يكون على الأمرين معا : فعل الطاعات ، واجتناب المحظورات أو ترك المحرّمات.

والحرمات : جمع حرمة وهي بمعنى ما حرم الله من كل منهي عنه في الحج من الجدال والجماع والفسوق والصيد ، وتعظيمها يكون باجتنابها. وقيل : الحرمات : جميع التكاليف الشرعية في الحج وغيره ، وقيل : هي مناسك الحج خاصة ، وقيل : إنها حرمات خمس : المسجد الحرام (الكعبة) والبيت الحرام ، والمشعر الحرام ، والبلد الحرام ، والشهر الحرام. وتعظيمها باجتناب المعاصي ، ومنها الاعتداءات فيها.

وضمير ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ راجع إلى التعظيم المفهوم من ﴿يُعَظِّمْ﴾ أي أن تعظيم هذه الأشياء سبب للمثوبة المضمونة عند الله تعالى ، وعلى هذا لا يكون ﴿خَيْرٌ﴾ أفعل تفضيل.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ﴾ أي وأبيح لكم أيها الناس ذبح الأنعام وأكلها إلا ما استثني وتلي عليكم في آية المائدة وغيرها ، وهو الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .. إلخ ولم يحرم عليكم ما حرمه أهل الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. فلا يراد من قوله ﴿يُتْلى﴾ ما ينزل في المستقبل ، كما هو ظاهر الفعل المضارع ، بل المراد : ما سبق نزوله ، ويكون التعبير بالمضارع للتنبيه على أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره والالتفات إليه.

والاستثناء متصل إن أريد من المستثنى : المحرم من خصوص الأنعام ، وهو منقطع إن أريد به ما يشمل الدم ولحم الخنزير وغيرهما ، والراجح الأول والجملة معترضة لدفع الإيهام بأن تعظيم الحرمات يقضي باجتناب الأنعام ، كما قضي باجتناب الصيد في الحرم وفي أداء المناسك في الحج والعمرة.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ﴾ أي تجنبوا القذر من الأصنام ، وسميت رجسا تقبيحا لها وتنفيرا منها ، وابتعدوا عن عبادة الأوثان ، فذلك رجس ، والمراد من اجتنابها : اجتناب عبادتها وتعظيمها ، وتأكيدا للأمر أوقع الاجتناب على ذاتها. والجملة مرتبطة بقوله : ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ ..﴾ أي إذا كان تعظيم حرمات الله فيه الخير ورضا الله تعالى ، وكان من تعظيمها اجتناب ما نهى الله عنه ، فاجتنبوا الأوثان ، ولا تعظموها ، ولا تذبحوا لها كما كان يفعل أهل الجاهلية.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي وابتعدوا عن الكذب والباطل وشهادة الزور ، فذلك كله يدخل تحت عبارة ﴿قَوْلَ الزُّورِ﴾ والأحسن التعميم ، حتى يشمل شهادة الزور ، أخرج أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال : «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» ثلاثا ، وتلا هذه الآية.

وتمسكوا بهذه الأمور حنفاء لله ، أي مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل ، قصدا إلى الحق ، دون إشراك بالله أحدا. والحنيف : المائل عن الديانات الباطلة إلى الدين الحق.

ثم ضرب للمشرك مثلا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى بجملة مستأنفة مقررة لوجوب اجتناب الشرك ، فقال : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ ...﴾ أي ومن أشرك مع الله إلها آخر ، وعبد غيره ، فقد خسر خسرانا عظيما وهلك هلاكا مبينا ، وهو في شركه شبيه بمن سقط من جو السماء ، فتخاطفته الطيور ، أي قطعته ومزقته في الهواء ، وأخذ كل منها بقطعة منه ، فتم هلاكه ؛ أي هو كمن عصفت به الريح ، فهوت به في مكان بعيد مهلك ، لا يكون له منه خلاص ولا نجاة. والغرض من هذين التشبيهين التمثيليين تقبيح حال الشرك والتنفير منه.

ثم ذكر الله تعالى سبب تعظيم الشعائر فقال :

﴿ذلِكَ ، وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ ، فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي الأمر ذلك المذكور ، ومن يعظم الهدايا (المواشي التي تذبح هدية للحرم) لأنها من معالم الحج ، بأن يختارها جسيمة سمينة غالية الثمن ، أو من يعظم أوامر الله ومناسك الحج ، ومنها تعظيم الهدايا والبدن باستسمانها واستحسانها ، كما قال ابن عباس ، فإن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب ، فحذفت هذه المضافات ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها ، كما ذكر في الكشاف. فقوله : ﴿فَإِنَّها﴾ عائد إلى حالة المعظم التي يدل عليها فعل ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ﴾ أو التعظيمة الواحدة. قال ابن العربي عن الشعائر : والصحيح أنها البدن.

روي أنه ﷺ أهدى مائة بدنة ، فيها جمل لأبي جهل ، في أنفه برة من ذهب ، أي حلقة من ذهب. وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال : أهدى عمر نجيبا ، فأعطي بها ثلاث مائة دينار ، فأتى النبي ﷺ فقال :

يا رسول الله ، إني أهديت نجيبا ، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار ، أفأبيعها وأشتري بثمنها بدنا؟ قال : «لا ، أنحرها إياها». وكان ابن عمر يسوق البدن مجلّلة بالقباطي . ثياب مصرية غالية الثمن . فيتصدق بلحومها وجلالها.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي لكم في البدن منافع دنيوية من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها ، إلى أجل مسمى أي إلى أن تنحر ، ويتصدق بلحومها ، ويؤكل منها.

ويجوز ركوبها ، حتى بعد أن تسمى بدنا أو هديا ؛ لما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة قال : «اركبها» قال : إنها بدنة ، قال : «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي ثم مكان حل نحر الهدي ، وانتهاؤه عند البيت العتيق وهو الكعبة ، أي الحرم جميعه ، إذ الحرم كله في حكم البيت الحرام ، كما قال تعالى : ﴿هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة ٥ / ٩٥] وقال : ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٥]. وعلى هذا يكون المعطوف بثم في الآية كلاما تاما أريد به بيان المكان الذي تذبح فيه الهدايا بعد ما بين حكم تعظيمها والانتفاع بها إلى الأجل المعين.

وسبب تسميته بالبيت العتيق هو كما أخرج البخاري في تاريخه ، والترمذي والحاكم وابن جرير وغيرهم عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما سماه الله البيت العتيق ؛ لأنه أعتقه من الجبابرة ، فلم يظهر عليه جبار قط».

ثم أخبر الله تعالى عن مشروعية ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله في جميع الملل فقال :

و ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً﴾ أي جعلنا لأهل كل دين سلف ذبحا

يذبحونه تقربا إلى الله تعالى ، وذلك ليس خاصا بأمة محمد ﷺ وإنما هو في كل الملل. والصحيح كما قال ابن العربي أن المنسك : هو ما يرجع إلى العبادة والتقرب.

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ﴾ أي شرعنا لهم سنة ذبح الأنعام ، لكي يذكروا اسم الله حين ذبحها ، أي عند الشروع فيه ، ويشكروه على نعمه التي أنعم بها عليهم.

ويؤيده ما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : أتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمّى وكبّر ، ووضع رجله على صفاحهما.

وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن زيد بن أرقم قال : قلت يا رسول الله ، ما هذه الأضاحي؟ قال : «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا : ما لنا منها؟ قال : «بكل شعرة حسنة» قال : فالصوف؟ قال : «بكل شعرة من الصوف حسنة».

﴿فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ، فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ أي فإن معبودكم واحد ، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ، ونسخ بعضها بعضا ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال سبحانه : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥]. وقوله : ﴿فَإِلهُكُمْ ..﴾بمثابة العلة لما قبله من تخصيص اسمه الكريم بالذكر ؛ لأن تفرده تعالى بالألوهية يقتضي ألا يذكر على الذبائح غير اسمه. وإنما قال : ﴿إِلهٌ واحِدٌ﴾ ولم يقل : «فإلهكم واحد» لإفادة أنه تعالى واحد في ذاته وفي ألوهيته.

ومتى كان الإله واحدا فله أسلموا أي فيجب تخصيصه بالعبادة ، والاستسلام له والانقياد له في جميع الأحكام. وقوله ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ مرتب بالفاء على الحكم بوحدانية الإله.

وبشر أيها النبي بالثواب الجزيل المخبتين ، أي المتواضعين الخاشعين لله ، من

الخبت وهو المطمئن المنخفض من الأرض. وسر تحول الخطاب للنبي ﷺ هو إظهار عظمة الألوهية وقهرها في مقام الأمر والنهي للعباد ، فلما انتهى أمر التكليف ، وجه الخطاب للنبي ﷺ لتبليغه الناس وعد الله للعاملين المخلصين. وأوصافهم أربعة هي ما يأتي :

١ ـ الخوف والخشوع عند ذكر الله : ﴿الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي إذا ذكر الله خافت منه قلوبهم.

٢ ـ الصبر على المصائب : ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ﴾ أي الذين يصبرون على الآلام والمشقات في طاعة الله تعالى.

٣ ـ إقامة الصلاة : ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾ أي الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها تامة الأركان والشرائط ، مع الخشوع لله تعالى.

٤ ـ الإنفاق مما رزقهم الله : ﴿وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي وينفقون من بعض ما آتاهم الله من طيب الرزق ، على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى الخلق ، مع محافظتهم على حدود الله تعالى.

وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال ٨ / ٢] وقوله تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

أفادت الآيات الأحكام التالية :

١ ـ إن تعظيم حرمات الله أي أفعال الحج وغيرها من امتثال الأوامر

واجتناب النواهي خير عند الله من التهاون بشيء منها ، وسبب للمثوبة والتكريم عند الله تعالى ، فإن للأوامر حرمة المبادرة إلى الامتثال ، وللنواهي حرمة الانكفاف والانزجار.

٢ ـ إباحة الأكل من لحوم الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم ، إلا المذكور في القرآن من المحرّمات ، وهي الميتة والموقوذة وأخواتها.

٣ ـ يجب اجتناب عبادة الأصنام والأوثان ، فإنها رجس أي شيء قذر ، وهي نجسة نجاسة حكمية. والوثن : التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها ، وكانت العرب تنصبها وتعبدها. والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه ، فهو كالتمثال أيضا.

٤ ـ ويجب أيضا اجتناب قول الزور ، والزور : الباطل والكذب ، وهو يشمل خلط أهل الجاهلية في تلبيتهم وقولهم فيها : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، ويشمل أيضا قولهم في البحائر والسوائب : إنها حرام ، وإن تحريمها من الله ، وكذلك يشمل شهادة الزور الباطلة.

ففي الآية وعيد على شهادة الزور ، ولكن ليس في الآية ما يدل على تعزير شاهد الزور ؛ لأنها اقتصرت على تحريم شهادة الزور. وإنما يعزر من قبيل المصلحة والسياسة الشرعية ، التي للحاكم أن يسير على نهجها لحفظ الحقوق العامة ، وردع أهل الفساد. وهذا رأي المالكية وأبي يوسف ومحمد ، جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «إن أكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور وقول الزور» وكان رسول الله ﷺ متكئا ، فجلس ، فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت.

٥ ـ يلزم الإخلاص في العبادة لله ، والاستقامة على أمره ، فقوله : ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ معناه مستقيمين أو مسلمين مائلين إلى الحق ، تاركين الدين الباطل.

٦ ـ المشرك هالك حتما ، خاسر الآخرة ، فهو يوم القيامة بمنزلة من لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عن نفسه ضرا ولا عذابا ، فهو بمنزلة من خرّ من السماء ، فهو لا يقدر أن يدفع شيئا عن نفسه ، ونهايته الهلاك إما بأن تقطعه الطيور بمخالبها ، أو تعصف به الريح ، وتسقطه في مكان قفر بعيد لا نجاة له فيه.

٧ ـ إن تعظيم شعائر الله (وهي الأنعام التي تساق هديا للكعبة ، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، أو هي جميع مناسك الحج ، والصحيح أنها البدن كما قال ابن العربي) من علائم التقوى ودعائمها. وتعظيمها يكون باختيارها سمينة حسنة غالية الأثمان. والتقوى : هي الخشية التي تبعث على اتباع الأوامر واجتناب النواهي. والإخلاص والتقوى والخشية غاية ما يتمنى المرء أن يدركه في هذه الدنيا ، ليصل به إلى سعادة الآخرة.

وفي الآية حث على التقوى ، وبعث للهمم على الاهتمام بأمرها.

٨ ـ يجوز الانتفاع بالبدن بالركوب والحلب وأخذ الصوف وغيرها ، إلى وقت الذبح ، فقد فسر الشافعية الأجل المسمى في الآية بوقت نحر الهدي. وقالوا : إنما يجوز الانتفاع للحاجة ، ولو لم يكن هناك اضطرار. ولا يجوز لغير حاجة ، والأولى أن يتصدق بمنافعها ، ولكن لا يضمن شيئا من منافع الهدي إلا إذا أدى الركوب إلى الإنقاص البين لقيمتها ، ودليلهم حديث أنس المتقدم المتفق عليه بين أحمد والشيخين : «اركبها ولو كانت بدنة» وحديث جابر فيما رواه أبو داود : «اركبوا الهدي المعروف حتى تجدوا ظهرا».

وفسر الحنفية الأجل المسمى في الآية بوقت تعيينها وتسميتها هديا. ولا يجوز الانتفاع بها بعد السوق إلا في حالة الاضطرار ، ودليلهم ما رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن جابر أنه سئل عن ركوب الهدي ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها حتى تجد ظهرا» فالجواز خاص بحالة الضرورة ، فهو مقيد والمقيد يقضي على المطلق في حديث

أنس ، فإن لم تكن ضرورة وجب ضمان ما ينتفع به ؛ لأنه ضار حقا للفقراء ، فعليه أن يعوضهم مقدار قيمته.

والمشهور من مذهب المالكية أنه يكره الانتفاع بالبدن بركوبها ووبرها ، ولو كان لبنها فاضلا عن حاجة أولادها. وهذا قريب من مذهب الحنفية.

وذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة ، لقوله ﷺ : «اركبها». وقد أخذ أحمد وإسحاق وأهل الظاهر بظاهر هذا الحديث. وهذا يغاير فعل النبي ﷺ ؛ لأنه لم يركب هديه ولم يركبه غيره.

٩ ـ إن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. وأما ذبح البدن والهدي فلا يصح إلا في الحرم ؛ لأنه تعالى جعل محلها إلى البيت العتيق ، قال عطاء : ينتهي إلى مكة.

١٠ ـ الإخبار بجعل نسك الذبح لكل الأمم فيه تحريك النفوس إلى المسارعة إلى هذا البر ، والاهتمام بهذه القربة ، وفيه إشعار بأن أهل الجاهلية الذين كانوا يذبحون لأصنامهم ، ويخلطون في التسمية على ذبائحهم ، إنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم ، واتباعا لمحض شهواتهم وأهوائهم ، فإن شرائع الله كلها قد اتفقت على أن التقرب إنما يكون لله وحده ، وباسمه وحده ؛ إذ ليس للناس إلا إله واحد.

١١ ـ الإله الواحد هو الرازق والمشرع والمكلّف بالتكاليف الدينية ، فتجب إطاعته ، والانقياد لحكمه ، وأن يكون الذبح له ، وأن يذكر اسمه عند الذبح ، وأن يخلص الذبح له لا لغيره أو مع غيره ؛ لأنه رازق ذلك. وظاهر الآية : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً﴾ وجوب ذكر اسم الله على الذبيحة ، ووجوب اعتقاد أن الله واحد ، ووجوب الإسلام بمعنى الإخلاص لله في العمل.

١٢ ـ للمخبتين المتواضعين الخاشعين من المؤمنين البشارة بالثواب الجزيل. وأوصافهم في الآية أربعة كما تقدم : وهي الخوف والخشوع عند ذكر الله لقوة يقينهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه ، والصبر على المصائب ومشاق الطاعات ، وإقامة الصلاة أهم التكاليف البدنية ، والإنفاق مما رزقهم الله من فضله ، وهذا يشمل الزكاة المفروضة التي هي أهم التكاليف المالية ، وصدقة التطوع.

والخوف عند ذكر الله يحصل عند استحضار وعيد الله وعذابه ، وفي حال أخرى يطمئن المؤمن الصادق بوعد الله ، كما قال : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد ١٣ / ٢٨] فإذا ذكر وعد الله واستحضر رحمته وسعة عفوه ، اطمأن قلبه ، وسكن روعه ، فلا يكون هناك تعارض بين الآيتين.

ويؤخذ من الآية أن التقوى والخشية والصبر على المكاره ، والمحافظة على الصلاة ، والرحمة بالفقراء والإحسان إليهم من أعظم موجبات نيل رضا الله تعالى.

التسمية عند ذبح البدن والأكل والإطعام منها

﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)**﴾

الإعراب :

﴿وَالْبُدْنَ﴾ منصوب بفعل مقدر ، تقديره : وجعلنا البدن ، جعلناها لكم فيها خير. و ﴿خَيْرٌ﴾ مرفوع بالظرف ارتفاع الفاعل بفعله ، تقديره : كائنا لكم فيها خير. و ﴿صَوافَ﴾ حال من هاء وألف ﴿عَلَيْها﴾ وهو ممنوع من الصرف ؛ لأنه جمع بعد ألفه حرفان ، أي مصطفّة.

﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها﴾ قرئ ينال بالياء والتاء ، فمن قرأ بالتذكير أراد معنى الجمع ، ومن قرأ بالتاء بالتأنيث أراد معنى الجماعة ، والفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول يقوي التذكير ويزيده حسنا.

البلاغة :

﴿الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ بينهما طباق ؛ لأن القانع : المتعفف ، والمعتر : السائل.

﴿الْمُحْسِنِينَ الْمُخْبِتِينَ﴾ . في الآية السابقة . سجع مستحسن.

المفردات اللغوية :

﴿وَالْبُدْنَ﴾ جمع بدنة ، وهي الإبل خاصة ، ذكرا أو أنثى ، لعظم بدنها ، مثل ثمرة وثمر وثمر ، ويشاركها البقرة في الحكم لا في الاسم ؛ لقوله ﷺ فيما أخرجه الجماعة عن جابر : «البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة». ﴿شَعائِرِ اللهِ﴾ أعلام دينه. ﴿لَكُمْ فِيها خَيْرٌ﴾ نفع في الدنيا ، وأجر في العقبى ، أي لكم فيها منافع دينية ودنيوية. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها﴾ عند نحرها أو ذبحها ، بأن تقولوا : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، اللهم منك وإليك. ﴿صَوافَ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ، جمع صافّة وقرئ صوافن من صفن الفرس : إذا قام على ثلاث وطرف سنبك الرابعة ؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها وتقوم على ثلاث وقرئ أيضا صوافيا بالتنوين وصوافي أي خوالص لوجه الله.

﴿وَجَبَتْ جُنُوبُها﴾ سقطت على الأرض بعد النحر ، وهو وقت الأكل منها ، وهو كناية عن الموت. ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ إن شئتم. ﴿وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي المتعفف الذي يقنع بما يعطى ولا يسأل ولا يتعرض ، والمعتر : السائل أو المتعرض. ﴿كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ﴾ أي مثل ما وصفنا من نحرها قياما ، سخرناها لكم مع عظمها وقوتها ، بأن تنحر وتأخذوها منقادة.

﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها﴾ أي لا يرفعان إليه. ﴿وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾ أي يرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له ، مع الإيمان. ﴿هَداكُمْ﴾ أرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه. ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين المخلصين لله.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٧):

﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب النبي ﷺ : فنحن أحق أن نضمخ ، فأنزل الله : ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها﴾ الآية.

المناسبة :

بعد الترغيب والحث على التقرب إلى الله بالأنعام كلها ، خص الله تعالى الإبل ، لعظمها وكثرة منافعها.

التفسير والبيان :

يمتن الله تعالى على عباده بأن جعل البدن قربة عظيمة تهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى إليه ، فقال :

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ﴾ أي جعلنا لكم الإبل ومثلها البقر من علائم دين الله ، وأدلة طاعته ، ففي ذبحها في الحرم ثواب كبير في الآخرة ، ونفع عظيم بلحومها للفقراء في الدنيا ، وبالركوب عليها ، وأخذ لبنها.

والبدن تطلق في رأي أبي حنيفة وآخرين من التابعين والصحابة على الإبل والبقر ، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه أنه قال : كنا ننحر البدنة عن سبعة ، فقيل : والبقرة؟ قال : وهل هي إلا من البدن. وقال ابن عمر رضي الله عنهما : لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر.

ومذهب الشافعية : أنه لا تطلق البدن في الحقيقة إلا على الإبل ، وإطلاقها على البقر مجاز ، فلو نذر بدنة لا تجزئه بقرة ، وبدليل قوله تعالى : ﴿صَوافَ﴾ و ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُها﴾ فنحر الحيوان قائما لم يعهد إلا في الإبل خاصة ، ويؤيده

ما رواه أبو داود وغيره عن جابر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة» فإن العطف يقتضي المغايرة. وأما قول جابر وابن عمر المتقدم فيحمل على أنهما أرادا اتحاد الحكم فيهما. وهذا هو الظاهر والأصح لغة.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَ﴾ أي فاذكروا اسم الله على البدن عند نحرها وكونها قائمات صافات الأيدي والأرجل ، بأن تقولوا : بسم الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك.

﴿فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها ، فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي إذا سقطت على الأرض وزهقت روحها أو ماتت ، فيباح لكم الأكل منها ، وعليكم الإطعام منها للفقراء ، سواء المتعفف عن السؤال ، والسائل المتعرض ، أي كلوا وأطعموا ، وقوله : ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ أمر إباحة ، وقال مالك : يستحب ذلك ، وقال بعض العلماء : يجب ، والظاهر أنه لا يجب الأكل منها ، فإن السلف متفقون على أنه لا يجب الأكل من شيء من الهدايا ، وإنما ذلك لرفع التحرج عن الأكل من الهدايا الذي كان عليه أهل الجاهلية ، فالمراد : إباحة الأكل أو الندب.

وأما قوله : ﴿وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فظاهره كما تقدم وجوب إطعام الفقراء من الهدي ، وبه أخذ الشافعي ، فأوجب إطعام الفقراء منها ، وذهب أبو حنيفة إلى أن الإطعام مندوب ؛ لأنها دماء نسك ، فتتحقق القربة منها بإراقة الدم ، أما إطعام الفقراء فهو باق على حكمه العام وهو الندب.

﴿كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي من أجل هذا المذكور من الخير في ذبح الأنعام والأكل منها وإطعام الفقراء أو مثل هذا التسخير ، ذللناها لكم ، مع عظمتها وقوتها ، وجعلناها منقادة لكم ، خاضعة لرغباتكم ومشيئتكم بالركوب والحلب والذبح ، لكي تشكروا الله على نعمه ، بالتقرب إليه ، والإخلاص في

العمل. والخلاصة : أنها نعمة جليلة تستحق الشكر والحمد ، فقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لما قبله. وكلمة «لعل» ليست للرجاء الذي هو توقع الأمر المحبوب ؛ لأنه مستحيل على الله تعالى ؛ لأنه ينبئ عن الجهل بعواقب الأمور ، فتكون للتعليل بمعنى «كي». ونظير الآية قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً ، فَهُمْ لَها مالِكُونَ. وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ ، أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٧١ ـ ٧٣].

ثم ذكر الله تعالى الهدف من ذبح الأنعام فقال :

﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها ..﴾ أي إنما شرع الله لكم نحر هذه الهدايا والضحايا ، لتذكروه عند ذبحها ، ولن يصل إلى الله شيء من لحومها ولا من دمائها ، ولكن يصله التقوى والإخلاص ، وترفع إليه الأعمال الصالحة. وكان أهل الجاهلية إذا ذبحوها لآلهتهم ، وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ، وأراد المسلمون أن يفعلوا مثلهم ، فنزلت الآية : ﴿لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها ..﴾

ثم كرر تعالى ذكر تسخير الأنعام وتذليلها للناس ؛ لأن في الإعادة تذكيرا بالنعمة ، الذي يبعث على شكرها ، والثناء على الله من أجلها ، والقيام بما يجب لعظمته وكبريائه ، فقال :

﴿كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ﴾ أي من أجل هذا سخر لكم البدن وذللها ، أو هكذا سخرها ، لتعظموا الله وتشكروه على ما أرشدكم إليه لدينه وشرعه ، وما يحبه ويرضاه ، ونهاكم عما يكره ، ويأبى مما هو ضارّ غير نافع.

ثم وعد المهديين الراشدين بقوله :

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبشر يا محمد بالجنة المحسنين في عملهم ، القائمين بحدود الله ، المتبعين ما شرع لهم ، الطائعين أوامره ، المصدقين رسوله فيما أبلغهم ، وجاءهم به من عند ربه عَزَّوَجَلَّ .

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ ـ يدل الاقتصار على البدن مع جواز نحر الهدي من بقية الأنعام على أن البدن في الهدايا أفضل من غيرها من البقر والغنم ، ولقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ ، وَلَا الشَّهْرَ الْحَرامَ ، وَلَا الْهَدْيَ ، وَلَا الْقَلائِدَ ، وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ﴾ [المائدة ٥ /٢].

وأما إطلاق البدنة على البعير ، فمتفق عليه ، وأما إطلاقها على البقرة ففيه قولان تقدما : قول لأبي حنيفة أنها تطلق ، وقول للشافعي أنها لا تطلق ، والأصح أنها لا تطلق عليها لغة ، وإنما تطلق عليها شرعا ، بدليل الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله قال : «أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي : البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة».

٢ ـ يندب نحر الإبل وهي قائمة معقولة إحدى القوائم ؛ لقوله تعالى : ﴿صَوافَ﴾ ولا يجوز أن يؤكل منها بعد نحرها حتى تفارقها الحياة.

٣ ـ قوله تعالى : ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَ﴾ أمر ، ومقتضاه الوجوب ، وقد أخذ بظاهره بعض الأئمة ، فأوجبوا التسمية على الذبيحة ، والأصح أنها مندوبة ، والأمر مؤول على الندب ، أو على الشكر والثناء.

ولا يجوز نحر الهدايا والأضاحي قبل الفجر من يوم النحر بالإجماع ، فإذا طلع الفجر حلّ النحر بمنى ، وليس على الحجاج انتظار نحر إمامهم ؛ بخلاف

الأضحية في سائر البلاد. والمنحر : منى لكل حاج ، ومكة لكل معتمر ، ولو نحر الحاج بمكة ، والمعتمر بمنى لم يكن به بأس.

٤ ـ ﴿فَكُلُوا مِنْها﴾ أمر معناه الندب ، قال القرطبي : وكل العلماء قالوا : يستحب أن يأكل الإنسان من هديه ، وفيه أجر وامتثال ؛ إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم ، كما تقدم.

وقال الشافعي : الأكل مستحب ، والإطعام واجب في دماء التطوع ، أما واجبات الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئا ، كما تقدم.

وعلى هذا يكون ظاهر الأمر في الأكل إما الندب وإما الإباحة. وأما ظاهر الأمر في الإطعام فهو إما الوجوب كما قال الشافعي ، وإما الندب كما قال أبو حنيفة.

٥ ـ يجمع عند الذبح أو النحر بين التسمية ، لقوله تعالى في الآية المتقدمة : ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها﴾ وبين التكبير ، لقوله هنا : ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ﴾. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نحر هديه ، فيقول : بسم الله والله أكبر ، وفي الحديث الصحيح عن أنس قال : ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين [١] أقرنين ، ورأيته يذبحهما بيده ، ورأيته واضعا قدمه على صفاحهما [٢] ، وسمّى وكبّر.

وقد أوجب أبو ثور التسمية ، واستحب بقية العلماء ذلك. وكره المالكية الصلاة على النبي ﷺ عند التسمية في الذبح ، وقالوا : لا يذكر هنا إلا الله وحده. وأجازها الشافعي عند الذبح.

---

(١) الأملح : الذي بياضه أكثر من سواده.

(٢) الصفاح : الجوانب ، والمراد : الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإنما ثني إشارة إلى أنه فعل ذلك في كل منهما.

وذهب الجمهور إلى أن قول المضحي : اللهم تقبل مني ، جائز ، وكره ذلك أبو حنيفة ، ويرد عليه الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها ، وفيه : «ثم قال : باسم الله ، اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد» ثم ضحّى به. وكره مالك قولهم : اللهم منك وإليك ، وقال : هذه بدعة. وأجاز ذلك ابن حبيب من المالكية والحسن البصري ، بدليل ما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله : أنه ﷺ قال عند الذبح : «اللهم منك ولك عن محمد وأمته ، باسم الله والله أكبر» ثم ذبح. فلعل الإمام مالك لم يبلغه الخبر.

٦ ـ لن يصل إلى الله لحوم الذبائح ولا دماؤها ، وإنما يصل التقوى من عباده ، فيقبله ويرفعه إليه ويسمعه. وقد امتن الله علينا بتذليل الإبل ، وتمكيننا من تصريفها ، وهي أعظم منا أبدانا ، وأقوى أعضاء ، ليعلم العبد أن الأمور ليست على ما تظهر إلى العبد من التدبير. وإنما هي بحسب ما يدبرها العزيز القدير ، وليعلم الخلق أن الغالب هو الله وحده القاهر فوق عباده.

٧ ـ في الآية : ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ دلالة على أن التقوى وشكر الله تعالى والإحسان في العمل لله جل شأنه من أهم المطالب الشرعية التي لا يجوز لأحد إغفالها.

ويحسن ذكر حكم الأضحية بإيجاز ، ذهب أبو حنيفة والثوري ، ومالك في قول ضعيف عنه إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصابا ، وكان في رأي أبي حنيفة مقيما غير مسافر ؛ لما رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعا : «من وجد سعة ، فلم يضحّ ، فلا يقربنّ مصلّانا» [1]، وروى الترمذي عن ابن عمر قال : «أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي».

وقال الجمهور ، وذلك على المشهور عند المالكية لغير الحاج بمنى : لا تجب

---

(١) لكن فيه غرابة ، واستنكره أحمد بن حنبل.

الأضحية ، بل هي سنة مستحبة ؛ لما جاء في الحديث : «ليس في المال حق سوى الزكاة» [١] ولأنه ﷺ ضحى عن أمته ، فأسقط ذلك وجوبها عنهم ، وقال : «إنها سنة أبيكم إبراهيم» وقال أبو سريحة : كنت جارا لأبي بكر وعمر ، فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما. وروى الجماعة إلا البخاري عن أم سلمة : «أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم هلال ذي الحجة ، وأراد أحدكم أن يضحي ، فليمسك عن شعره وأظفاره» ففيه تعليق الأضحية بالإرادة ، والتعليق بالإرادة ينافي الوجوب. وروى أحمد والحاكم والدارقطني عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ثلاث هنّ علي فرائض ، وهن لكم تطوع : الوتر ، والنحر ، وصلاة الضحى» [٢]. وروى الترمذي : «أمرت بالنحر ، وهو لكم سنة».

دفاع الله عن المؤمنين وأسباب مشروعية القتال

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾

---

(١) رواه ابن ماجه عن فاطمة بنت قيس ، وهو ضعيف.

(٢) سكت عنه الحاكم ، وفيه راو ضعيف ضعفه النسائي والدارقطني.

الإعراب :

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾ في موضع جر صفة لقوله ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ أي أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، الذين أخرجوا. ويكون قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فصلا بين الصفة والموصوف ، مثل : ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ، لَوْ تَعْلَمُونَ ، عَظِيمٌ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٧٦] أي : وإنه لقسم عظيم لو تعلمون.

﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللهُ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه استثناء منقطع ، أي لكن لقولهم: ربنا الله.

﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بدل بعض من الناس.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ ..﴾ إما في موضع جر ، صفة أخرى لقوله : ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ وإما منصوب على البدل من ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر أي هم.

وقوله : ﴿إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ شرط وجزاء ، وهما صلة الموصول.

البلاغة :

﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعّال وفعول.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ فيه حذف لدلالة السياق عليه ، أي أذن بالقتال للذين يقاتلون.

﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللهُ﴾ فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم ، أي لا ذنب لهم إلا هذا ، على طريقة قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

المفردات اللغوية :

﴿يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه ، وقرئ : يدفع أي غائلة المشركين ﴿خَوَّانٍ﴾ في أمانته وأمانة الله أي كثير الخيانة ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته ، وهم المشركون ، والمعنى : أنه يعاقبهم ، وصيغة المبالغة لبيان واقع المشركين.

﴿أُذِنَ﴾ رخّص ﴿لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ من قبل المشركين وهم المؤمنون ، أي للمؤمنين أن يقاتلوا ، والمأذون فيه وهو القتال محذوف لدلالته عليه ، وقرئ بالبناء للمعلوم ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ أي

عدوهم المشركين. ذكر جماعة من المفسرين : أن هذه أول آية نزلت في الجهاد بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي بسبب أنهم ظلموا بظلم الكافرين إياهم ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر كما وعدهم بدفع أذى الكفار عنهم.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ﴾ يعني مكة ﴿بِغَيْرِ حَقٍ﴾ أي بغير موجب في الإخراج استحقوا به ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا﴾ أي بقولهم ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ وحده ، وهذا القول حق ، فالإخراج به إخراج بغير حق ، ﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين ﴿لَهُدِّمَتْ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل ، والقراءة بالتشديد للتكثير ، وقرئ بالتخفيف ﴿صَوامِعُ﴾ للرهبان وهي الأديرة ، جمع صومعة ﴿وَبِيَعٌ﴾ كنائس للنصارى ، جمع بيعة ﴿وَصَلَواتٌ﴾ كنائس اليهود ، سميت بها ؛ لأنها يصلى فيها ، وقيل : أصلها : صلوتا بالعبرانية ، فعرّبت ﴿وَمَساجِدُ﴾ معابد للمسلمين ، جمع مسجد ، والأرض كلها جعلت للنبي ﷺ مسجدا ، وتربتها طهورا. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ يذكر في المواضع الأربعة المذكورة ، وتنقطع العبادة بخرابها ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ من ينصر دينه ، وقد أنجز وعده ، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ القوي : القادر على كل شيء ، ومنه نصرهم ، والعزيز : المنيع في سلطانه وقدرته ، لا يغلبه غالب.

﴿إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بنصرهم على عدوهم ﴿وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي إليه مرجعها في الآخرة.

سبب النزول :

نزول الآية (٣٨):

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ﴾ : روي أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة ، وآذاهم الكفار ، وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة ، أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ، ويغتال ويغدر ويحتال ، فنزلت هذه الآية.

نزول الآية (٣٩):

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ﴾ الآية : أخرج أحمد والترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه وابن سعد عن ابن عباس قال : خرج النبي ﷺ من مكة ، فقال

أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون! ليهلكنّ ، فأنزل الله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة ، ثم بيّن مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، أردف ذلك ببيان ما يزيل الصدّ ، ويؤمن معه التمكن من الحج ، وهو دفع الله غائلة المشركين ، والإذن بالقتال مع إيضاح الحكمة منه وأسباب مشروعيته ، كالدفاع عن المقدسات ، وحماية المستضعفين ، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى.

التفسير والبيان :

﴿إِنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي إن الله يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه ، شر الأشرار ، وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم على أعدائهم ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١] وقال : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ، إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ ، قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق ٦٥ / ٣] وقوله : ﴿يُدافِعُ﴾ صيغة مفاعلة إما للمبالغة في الدفع ، أو للدلالة على تكرره فقط ؛ لأن صيغة المفاعلة تدل على تكرر الفعل.

﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي إنه تعالى لا يحب خائن العهد والميثاق والأمانة ، جاحد النعم الذي لا يعترف بها ، والمراد أن المؤمنين هم أحباء الله ، وأن الله سيعاقب أعداءهم ، فهو تعليل للوعد وللوعيد ؛ لأن نفي المحبة كناية عن البغض الموجب للعقاب. وخيانة الأمانة إما جميع الأمانات ، وإما أمانة الله وهي أوامره ونواهيه.

وهذه الآية إما وعيد ضمنا ، وبيان عاقبة الصادين عن المسجد الحرام الذين

ذكرهم الله قبل آيات الحج ، فتكون كلاما متصلا بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ ..﴾. وإما وعد للمؤمنين الذين تعطشوا إلى رؤية الحرم المقدس بعد منع المشركين لهم ، فتكون كلاما متصلا بما قبله مباشرة ، فإنهم أخرجوا رسول الله من وطنه الذي تعلق قبله به ، حتى إنه نظر إليه حين خروجه من مكة وقال : «والله إنك لأحبّ أرض الله إليّ ، وإنك لأحبّ أرض الله إلى الله ، ولو لا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

والظاهر أن الآية وعد من الله عَزَّوَجَلَّ وبشارة للمؤمنين بنصر الله لهم وتمكينهم من عدوهم ، وفي ضمنه وعيد شديد ، وتهديد للمشركين بقهرهم وخذلانهم ، وفيه تمهيد وتوطئة لمشروعية الجهاد.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي رخّص للمؤمنين المعتدى عليهم بالقتال بسبب ظلم المشركين إياهم ، بإخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وإيذاء بعضهم بالضرب والشج ، فكانوا يأتون النبي ﷺ بين مضروب ومشجوج في رأسه ، ويشتكون إليه ، فيأمرهم بالصبر ، ويقول لهم : «إني لم أومر بقتالهم» حتى هاجر فنزلت هذه الآية في السنة الثانية من الهجرة.

وهي في رأي كثير من السلف كابن عباس وعائشة ومجاهد والضحاك وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل وقتادة والزهري : أول آية نزلت في القتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية ، وهو الظاهر ، ويؤيده سبب النزول المتقدم ذكره ، وذكرت الآية بعد الوعد بالمدافعة والنصر.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية : أول آية نزلت في القتال : ﴿وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ ..﴾ [البقرة ٢ / ١٩٠].

وفي الإكليل للحاكم : إن أول آية نزلت فيه : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ..﴾ [التوبة ٩ / ١١١].

فعلى القول الأول للأكثرين : يكون المقصود بالآية : ﴿أُذِنَ ..﴾ إباحة القتال ومشروعيته ، والمأذون فيه هو القتال حقيقة ، وحذف لدلالة السياق عليه ، والمراد بهم المهاجرون ، بدليل وصفهم بالإخراج من الديار بغير حق.

وعلى القول الثاني لبعضهم : يكون المراد حكاية الإذن الحاصل من قبل توطئة لبيان أسباب المشروعية.

وعلى قراءة المبني للمجهول ﴿يُقَاتَلُونَ﴾ يكون وصفهم بالقتال الواقع عليهم فعلا على حقيقته ، سواء قيل : إنها أول آية نزلت في القتال أم لا ؛ لأن قتال المشركين واضطهادهم لهم ، كان حاصلا على كل حال.

وعلى قراءة المبني للمعلوم يقاتلون إذا قيل : إنها ليست أول آية نزلت في القتال يكون وصفهم بالقتال على حقيقته أيضا ، وأما إذا قيل : إنها أول آية نزلت في الجهاد فيكون وصفهم بالقتال إما على معنى أو على تقدير : إرادة القتال ، أي يريدون قتال المشركين ويحرصون عليه ، وإما على إرادة استحضار ما يكون منهم في المستقبل ، أي ما سيعدون أنفسهم عليه من لقاء المشركين.

وعلى كل حال يكون المراد بالآية بيان سبب الإذن في القتال وهو دفع الظلم والإيذاء ، فإن المشركين آذوا رسول الله ﷺ بأشد أنواع الإيذاء الأدبية والجسدية ، فإنهم اتهموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ووضعوا التراب على رأسه ، وألقوا سلا جزور على كتفيه وهو ساجد بين يدي ربه ، وأغرت ثقيف سفهاءهم حتى رموه بالحجارة وأدموه واختضب نعلاه بالدم. وآذوا أيضا أتباعه وأنصاره فعذبوهم بالضرب والجلد ، والقتل ، والإلقاء في حر الشمس في بطحاء مكة ، ووضعوا الحجارة على صدورهم ، وحاولوا فتنتهم عن دينهم ، فلم يزدهم التعذيب إلا إصرارا على التمسك بعقيدتهم ، فلا يصدر عنهم إلا القول : أحد أحد.

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

ثم وعد الله تعالى هؤلاء المعذبين المستضعفين بالنصر فقال :

﴿وَإِنَّ اللهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي إن الله وحده هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته ، وهو حينئذ معهم يؤيدهم بنصره ، وقد فعل ، فأعزهم وأهلك أعداءهم. هذا رأي ابن كثير [١]. ويكون المقصود تنبيه المسلمين إلى أن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، وأنهم مدعوون للجهاد والكفاح ، وإثبات الكفاءة والذات ، وأن الجزاء مرتبط بالعمل. وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا وعد بالنصر ، وتأكيد للوعد في الآية المتقدمة بالدفاع عن المؤمنين ، وتصريح بأن الوعد السابق لا يراد منه مجرد تخليصهم من أيدي أعدائهم ، بل نصرهم عليهم.

وإنما تأخر تشريع القتال إلى ما بعد الهجرة وإلى الوقت المناسب ؛ لأن المؤمنين في مكة كانوا قلة ، وكان المشركون أكثر عددا ، فلو أمر المسلمون ـ وهم أقل من العشر ـ بقتال المشركين ، لشق عليهم.

ثم وصف الله تعالى حال هؤلاء المؤمنين بقوله :

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللهُ﴾ أي إن هؤلاء المؤمنين المعتدى عليهم هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة بغير حق ، وهم محمد ﷺ وأصحابه ، وما كان لهم من إساءة إلى قومهم ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ١] وقال سبحانه في قصة أصحاب الأخدود : ﴿وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج ٨٥ / ٨].

هذا أول أسباب المشروعية وهو الطرد من الأوطان بغير حق ، ثم ذكر تعالى

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٢٢٥

سببا آخر وهو الدفاع عن حرية العبادة في الأرض ، وحماية الأماكن المقدسة ، فقال :

﴿وَلَوْ لا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ ..﴾ هذه هي سنة التدافع من أجل الحفاظ على التوازن بين البشر ، والقتال مشروع لحماية أماكن العبادة ، وإقرار مبدأ حرية العبادة. والمعنى : لو لا أنه تعالى يدفع بقوم عن قوم ، ويكفّ شرور أناس من غيرهم ، ولو لا تشريع القتال دفاعا عن الوجود والحرمات ، لهدّمت مواطن العبادة ، سواء كانت معابد للرهبان أو للنصارى أو لليهود أو للمسلمين ، التي يذكر فيها اسم الله ذكرا كثيرا.

ويلاحظ وجود التنقل في بيان مواضع العبادة من الأقل إلى الأكثر ، ومن الأضيق إلى الأوسع ، فإن المساجد أكثر ارتيادا ، وأصح عبادة وأسلم قصدا. وكذلك قدمت الصوامع والبيع في الكلام على المساجد ؛ لأنها أقدم وجودا. قال بعض العلماء : هذا ترقّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد ، وهي أكثر عمّارا ، وأكثر عبّادا ، وهم ذوو القصد الصحيح [١].

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي وليؤيّدنّ الله بنصره الذين يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة التوحيد ورفع لواء دينه ، كقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ ، وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ٧ ـ ٨].

وهذا إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ عن مغيبات المستقبل وعما ستكون عليه سيرة المهاجرين رضي الله عنهم إن مكنهم في الأرض ، وبسط لهم في الدنيا ، وكيف يقومون بأمر الدين [٢].

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٢٢٦

(٢) الكشاف : ٢ / ٣٥٠

﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي إن الله هو القوي القادر على نصر أهل طاعته المجاهدين في سبيله ، وهو المنيع الذي لا يقهر ، ولا يغلبه غالب ، كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٧١ . ١٧٣]. وقوله سبحانه : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١].

ثم وصف الله تعالى المهاجرين المؤمنين الجديرين بالنصر فقال :

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ ..﴾ أي إن هؤلاء المهاجرين الذين بوأهم الله السلطة على الناس ، وأعطاهم النفوذ بين العالم إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطة ، فإنهم يأتون بالأمور الأربعة : وهي إقامة الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل ، وإيتاء الزكاة الواجبة ، والأمر بالمعروف (وهو ما أمر به شرعا وحسن عقلا) والنهي عن المنكر (وهو ما حظر شرعا وقبح عقلا) فدعوا إلى توحيد الله وإطاعته ، ونهوا عن الشرك وقاوموا أهله. وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور ٢٤ / ٥٥].

﴿وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي إن مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره في الثواب والعقاب على ما عملوا ، كقوله تعالى : ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٨] وفيه تأكيد لما وعد تعالى من نصر أوليائه وإعلاء كلمتهم.

فمن تأمل النصر على الأعداء من اليهود وغيرهم ، فليعمل بهذه الأوصاف الأربعة التي التزمها المهاجرون والمجاهدون الأولون.

ومجمل الآيات أنه إنما أحللت لهم القتال ؛ لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب مع الناس إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا في الأرض أقاموا الصلاة.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات الكريمات إلى غرر الأحكام التالية :

١ ـ وعد الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى بالمدافعة عن المؤمنين ، وبحفظهم وصونهم من شر الأشرار وكيد الفجار ، وبنصرهم على أعدائهم ، ثم نهى نهيا صريحا عن الخيانة والغدر وكفران النعم.

٢ ـ أباح الله تعالى القتال لمن يصلح له لدفع أذى الكفار واعتدائهم ، ودفاعا عن النفس وحق الحياة العزيزة الكريمة. قال الضحّاك : استأذن أصحاب رسول الله ﷺ في قتال الكفار إذ آذوهم بمكة ، فأنزل الله : ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ، فلما هاجر نزلت : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ وهذا ـ كما يقول العلماء القدامى ـ ناسخ لكل ما في القرآن من إعراض وترك وصفح ، وهي أول آية نزلت في القتال.

وكانت قريش قد اضطهدت المسلمين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ، ومعذّب ، وبين هارب في البلاد مغرّب ، فمنهم من فرّ إلى أرض الحبشة ، ومنهم من خرج إلى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى [١]. والخلاصة : لقد أذنوا بالقتال بسبب كونهم مظلومين ، وكان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا ، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه ، فيقول لهم : اصبروا ، فإني لم أومر بقتال ، حتى هاجر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية [٢].

وفي هذه الآية دليل على أن الإباحة من الشرع ، خلافا للمعتزلة ؛ لأن قوله : ﴿أُذِنَ﴾ معناه أبيح ، وهو لفظ موضوع في اللغة لإباحة كل ممنوع.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣ / ١٢٨٥

(٢) تفسير الرازي : ٢٣ / ٣٩

٣ ـ إن من مظاهر ظلم المشركين للمؤمنين هو إخراجهم من أوطانهم ، لا لشيء ، لكن لقولهم : ربنا الله وحده ، فإن أهل الأوثان أخرجوهم من ديارهم بتوحيدهم.

وفي هذه الآية دليل على جواز نسبة الفعل الموجود من الملجأ المكره إلى الذي ألجأه وأكرهه ؛ لأن الله تعالى نسب الإخراج إلى الكفار ، كما في آية : ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة ٩ / ٤٠].

٤ ـ ومن أسباب مشروعية القتال : الدفاع عن الحرمات وأماكن العبادات ، فلو لا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك على نواصي الأمور ، وأشاعوا الفوضى ، ودمروا مواضع العبادات ، وتغلبوا على الحق في كل أمة.

وهذا يدل على أن الجهاد أمر قديم في الأمم ، وبه صلحت الشرائع ، وارتفعت به راية التوحيد ، وظهرت بوادر الصلاح ، ونواة التقدم والحضارة ، وأرسيت معالم حرية الدين ، وبرزت معالم الأخلاق القويمة والتهذيب البشري.

٥ ـ تضمنت هذه الآية المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيعهم وبيوت نيرانهم ، لكن لا يتركون أن يحدثوا ما لم يكن ، ولا يزيدون في البنيان لا سعة ولا ارتفاعا ، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلوا فيها ، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها. وجاز أن ينقض المسجد ليعاد بنيانه ؛ وقد فعله عثمان رضي الله عنه بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم.

٦ ـ إن الله تعالى القوي القادر ، العزيز المنيع الجليل الشريف ينصر في حكمه وشرعه من ينصر دينه ونبيه ، والله لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه ، فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور ، وعدوه هو المقهور.

٧ ـ إن المسلمين في جهادهم دعاة بناء ومجد وحضارة ، وإصلاح وتقويم ، فهم

إن كانت السلطة لهم في الدنيا لازموا أوصافا أربعة : هي إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف الذي هو خير ، والنهي عن المنكر الذي هو شر محض.

قال سهيل بن عبد الله : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه. وليس على الناس أن يأمروا السلطان ؛ لأن ذلك لازم له ، واجب عليه ، ولا يأمروا العلماء ، فإن الحجة قد وجبت عليهم.

٨ . في قوله سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة ، وأن الأمور ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة ، فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبدا.

الاعتبار بهلاك الأمم السابقة

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَهِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)﴾

الإعراب :

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ : الكاف في موضع نصب بفعل مقدر يفسره الظاهر ، وتقديره : وكأين من قرية أهلكتها ، وهذا إذا جعلت أهلكتها خبرا. فإن جعلتها صفة ل ﴿قَرْيَةٍ﴾ لم يجز أن تكون مفسرة لفعل مقدر ؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف.

﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ معطوف بالجر على قوله ﴿قَرْيَةٍ﴾ وتقديره : وكم من بئر معطلة ، وقيل : هو معطوف على ﴿عُرُوشِها﴾.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ..﴾ تسلية له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس وحده منفردا في التكذيب ، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تأنيث قوم باعتبار المعنى. ﴿وَعادٌ﴾ قوم هود. ﴿وَثَمُودُ﴾ قوم صالح. ﴿وَأَصْحابُ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب. ﴿وَكُذِّبَ مُوسى﴾ كذبه القبط ، لا قومه بنو إسرائيل ، لذا غيّر فيه النظم ، وبني الفعل للمفعول ؛ لأن قومه لم يكذبوه ، وإنما كذبه القبط ، ولأن تكذيبه كان أشنع. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ﴾ أمهلتهم بتأخير العقاب لهم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعذاب أي أهلكتهم. ﴿نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم ، بتغيير النعمة محنة ، والحياة هلاكا ، والعمارة خرابا. والاستفهام ب ﴿فَكَيْفَ﴾ للتقرير ، أي هو واقع موقعه ، ويراد به التعجب.

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها﴾ أي كم من قرية أهلكتها ، أي بإهلاك أهلها. ﴿وَهِيَ ظالِمَةٌ﴾ أي أهلها بكفرهم. ﴿خاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلى عُرُوشِها﴾ سقوفها ، أي ساقطة حيطانها على سقوفها أو خالية. ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم من بئر معطلة ، أي متروكة بموت أهلها عطفا على ﴿قَرْيَةٍ﴾. ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ رفيع أي مرفوع حال ، بموت أهله ، أو مجصص مبني بالشّيد أي الجصّ ، أخليناه عن ساكنيه ، وذلك يقوي أن معنى ﴿خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ خالية مع بقاء عروشها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي كفار مكة ، وهو حثّ لهم أن يسافروا ، ليروا مصارع المهلكين ، فيعتبروا. ﴿يَعْقِلُونَ بِها﴾ أي يدركون ما يجب أن يعقل ، وما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال بما نزل بالمكذبين قبلهم. ﴿أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها﴾ ما يجب أن يسمع من الوحي ، والتذكير بحال من يشاهد آثارهم. ﴿فَإِنَّها﴾ الضمير عائد للقصة أو مبهم يفسره الإبصار ، أي أن الضمير ضمير الشأن والقصة ، وهو يجيء مذكرا ومؤنثا. ﴿وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي تعمى عن الاعتبار ، أي ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما في سوء استعمال عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد. وذكر الصدور للتأكيد.

قال ابن عباس ومقاتل : لما نزلت : ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى﴾ قال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، أنا في الدنيا أعمى ، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت : ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ﴾ المتوعد به. ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ بإنزال العذاب ، لامتناع الخلف في خبره ، فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين ، ولكنه صبور لا يعجل بالعقوبة. ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من أيام الآخرة بسبب العذاب. ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدنيا ، وهو بيان لتناهي صبره وتأنيه.

نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث ، لقوله : ﴿فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٧٠] وقيل : نزلت في أبي جهل بن هشام ، لقوله : ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي من أهل قرية ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب. ﴿أَمْلَيْتُ لَها﴾ أمهلتها كما أمهلتكم. ﴿وَهِيَ ظالِمَةٌ﴾ مثلكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُها﴾ بالعذاب أي أخذت أهلها. ﴿الْمَصِيرُ﴾ المرجع ، أي وإلى حكمي مرجع الجميع.

المناسبة :

بعد أن بين الله تعالى أن المشركين الكفار أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق ، وأذن في مقاتلتهم ، وضمن للرسول والمؤمنين النصرة عليهم ، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول ﷺ في الصبر على ما هم عليه من إيذائه وإيذاء المؤمنين بالتكذيب وغيره ، ممن خالفه من قومه.

التفسير والبيان :

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ .. نَكِيرِ﴾ أي إن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون ، فلست فريدا في هذا ولا بدعا من الرسل ، وإنما هي سنة الأمم الغابرة ، فقد كذبت قبلهم قوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم إبراهيم ولوط ، وأصحاب مدين قوم شعيب ، وكذب القبط الذين أرسل إليهم موسى ، مع ما جاءهم به أنبياؤهم من الآيات البينات والدلائل الواضحات ، فأنظرت

العذاب عن الكافرين وأخرتهم إلى الوقت المعلوم عندي ، ثم أخذتهم بالعذاب والعقوبة وأهلكتهم ، فانظر كيف كان إنكاري عليهم بتدميرهم ومعاقبتي لهم؟!

ويلاحظ أنه لم يقل : وقوم موسى ؛ لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط ، وفرعون وقومه.

وما جرى على المثيل يجري على مثيله ، فإني سأفعل بالمكذبين من قومك مثلما فعلت بأمثالهم ، وإن أمهلتهم ، فإني منجز وعدي فيهم : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج ٨٥ / ١٢] فلا تتعجل العذاب.

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه : أنا ربكم الأعلى ، وبين إهلاك الله أربعون سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ : ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

هذه هي سنة التكذيب ، وأما العقاب فهو كما قال تعالى :

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ... قَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ أي كم من قرية أهلكتها ، وهي ظالمة أي مكذبة لرسلها ، والمراد أهلها ، فأصبحت ديارهم ساقطة حيطانها على سقوفها ، أي قد قربت منازلها ، وتعطلت حواضرها ، أو أصبحت خالية من أهلها مع بقاء عروشها على حالها وسلامتها.

وكم من بئر معطلة أي لا يستقى منها ، ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها ، والازدحام عليها ، وكم من قصر مشيد دمّر أو بقي بعد فناء أهله؟! والمشيد : المجصص : المبيض بالجص ، أو المرفوع البنيان.

والمعنى الإجمالي للآية : كم قرية أهلكناها ، وكم بئر عطلناها عن سقاتها ، وقصر مشيد أخليناه عن ساكنيه ، فترك ذلك ، لدلالة ﴿مُعَطَّلَةٍ﴾ عليه؟!

وذلك كما قال تعالى : ﴿وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً﴾ [الأنبياء ٢١ / ١١].

ثم لفت أنظارهم إلى ضرورة العبرة بما حدث وشاهدوا فقال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ، أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها﴾ هذا حثّ على السفر ، والاتعاظ بالفكر ، والتأمل بالبصيرة ، أي هلا يسافر هؤلاء في البلاد ، فيتأملوا بما حدث من مصارع القوم ، وينظروا بأعينهم ما وقع ، ويشاهدوا آثارهم ، ويفكروا بعقولهم في النتائج ، ويسمعوا الأخبار بآذانهم ، ليقفوا على الحقائق ويطلعوا على الأسباب ، ويدركوا الأسرار ، فيعتبروا بما شاهدوا ورأوا ، ويقلعوا عما هم فيه من شرك وتكذيب لرسول الله ، وينيبوا إلى ربهم الذي خلقهم ، وأقام لهم الأدلة والبراهين في الكون على وجوده ووحدانيته.

﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ ، وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي ولكنهم لم يفكروا ولم يعتبروا ولم ينظروا ، لا لأنهم قوم عمي البصر ، وإنما هم عمي البصائر ، فليس العمى عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة ، وإن كانت أبصارهم سليمة ، فإنهم عطلوا قدراتهم الفكرية وعقولهم ، فلم يتفحصوا حقائق الأمور ، ولم ينفذوا إلى العبر.

ذكر الرازي أن الآية تدل على أن العقل هو العلم ، وأن محل العلم هو القلب ؛ لأن المقصود من قوله : ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها﴾ العلم ، وقوله : ﴿يَعْقِلُونَ بِها﴾ كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل [١]. وأضاف العقل إلى القلب ؛ لأنه محله ، كما أن السمع محله الأذن.

وبعد أن أبان تعالى ما هم عليه من التكذيب ، ذكر أنهم قوم طائشون ، حمقى ، يستهزئون بحلول العذاب ، فقال :

---

(١) تفسير الرازي : ٢٣ / ٤٥

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ﴾ أي يتعجل وقوع العذاب الذي تنذرهم به هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قالُوا : اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢] وقال سبحانه : ﴿وَقالُوا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ [ص ٣٨ / ١٦].

﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾ أي والعذاب آت حالّ لا بد منه ، فإن الله لا يخلف وعده الذي وعدهم به ، وهو إقامة الساعة ، والانتقام من أعدائه ، والإكرام لأوليائه ، وما وعده إياهم ليصيبنهم ولو بعد حين.

﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي إن الله تعالى حليم لا يعجل ، ومن حلمه واستقصاره المدد الطوال أن يوما واحدا عنده كألف سنة مما تعدون ، أي إن يوما من أيام العذاب عند ربك ، التي تحل بهم في الآخرة يعادل لشدة عذابه ألف سنة من أيام الدنيا ، فأين هم من عذاب ربك؟ وإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء ، وإن أجّل وأنظر وأملى.

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة ٣٢ / ٥].

والخلاصة : أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة ، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه ، فاقتضت حكمته الإمهال.

وتأكيدا للإنظار والإمهال ، وإن طال الأمد ، قال تعالى :

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، ثُمَّ أَخَذْتُها وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي وكثيرا من القرى أملى الله لها ، وأخّر عنها العذاب وإهلاكها ، مع أنها مستمرة في

ظلمها وهو الكفر والمعصية ، فاغتروا بذلك التأخير ، ثم أخذتها بأن أنزلت العذاب بها ، أي بأهلها ، فتأخير العذاب من باب الإمهال ، لا الإهمال ، كما جاء في الحديث الصحيح : «إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه ، لم يفلته».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن نجاح النبي محمد ﷺ في رسالته متوقف أولا على الصبر على أذى قومه ، لذا علمه ربه دروس الصبر ، فكانت هذه الآيات تسلية له وتعزية ، فقد كان قبله أنبياء كذّبوا ، ذكر الله سبعة منهم ، فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين ، فما عليه إلا أن يقتدي بهم ويصبر.

٢ ـ من حكمته تعالى وحلمه أنه كان يؤخر العقوبة عن أولئك الكفار المكذبين رسلهم ، الملحدين الجاحدين ربهم ، ثم يعاقبهم ، فتكون عقوبتهم عبرة للمعتبر ، مدعاة للنظر والتأمل : كيف كان تغييره ما كانوا فيه من النعم بالعذاب والهلاك.

وكذلك يفعل بالمكذبين من قريش ؛ إذ ما جرى على النظير يجري على نظيره عقلا وعادة وعدلا.

٣ ـ تدل هذه الآية ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ﴾ على أنه سبحانه يفعل بقوم النبي ﷺ كل ما فعل بالأقوام الآخرين الغابرين إلا عذاب الاستئصال ، فإنه لا يفعله بقوم محمد ﷺ ، وإن كان قد مكّنهم من قتل أعدائهم وثبّتهم.

قال الحسن البصري : السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين :

أحدهما ـ أن عند الله حدا من الكفر من بلغه عذّبه ، ومن لم يبلغه لم يعذبه.

والثاني ـ أن الله لا يعذب قوما حتى يعلم أن أحدا منهم لا يؤمن. فأما إذا حصل الشرطان : وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر ، ويعلم الله أن أحدا منهم لا يؤمن ، فحينئذ يأمر الأنبياء ، فيدعون على أممهم ، فيستجيب الله دعاءهم ، فيعذبهم بعذاب الاستئصال ، وهو المراد من قوله : ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ أي من إجابة القوم ، وقوله لنوح : ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾. وإذا عذبهم فإنه ينجي المؤمنين ؛ لقوله : ﴿فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا﴾ أي بالعذاب ، نجينا هودا [1].

٤ ـ كثير من أهل القرى أهلكهم الله ، حال استمرارهم على الظلم وهو الكفر ، فتصبح بيوتهم خاوية على عروشها ، أي ساقطة أو خالية من أهلها ، كما تصبح آبارهم معطلة عن وارديها وسقاتها ، وقصورهم المرفوعة البنيان خربة أو خالية من سكانها ، فتحل الوحشة محل الأنس ، والإقفار بعد العمران.

وفي ذلك موعظة وعبرة وتذكرة ، وتحذير من مغبّة المعصية ، وسوء عاقبة المخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه.

٥ ـ قوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثّ واضح على الاعتبار بآثار الأمم البائدة التي أهلكها الله بكفرها وظلمها ، فإذا اعتبر الناس بذلك كانوا منتفعين بحق بحواسهم وإدراكاتهم وعقولهم ، وإن لم يعتبروا كانوا معطلين لتلك الطاقات والنعم ، فاستحقوا العقاب.

ومن كان في الدنيا أعمى بقلبه عن الإسلام ، فهو في الآخرة في النار.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٣ / ٤٣

٦ ـ لو عرف الناس حال عذاب الآخرة ، وأن يوم العذاب فيه لشدته كألف سنة من سني الدنيا ، لما استعجلوه ، فإن الله لا يخلف وعده في إنزال العذاب ، قال الزجاج : استعجلوا العذاب فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء ، وقد نزل بهم في الدنيا يوم بدر.

وقال عكرمة : أعلمهم الله إذا استعجلوا بالعذاب في أيام قصيرة ، أنه يأتيهم به في أيام طويلة.

وقال الفرّاء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم في الآخرة.

والخلاصة : أن الآية ردّ على المشركين الذين استعجلوا العذاب تكذيبا واستهزاء ، لعدم إيمانهم بيوم القيامة ، وإعلام قاطع بوقوع العذاب.

٧ ـ كثير من أهل القرى أمهلهم الله تعالى مع عتوهم ، ثم أخذهم بالعذاب ، وإلى الله المصير ، أي إليه المرجع والمآب في الحكم والقضاء.

تحديد مهمة النبي ﷺ

﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾

البلاغة :

يوجد مقابلة بين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ...﴾ وبين ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ ...﴾.

المفردات اللغوية :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مكة وغيرهم. ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بيّن الإنذار : وهو التخويف ، وأنا

أيضا بشير المؤمنين ، واقتصر على الإنذار مع عموم الخطاب بقوله : ﴿لَكُمْ﴾ ومع ذكر الفريقين : المؤمنين والكافرين ؛ لأن صدر الكلام ومساقه للمشركين. وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة في غيظ أعدائهم المشركين.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما بدر منهم من الذنوب. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنة ، والكريم من كل نوع : ما يجمع فضائله. ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا﴾ القرآن بالرد والإبطال والطعن بأنها سحر وشعر وأساطير. ﴿مُعاجِزِينَ﴾ أي مسابقين مغالبين لنا أي يظنون أن يفوتونا بإنكار البعث والعقاب ، وقرئ معجزين أي مثبطين غيرهم عن الإيمان. ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى استعجال المشركين العذاب تكذيبا له واستهزاء به ؛ لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة ، أردف ذلك بإيضاح وظيفة الرسول ﷺ وهي الإنذار والتخويف ، وأنه بعث للإنذار ، فاستهزاؤهم بذلك لا يمنعه منه.

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول للكفار حين طلبوا منه وقوع العذاب واستعجلوه به : يا أيها المشركون المستعجلون مجيء العذاب إنما أرسلني الله إليكم نذيرا لكم بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من حسابكم شيء ، بل أمركم إلى الله : إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ، كما قال : ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ [الرعد ١٣ / ٤١].

ومهمتي كما تشمل الإنذار تتضمن التبشير ، وهذا مضمون الأمرين :

١ . ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي فالذين آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم ، وثواب حسن ولو على القليل من حسناتهم ، وجنة عرضها السموات والأرض ، فالرزق الكريم هو الجنة التي وصفها الله سبحانه بقوله : ﴿وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ

﴿الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٧١] ووصفها الرسول ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر».

٢ . ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي والذين جهدوا في إبطال آياتنا ، وردّ دعوة الدين ، والتكذيب بها ، وثبطوا الناس عن متابعة النبي ﷺ ، ظنا منهم أنهم يعجزوننا ويتفلتون من أمرنا وبعثنا لهم وأننا لا نقدر عليهم ، فهم أهل النار الحارة الموجعة ، الشديد عذابها ونكالها ، المقيمون فيها على الدوام ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ ، بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل ١٦ / ٨٨]. وقد شبههم بالصاحب من حيث الدوام.

فقه الحياة أو الأحكام :

يؤخذ من الآيات ما يأتي :

١ . إن وظيفة الرسول ﷺ هي الإنذار والتبشير ، إنذار من عصاه بالنار وتبشير من أطاعه بالجنة.

٢ . للمؤمنين الذين يعملون الصالحات أي الطاعات والقربات الجنة والمغفرة للذنوب والرضوان.

٣ . للكافرين المعاندين الظانين ألا بعث وأن الله لا يقدر عليهم النار المستعرة التي يخلدون فيها على الدوام.

إحكام الوحي وصونه عن الشياطين

قصة الغرانيق

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٥٧)﴾

الإعراب :

﴿وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ : الضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعود إلى الآلف واللام في قوله : ﴿الْقاسِيَةِ﴾. وهذا يدل على أن الألف واللام في حكم الأسماء ؛ لأن الحروف لا حظّ لها في الضمير البتة ، وتقديره : فويل للذين قست قلوبهم ، ولهذا التقدير عاد الضمير. ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي كائن مستقر لله ، وهو ناصب للظرف.

البلاغة :

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ جناس اشتقاق.

﴿فَيَنْسَخُ يُحْكِمُ﴾ بينهما طباق. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر ، والأصل وإنهم قضاء عليهم بالظلم والمعاداة.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ في قوله ﴿عَقِيمٍ﴾ استعارة ، شبه يوم القيامة الذي لا ليل بعده ولا نهار بالمرأة العقيم التي لا تلد ، لانقضاء الزمان ، بعكس ما قبله من الأيام التي تعقبها الليالي ، فهي بمنزلة الولدان لليالي.

المفردات اللغوية :

﴿رَسُولٍ﴾ هو نبي أمر بالتبليغ ، أو في الأصح من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها ، والنبي : أعم من الرسول ، فهو من لم يؤمر بالتبليغ ، أو في الأصح من بعثه الله بتقرير شرع سابق ، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ، ولذلك شبه النبي ﷺ علماء أمته بهم ، ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، قيل : فكم الرسل منهم؟ قال : ثلاث مائة وثلاثة عشر جما غفيرا.

﴿تَمَنَّى﴾ قرأ ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾ قراءته ، وألقى الشيطان أي ما ليس من المقروء الموحى به مما يرضاه المرسل إليهم ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ﴾ يبطل ويزيل ﴿يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ يثبتها ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس وبإلقاء الشيطان ما ذكر ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم ، فإنه يفعل ما يشاء.

﴿فِتْنَةً﴾ أي محنة وابتلاء واختبارا ﴿مَرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم الكفار الذي قست قلوبهم عن قبول الحق ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾ عداوة شديدة وبعد عن الحق ، وخلاف طويل مع النبي ﷺ والمؤمنين.

﴿الْعِلْمَ﴾ التوحيد والقرآن أو أهل العلم المجردون عن التعصب والعناد ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحق النازل من عند الله ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بالقرآن أو بالله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ تطمئن أو تنقاد وتخشى وتخضع ﴿صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الطريق القويم وهو دين الإسلام ، أو النظر الصحيح الذي يوصلهم إلى الحق.

﴿مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِنْهُ﴾ أي القرآن ﴿السَّاعَةُ﴾ القيامة أو الموت ، أو أشراط الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم منفرد عن سائر الأيام لشدته ، والمراد به يوم حرب يقتلون فيه ، كيوم بدر ؛ لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كالعقم ، أو لأنه لا خير فيه كالريح العقيم التي لا تأتي بخير ، أو هو يوم القيامة لا ليل بعده.

﴿الْمُلْكُ﴾ السلطان والتصرف ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة ، والتنوين فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغاية ، أي يوم تزول مريتهم ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَحْكُمُ﴾ يقضي بين الكافرين

والمؤمنين ﴿مُهِينٌ﴾ شديد مذل بسبب كفرهم. ويلاحظ أن إدخال الفاء في خبر الذين الثاني: ﴿فَأُولئِكَ﴾ دون الأول : ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى ، وأن عقاب الكفار مسبب عن أعمالهم ، ولذلك قال : ﴿لَهُمْ عَذابٌ﴾ ولم يقل : في عذاب.

سبب النزول :

ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق ، ورجوع كثير من مهاجرة الحبشة إلى مكة ، ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا. وذكروا روايات مختلفة ، كلها من طرق مرسلة ، وليست مسندة من وجه صحيح كما قال ابن كثير [١]. منها ما رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير : أن النبي ﷺ جلس في ناد من أندية قومه ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شيء ، فينفروا عنه يومئذ ، فأنزل الله عليه : ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى﴾ فقرأ ، حتى إذا بلغ إلى قوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى﴾ ألقى الشيطان كلمتين : تلك الغرانيق [٢] العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى.

فتكلم بها ، ثم مضى بقراءة السورة كلها ، ثم سجد في آخر السورة ، وسجد القوم جميعا معه ، وقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍ﴾ الآية.

ورفع الوليد بن المغيرة ترابا إلى جبهته وسجد عليه ، وكان شيخا كبيرا ، فلما أمسى النبي ﷺ أتاه جبريل ، فعرض عليه السورة ، فلما بلغ الكلمتين قال : ما جئتك بهاتين ، فأوحى الله إليه : ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ ، وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٢٢٩

(٢) تلك الغرانيق إما الأصنام وإما إشارة إلى الملائكة أي هم الشفعاء ، لا الأصنام ؛ لأن الكفار كانوا يعتقدون أن الأوثان والملائكة بنات الله ، كما حكى الله عنهم.

تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ، ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً﴾ فما زال مغموما حتى نزلت : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

قال ابن العربي وعياض : إن هذه الروايات باطلة لا أصل لها [١]. وقال الرازي [٢] : أما أهل التحقيق فقد قالوا : هذه الرواية باطلة موضوعة ، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن فوجوه منها قوله تعالى : ﴿قُلْ : ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ﴾ [يونس ١٠ / ١٥] وقوله : ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ [النجم ٥٣ / ٣ ـ ٤] وقوله : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ، لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة ٦٩ / ٤٤ ـ ٤٦] فلو أنه قرأ عقيب آية النجم المذكورة : تلك الغرانيق العلا ، لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال ، وذلك لا يقوله مسلم.

وأما السنة : فهي ما روي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة : أنه سئل عن هذه القصة ، فقال : هذا وضع من الزنادقة. وقال البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل. وأيضا : فقد روى البخاري في صحيحة أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم ، وسجد فيها المسلمون والمشركون ، والإنس والجن ، وليس فيه حديث الغرانيق.

وأما المعقول فمن وجوه : منها : أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان ، فقد كفر ؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان.

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي : ٣ / ١٢٨٨ ـ ١٢٩٠ ، تفسير القرطبي : ١٢ / ٨٢

(٢) تفسير الرازي : ٢٣ / ٥٠

قال الرازي : وأقوى الوجوه : أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الامان عن شرعه ، أي شرع الله ، وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ، ويبطل قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ، فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٥ / ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه. فبهذا عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة.

التفسير والبيان :

تبين من الكلام السابق في سبب النزول أن قصة الغرانيق موضوعة مكذوبة وضعها الزنادقة ، لذا يجب تفسير الآيات على نحو آخر ، خلافا لما عليه كثير من المفسرين. ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة ، بها وقعت الفتنة ، ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء ، لكن المقطوع به أن النبي ﷺ عملا بدلالة الآيات السابقة الدالة على عصمته ، وأنه لا ينطق عن الهوى أنه لم يجار الشيطان فيما ألقاه ، ولم يردد على لسانه ما وسوس به. وأحسن تأويل للآيات كما قال القرطبي : هو أن النبي ﷺ كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلا ، ويفصّل الآي تفصيلا في قراءته ، كما روى الثقات عنه ، فيمكن ترصّد الشيطان لتلك السكتات ، ودسّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكيا نغمة النبي ﷺ ، بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار ، فظنّوها من قول النبي ﷺ وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين ، لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي ﷺ في ذمّ الأوثان وعيبها ما عرف عنه [١].

وعلى هذا يكون معنى الآية : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ ..﴾ أي وما أرسلنا يا محمد قبلك رسولا ولا نبيا إلا إذا قرأ وتلا كلام الله ، ألقى الشيطان في قراءته

---

(١) تفسير القرطبي : ١٢ / ٨٢ ـ ٨٣

وتلاوته بعض الأقاويل والأباطيل. وقوله ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍ﴾ دليل على تغاير الرسول والنبي ، والفرق بينهما كما في الكشاف : أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه ، والنبي غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله. وقد ذكرت في المفردات التعريف المشهور والأصح للرسول والنبي وعدد الرسل والأنبياء.

﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾ أي فيزيل الله ما وسوس به الشيطان من الكلمات والخرافات التي تعلّق بها بعض الكفار ، ثم يجعل آياته محكمة محصّنة مثبّتة ، لا تقبل التشويه والتزييف أو الزيادة أو النقصان.

وهذا يشبه محاولات بعض القساوسة اليوم دسّ بعض الأكاذيب والشبهات في مبادئ الإسلام وتعاليمه ، وقلب الحقائق ، وتزييف الوقائع ، وتأويل بعض الآيات على وجه غير صحيح ، ثم تتبدد تلك المساعي الخبيثة ، وتدحض تلك المفتريات على يد بعض العلماء الأثبات من المسلمين أو من غيرهم ، وتدفن تلك الآراء المدسوسة في النشرات والكتب المدرسية وغيرها.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي والله عليم بكل شيء ، وبما أوحى إلى نبيه ، وبما يكون من الأمور والحوادث ، لا تخفى عليه خافية ، حكيم في تقديره وخلقه وأمره وأفعاله ، له الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، فيجازي المفتري بافترائه ، ويظهر الحق للمؤمنين ، وتتبدد الظلمة في نفوس المنافقين ، وهذا ما أبانه الله تعالى في موقف الفريقين ، فقال :

١ . ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ليجعل ما يوسوس به الشيطان فتنة أي ابتلاء واختبارا للمنافقين الذين في قلوبهم شك وشرك وكفر ونفاق ، وللمشركين أو اليهود المعاندين قساة

القلوب ، حين فرحوا بإلقاء الشيطان بعض الكلمات ، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله ، وإنما كان من الشيطان.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي وإن هؤلاء الظالمين أنفسهم من المنافقين والكفار لفي مخالفة وعصيان ، ومشاقة لله تعالى ولرسوله ﷺ ، وعناد بعيد من الحق والصواب.

٢ . ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي ولكي يعلم أهل العلم النافع الذين يفرقون به بين الحق والباطل ، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق الثابت الصحيح من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه ، وصانه أن يختلط به غيره ، فيصدقوا به وينقادوا له ، وتخضع له قلوبهم ، وتذل وتخشع له نفوسهم ، وتعمل بأحكامه وآدابه وشريعته ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت ٤١ / ٤١ ـ ٤٢].

﴿وَإِنَّ اللهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي وإن الله لمرشد المؤمنين بالله ورسوله إلى طريق قويم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه بتأويل سليم للمتشابه في الدين ، وتفصيل واضح للمجمل منه ، وفي الآخرة يهديهم الطريق الصحيح الموصل إلى درجات الجنان ، ويصرفهم عن دركات النيران.

ومصير الفريق الأول ما قال تعالى :

﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ... عَقِيمٍ﴾ أي ولا يزال الكفار في شك وريب من هذا القرآن أو من الرسول ، فضمير ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى القرآن أو الرسول ﷺ ، أو لا يزال الكفار في ريب منه أي مما ألقى الشيطان في قلوبهم حين قراءة القرآن عليهم ، حتى تأتيهم الساعة ، أي يوم القيامة أو مقدماتها أو

الموت ، بغتة أي فجأة من غير أن يشعروا ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ، أي يوم القيامة أو يوم حرب مدمرة كيوم بدر. وجعل الساعة غاية لكفرهم وأنهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء. وإنما وصف يوم القيامة بالعقيم لأنه لا يأتي بعده ليل ، ووصف يوم الحرب بالعقيم لأن أولاد النساء يقتلون فيه ، فيصرن كأنهن عقم لم يلدن ، أو لأن المقاتلين يقال لهم : أبناء الحرب ، فإذا قتلوا وصف هذا اليوم بأنه عقيم ، على سبيل المجاز. قال ابن كثير : القول الأول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به ، ولهذا قال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ، يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

والمراد بالآية أن الكفار ما يزالون على كفرهم لا يؤمنون حتى يهلكوا. ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي السلطان والتصرف يوم القيامة يوم الجزاء والثواب والعقاب لله الواحد القهار ، يقضي بينهم بالحق ، وهو الحكم العدل جل شأنه ، كما قال تعالى : ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة ١ / ٤] وقال ﷻ : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ ، وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٢٦].

ونتيجة الحكم تظهر ببيان جزاء كل من الفريقين ، فقال تعالى :

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي فالذين آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وبالقرآن ، وعملوا بمقتضى ما علموا من الأعمال الصالحة بإطاعة أوامره تعالى واجتناب نواهيه ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ، لهم جنات النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا ، فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ أي والذين كفرت قلوبهم بالحق وجحدته ، وكذبوا بالقرآن وبالرسول ، وخالفوا الرسل ، واستكبروا عن اتباعهم ، فأولئك لهم عند ربهم عذاب مذلّ مخز ، مقابل

استكبارهم عن الحق ، وإبائهم النظر في آيات القرآن ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر ٤٠ / ٦٠] أي صاغرين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ هذه تسلية أخرى من الله تعالى لرسوله ﷺ بعد قوله المتقدم : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أي فلا تحزن ولا تتألم لما يردده الكفار على لسان الشيطان ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

٢ ـ الآية تدل على إحكام الوحي وحفظ كتاب الله تعالى وحراسته من أقاويل الشيطان وأباطيله وخرافاته ، فإنه إذا ألقى شيئا من الكلام في ثنايا آيات القرآن الكريم أو حديث النبي ﷺ في نفسه ، فيبطل الله ما ألقى الشيطان ، ويحكم آياته ويثبتها.

فقوله تعالى ﴿تَمَنَّى﴾ و ﴿أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي قرأ وتلا ، وقراءته. وروى البخاري عن ابن عباس في ذلك : إذا حدّث ـ أي النبي ـ ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان. والمعنى : أن النبي ﷺ كان إذا حدّث نفسه ، ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة ، فيقول : لو سألت الله عزوجل أن يغنّمك ليتسع المسلمون ؛ ويعلم الله عزوجل أن الصلاح في غير ذلك ، فيبطل ما يلقي الشيطان ، أي أن المراد حديث النفس. قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعلاه وأجله.

٣ ـ إن في إلقاء الشيطان حكمة وهو أن يجعل فتنة أي ابتلاء واختبارا لفئتين هما المنافقون والمشركون ، وهم الظالمون أنفسهم ، والظالمون أي الكافرون لفي خلاف وعصيان ومشاقة لله عزوجل ولرسوله ﷺ.

٤ ـ قال الثعلبي في آية ﴿لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً ..﴾ : وفي الآية دليل على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والغلط بوسواس الشيطان ، أو عند شغل القلب حتى يغلط ، ثم ينبّه ويرجع إلى الصحيح ؛ وهو معنى قوله : ﴿فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾.

ولكن إنما يكون الغلط على حسب ما يغلط أحدنا ، فأما ما ينسب إليه من قولهم : تلك الغرانيق العلا ، فكذب على النبي ﷺ ؛ لأن فيه تعظيم الأصنام ، ولا يجوز ذلك على الأنبياء ، كما لا يجوز أن يقرأ بعض القرآن ، ثم ينشد شعرا ، ويقول : غلطت وظننته قرآنا.

٥ ـ وحكمة أخرى لإلقاء الشيطان هي أن يعلم المؤمنون أن الذي أحكم من آيات القرآن هو الحق الصحيح الثابت من الله ، فيؤمنوا به ، وتخشع وتسكن قلوبهم ، وإن الله يهدي المؤمنين إلى صراط مستقيم ، أي يثبّتهم على الهداية.

٦ ـ سيظل الكفار في شك من القرآن أو من الدين ؛ وهو الصراط المستقيم ، أو من الرسول ، أو مما ألقى الشيطان على لسان محمد ﷺ ، وهو لم يقله ، فيقولون : ما باله ذكر الأصنام بخير ، ثم ارتدّ عنها؟ ويستمر الشك إلى وقت مجيء زمن الإيمان القسري أو الملجئ فجأة وهو إما يوم القيامة وإما الموت ، وإما يوم الحرب كبدر ، وذلك يوم عقيم. وقد تبين لدينا أن الراجح في تفسير اليوم العقيم هو يوم القيامة ، قال الضحاك : عذاب يوم لا ليلة له ، وهو يوم القيامة. قال الرازي : وهذا القول أولى ؛ لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى : ﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ ويكون المراد يوم بدر ؛ لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر. ولا يكون هناك تكرار بينه وبين قوله ﴿السَّاعَةُ﴾ لأن الساعة من مقدمات القيامة ، واليوم العقيم هو ذلك اليوم نفسه ، كما أن في الأول ذكر الساعة ، وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم. ويحتمل أن يكون المراد

بالساعة : وقت موت كل أحد ، وبعذاب يوم عقيم : القيامة [١].

٧ ـ الملك والسلطان لله وحده يوم القيامة ، دون منازع ، فهو الذي يقضي بالمجازاة بين العباد ، ويكون قرار حكمه أن المؤمنين الذين يعملون الصالحات في جنات النعيم ، وأن الكافرين المكذبين بآيات القرآن في عذاب مهين. وقوله : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ من أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو يوم القيامة.

وعده الكريم بالنصر والجنة للمهاجرين المقاتلين دفاعا عن النفس

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾

الإعراب :

﴿وَمَنْ عاقَبَ﴾ : مبتدأ مرفوع ، بمعنى الذي ، وصلته : ﴿عاقَبَ﴾ وخبره : ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾. وليست ﴿مَنْ﴾ هاهنا شرطية ؛ لأنه لا لام فيها ، كما في قوله تعالى : ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨].

المفردات اللغوية :

﴿وَالَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي تركوا أوطانهم في طاعة الله من مكة إلى المدينة. ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد. ﴿رِزْقاً حَسَناً﴾ هو الجنة. ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أفضل المعطين ، فإنه يرزق بغير حساب.

---

(١) تفسير الرازي : ٢٣ / ٥٦

﴿مُدْخَلاً﴾ أي إدخالا ، أو موضعا يدخلونه ويرضونه وهو الجنة. ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بنياتهم وبأحوالهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ عن عقابهم ، فلا يعاجلهم في العقوبة.

﴿ذلِكَ﴾ أي الأمر ذلك ، أو ذلك الذي قصصناه عليك. ﴿وَمَنْ عاقَبَ﴾ جازى من المؤمنين. أي جازى الظالم بمثل ظلمه. ﴿بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ﴾ ظلما من المشركين ، أي قاتلهم كما قاتلوه في الشهر الحرام ، ولم يزد في الاقتصاص. وإنما سمي الابتداء بالعقاب الذي هو الجزاء عقابا للازدواج والمشاكلة ، أو لأنه سببه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ منهم ، أي ظلم بإخراجه من منزله.

﴿لَعَفُوٌّ﴾ عن المؤمنين. ﴿غَفُورٌ﴾ لهم عن قتالهم في الشهر الحرام. وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة ، فإنه تعالى مع كمال قدرته يعفو ويغفر ، فغيره بذلك أولى ، وفيه أيضا تنبيه على أنه قادر على العقوبة ؛ إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

سبب النزول :

نزول الآية (٦٠):

﴿ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ ..﴾ : أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن مقاتل أنها نزلت في سرية بعثها النبي ﷺ ، فلقوا المشركين لليلتين من المحرم ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد ، فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام ، فناشدهم الصحابة ، وذكروهم بالله أن لا يتعرضوا لقتالهم ، فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام ، فأبى المشركون ذلك ، وقاتلوهم ، وبغوا عليهم ، فقاتلهم المسلمون ، ونصروا عليهم ، فنزلت هذه الآية.

وروى مجاهد أيضا أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة ، فتبعهم المشركون فقاتلوهم.

وظاهر الكلام للعموم.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أن الملك له يوم القيامة ، وأنه يحكم بين عباده المؤمنين والكافرين ، وأنه يدخل المؤمنين الجنات ، أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين

المجاهدين ، وأفردهم بالذكر تفخيما لشأنهم. ثم ذكر وعدا كريما آخر لمن قاتل مبغيا عليه دفاعا عن نفسه ، بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن ، وابتدئ بالقتال.

التفسير والبيان :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ... خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي والذين خرجوا مهاجرين في سبيل الله ، وتركوا أوطانهم وديارهم ابتغاء مرضاة الله ، وطلبا لما عنده ، ثم قتلوا في الجهاد ، أو ماتوا حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم ، فقد حصلوا على الأجر الجزيل ، والثناء الجميل ، وليمنحنهم الله الجنة ، وليرزقنهم من فضله منها ، إن الله خير المعطين الرازقين ، يعطي من يشاء بغير حساب ، كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء ٤ / ١٠٠].

وهذا الرزق الحسن كما قال تعالى :

﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي ليدخلن هؤلاء المهاجرين المجاهدين في سبيله موضعا كريما يرضونه وهو الجنة ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٨٨ ـ ٨٩] أي يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم. وإن الله لعليم بمن يهاجر ويجاهد في سبيله ، وبمن يستحق ذلك ، فهو عليم بالنيات والمقاصد والأحوال ، وحليم أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه ، ولا يعاجل هؤلاء المكذبين بالعقوبة ، ليترك لهم الفرصة للتوبة والإنابة والإيمان بالله تعالى.

﴿ذلِكَ وَمَنْ عاقَبَ﴾ .. ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ أي ذلك الأمر الذي قصصنا عليك من إنجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا ، ومن قوتل ظلما ، وجازى من المؤمنين من اعتدى عليه من المشركين ، ثم بغي عليه بإلجائه إلى الهجرة ومفارقة

الوطن ، وابتدائه بالقتال ، لينصرنه الله نصرا مؤزرا ، ﴿إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي إن الله ليصفح عن المؤمنين ويغفر لهم خطأهم إذا تركوا ما هو الأجدر بهم وهو العفو والمغفرة عن المسيء. وفيه حث على العفو عن الجاني ، كما قال تعالى : ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ، إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٣] وقال : ﴿فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٠] وقال : ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ [البقرة ٢ / ٢٣٧] وفيه دلالة على أنه سبحانه بذكر العفو والمغفرة قادر على العقوبة ؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده ، كما بينا.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على مزية صنفين من الناس : المهاجرين ، والمقاتلين دفاعا عن أنفسهم.

أما المهاجرون : فهم الذين تركوا ديارهم وأوطانهم وأموالهم ، وفارقوا مكة إلى المدينة ، حبا في طاعة الله تعالى ، وابتغاء رضوانه ، فلهم من الله الفضل العظيم ، والعطاء العميم ، والرزق الحسن وهو الجنة ، سواء قتلوا في الجهاد أو ماتوا من غير قتال. وأكد تعالى ذلك بقوله : ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ أي الجنان. والله عليم بنياتهم ، حليم عن عقابهم.

أما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر ، فإنه شهيد حي عند ربه يرزق ، كما قال تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً ، بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٦٩].

وأما من توفي في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة إجراء الرزق عليه ، وعظيم إحسان الله إليه.

روي عن أنس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «المقتول في سبيل الله ، والمتوفى في سبيل الله بغير قتل ، هما في الأجر شريكان» [١].

---

(١) روى النسائي حديثا في معناه عن العرباض بن سارية.

وأما المقاتلون المدافعون عن أنفسهم : فإن الله وعدهم بالنصر في الدنيا ، لبغي الكفار عليهم ، وإن الله عفا عن المؤمنين ذنوبهم وقتالهم في الشهر الحرام ، وستر ذلك عليهم.

وسمي جزاء العقوبة عقوبة في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ﴾ لاستواء الفعلين في الصورة ، مثل : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ [الشورى ٤٢ / ٤٠] ومثل : ﴿فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة ٢ / ١٩٤].

من دلائل قدرة الله تعالى

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾

الإعراب :

﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ﴾ تصبح : مرفوع لا منصوب ، محمول على معنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ومعناه : انتبه يا ابن آدم! أنزل الله من السماء ماء ، ولو صرح بقوله : انتبه ، لم يجز فيه إلا الرفع ، فكذلك ما هو بمعناه.

البلاغة :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ..﴾ الآية : امتنان بتعداد النعم ، والاستفهام للتقرير.

﴿يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ صيغة مبالغة أي مبالغ في الجحود.

المفردات اللغوية :

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ﴾ أي ذلك النصر بسبب أنه قادر على أن يدخل كلا من الليل والنهار في الآخر ، بأن يزيد به ، وقادر على تغليب بعض الأمور على بعض. ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يسمع أقوال عباده المؤمنين والكفار ، بصير بما يصدر عنهم من أفعال.

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُ﴾ أي ذلك الوصف بكمال القدرة والعلم ، والنصر أيضا ، بسبب أن الله هو الثابت في نفسه ، الواجب لذاته وحده ، فإن وجوب وجوده ، ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواه ، عالما بذاته وبما عداه ، أو الثابت الألوهية ، ولا يصلح لها إلا من كان قادرا عالما. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ إلها من الأصنام. ﴿هُوَ الْباطِلُ﴾ الزائل ، المعدوم في حد ذاته ، أو باطل الألوهية. ﴿الْعَلِيُ﴾ العالي على الأشياء بقدرته. ﴿الْكَبِيرُ﴾ عن أن يكون له شريك ، ولا شيء أعلى منه شأنا ، وأكبر منه سلطانا ، وهو الذي يصغر كل شيء سواه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ أي ألم تعلم أن الله أنزل مطرا من السماء وهو استفهام تقرير ، ولذلك رفع ﴿فَتُصْبِحُ ..﴾ عطف على ﴿أَنْزَلَ﴾ إذ لو نصب جوابا للاستفهام ، لدل على نفي الاخضرار ، كما في قولك : ألم تر أني جئتك فتكرمني ، فإن نصبت فأنت ناف لتكريمه ، وإن رفعته فأنت مثبت للتكريم ، والمقصود إثباته. وإنما عدل ب ﴿فَتُصْبِحُ﴾ المضارع عن صيغة الماضي ، للدلالة على بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان. ﴿لَطِيفٌ﴾ بعباده يصل علمه أو لطفه إلى كل ما جل ودق ومنه إخراج النبات. ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة ، وبما في قلوب العباد ، ومنه قلقهم عند تأخير المطر.

﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ خلقا وملكا. ﴿الْغَنِيُ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ﴾ ألم تعلم أن الله جعل جميع ما في الأرض مذللة لكم ، معدّة لمنافعكم. ﴿وَالْفُلْكَ﴾ السفن. عطف على ﴿ما﴾ أو على اسم ﴿أَنَ﴾. ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ للركوب والحمل ، والجملة : حال من ﴿الْفُلْكَ﴾ ، أو خبر. ﴿الْفُلْكَ﴾ على قراءة الرفع على الابتداء. ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه. ﴿أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ من أن تقع أو لئلا تقع ، بأن خلقها على صورة متينة مستمسكة. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا بمشيئته ، وذلك يوم القيامة ، وفيه رد على القول باستمساكها بذاتها. ﴿رَحِيمٌ﴾ بتسخير ما في الأرض ، وإمساك السماء ، والتهيئة لعباده أسباب الاستدلال ، وفتح أبواب المنافع عليهم ، ودفع أنواع المضارّ عنهم.

﴿أَحْياكُمْ﴾ بالإنشاء بعد أن كنتم جمادا : عناصر ونطفا. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انتهاء آجالكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة عند البعث. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود للنعم مع ظهورها ، تارك توحيد الله تعالى.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى عظيم قدرته على تحقيق النصر للمؤمنين ، أتى بأنواع من الدلائل على قدرته البالغة ، من إيلاج الليل في النهار وبالعكس وخلقه لهما وتصرفه فيهما وعلمه بما يجري فيهما ، وإنزال المطر لإنبات النبات ، وخلقه السموات والأرض وملكه لهما ، وتسخيره ما في الأرض والفلك ، وإمساك السماء من الوقوع على الأرض ، والإحياء والإماتة ثم الإحياء.

التفسير والبيان :

أورد الله تعالى في هذه الآيات أنواعا من الدلائل على قدرته البالغة وعلمه الشامل ، ومن كان قادرا على كل شيء ، عالما بكل شيء ، كان قادرا على النصر ، فقال :

١ ـ ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي ذلك النصر المذكور بسبب أنه قادر على كل شيء ، فهو يولج ويدخل الليل في النهار ويولج ويدخل النهار في الليل ، بمعنى زيادة أحدهما على حساب الآخر ، فيزيد في أحدهما من الساعات ما ينقص من الآخر ، فتارة يطول الليل ويقصر

النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف ، فالقادر على ذلك قادر قطعا على نصرة المظلوم ، وإثابة الطائع ، ومجازاة العاصي.

﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي وذلك بسبب أن الله سميع لكل دعاء أو قول ، بصير بكل عمل أو حال ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذا يعني أن الله تعالى هو الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ، الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، كما قال : ﴿قُلِ : اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [آل عمران ٣ / ٢٦ ـ ٢٧].

وعلة هذه القدرة الفائقة ما قال :

﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ﴾ أي ذلك الوصف المتقدم من القدرة الكاملة والعلم التام لله تعالى لأجل أن الله هو الحق ، أي الموجود الثابت الواجب لذاته ، بلا مثيل ولا شريك ، بمعنى أنه هو مصدر الوجود ، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ؛ لأنه ذو السلطان العظيم ، وكل شيء فقير إليه ، ذليل لديه ، وأن ما يعبدون من دونه من الآلهة من الأصنام والأنداد والأوثان ، وكل ما عبد من غير الله هو باطل ، لا يقدر على صنع شيء ، ولا يملك ضرا ولا نفعا ؛ لأنه عاجز ضعيف ، ومصنوع مخلوق لربه القادر.

﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي ولأن الله تعالى المتعالي على كل شيء بقدرته وعظمته ، الكبير عن أن يكون له شريك ، إذ هو العظيم الذي لا أعظم منه ، العلي الذي لا شيء أعلى منه شأنا ، الكبير الذي لا أكبر منه ، ولا أعز ولا

أكبر منه سلطانا ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٥] وقال : ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ [الرعد ١٣ / ٩].

والمقصود : كيف يصح لعبدة الأصنام وأمثالها عبادة من لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ، ويتركون عبادة من بيده كل شيء ، وهو القادر على كل شيء؟!

٢ . ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها ، وهي هامدة يابسة ، فتصبح زاهية نضرة ، مخضرة بالنباتات والأزهار ذات الألوان البديعة ، والأشكال الرائعة ، بعد يبسها وجمودها ، قال الخليل : المعنى انتبه! أنزل الله من السماء ماء ، فكان كذا وكذا. وقوله : ﴿مُخْضَرَّةً﴾ أي ذات خضرة ، على وزن مفعلة كمبقلة ومسبعة ، أي ذات بقل وسباع.

﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي إن الله رحيم لطيف بعباده ، يدبر لهم أمر المعاش ، وأصل علمه أو فضله إلى كل شيء ، عليم بما في أنحاء الأرض من الحب مهما صغر ، خبير بمصالح خلقه ومنافعهم وأحوالهم ، لا يخفى عليه خافية ، فيحقق لهم المصلحة بتدبيره ، كما قال تعالى حكاية عن لقمان : ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ، فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان ٣١ / ١٦] وقال سبحانه : ﴿وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ، وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ ، وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس ١٠ / ٦١].

٣ . ﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ جميع ما في السموات وما في الأرض لله سبحانه خلقا وملكا وعبيدا ، أي جميع الأشياء هي

مخلوقة له ، مملوكة له ، عبيد له ، منقادة خاضعة لأمره ، متصرف فيها كيف يشاء ، وهو غني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، عبد لديه. وهذا دليل آخر على القدرة الإلهية الشاملة.

٤ . ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلم أن الله ذلل لكم أيها البشر جميع ما في ظاهر الأرض وباطنها ، من حيوان وجماد ومعدن وزروع وثمار ، لينتفع بها الإنسان في مصالحه المختلفة ، كما قال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية ٤٥ / ١٣] أي من إحسانه وفضله وامتنانه.

﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي وسخر لكم السفن ، جارية في البحار ، لنقل الركاب والبضائع ، بتسخيره وتسييره ، متنقلة من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، فيتم تبادل الحوائج والمنافع ، ويتعايش الناس متعاونين ، يحققون بها ما يحتاجون إليه ويريدون.

﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي ويحفظ السماء بما فيها من كواكب ونجوم بالجاذبية ، وبتخصيص مدار ثابت خاص لكل منها ، بمشيئته وإرادته ، ولو شاء لأذن للسماء ، فسقطت على الأرض ، فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء من أن تقع على الأرض إلا بإذنه وأمره ، وذلك يوم القيامة حيث تتساقط الكواكب وتتصدع السموات ، كما قال تعالى : ﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ ، وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار ٨٢ / ١ ـ ٢] ولو لا هذا النظام الدقيق لا لاصطدمت الكواكب ببعضها ، ودمرت الأرض بما عليها ، لذا قال :

﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى رؤف رحيم بالناس على ظلمهم ، فمتعهم بجمال السماء والأرض ، وأرشدهم إلى الاستدلال بآيات الكون على وجوده ووحدانيته.

٥ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي وهو الذي أحياكم من العدم ، وخلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم وأعماركم ، والموت ستر ونعمة ، ثم يحييكم بالبعث يوم القيامة. ويلاحظ اختيار الصيغ المناسبة للتعبير ، فهو أولا عبر بالماضي لأنه تم وحدث ، ثم أشار إلى المرحلة المرتقبة وهو الموت ، ثم الحياة الجديدة في عالم الآخرة.

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ أي إن الإنسان جحود نعم الله تعالى ، فلم يقدر تلك النعم ، ويهتدي بها إلى عبادة الله وتوحيده ، وهجر كل ما عداه من الآلهة المزعومة ، وهو مثل قوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات ١٠٠ / ٦].

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ، وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٨] وقوله : ﴿قُلِ : اللهُ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية ٤٥ / ٢٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

موضوع الآيات الاستدلال على كمال قدرته تعالى وكمال علمه ، وتلك الأدلة هي ما يأتي :

١ ـ من آيات قدرة الله البالغة كونه خالقا لليل والنهار ، ومتصرفا فيهما ، فوجب أن يكون قادرا عالما بما يجري فيهما ، وإذا كان قادرا عليما ، كان قادرا على نصر من شاء من عباده ، يفعل ما يلائم الحكمة والمصلحة ، فهو يسمع الأقوال ، ويبصر الأفعال ، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة ، ولا دبيب نملة إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها.

٢ ـ ذلك الوصف المتقدم من قدرة الله على هذه الأمور لأجل أن الله هو الحق أي الموجود الواجب لذاته ، الذي يمتنع عليه التغير والزوال ، فيأتي بالوعد

والوعيد. أو أنه ذو الحق ، فدينه الحق ، وعبادته حق ، والمؤمنون بحق يستحقون منه النصر بحكم وعده الحق.

وأما الأصنام فلا استحقاق لها في العبادات ، والله هو العالي على كل شيء بقدرته ، والعالي عن الأشباه والأنداد ، المقدس عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله. وهو الكبير المتعال أي الموصوف بالعظمة والجلال وكبر الشأن ، الكبير عن أن يكون له شريك.

٣ ـ ومن الأدلة على كمال قدرته إنزال المطر وإنبات النبات ذي الخضرة البديعة ، السارّة لكل عين وقلب ، ومن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت ؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج ٢٢ / ٥].

وقوله ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة.

وفي قوله : ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس : خبير بما ينطوي عليه العبد من القنوط عند تأخير المطر. وهو لطيف بأرزاق عباده.

٤ ـ لله تعالى جميع ما في السموات وما في الأرض خلقا وملكا وعبيدا ، وكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ، وإن الله لهو الغني الحميد ، فلا يحتاج إلى شيء ، وهو المحمود على كل حال ، والكل منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه ، وهو غني عن الأشياء كلها ، وعن حمد الحامدين أيضا ؛ لأنه كامل لذاته ، والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور.

٥ ـ هناك نعم كثيرة من الله على عباده تدل أيضا على قدرته ورحمته

ولطفه ، منها أنه سخر (ذلل) لعباده كل ما في الأرض مما يحتاجون إليه من الدواب والشجر والأنهار ، كما قال : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة ٢ / ٢٩]. وسخر لكم الفلك في حال جريها ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ ، لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٣١] وتسخير الفلك : بتسخير الماء والرياح لجريها.

وهو تعالى يمسك السماء لئلا تقع على الأرض ، فيهلك الناس ، إلا بإذن الله لها بالوقوع أو السقوط ، فتقع بإرادته وتخليته ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم في هذه الأشياء التي سخرها لهم.

٦ ـ ومن دلائل القدرة الإلهية : الإحياء والإماتة ، فالله هو الذي خلقنا بعد أن كنا نطفا ، ثم يميتنا عند انقضاء آجالنا ، ثم يحيينا للحساب والثواب والعقاب ، ولكن الإنسان لجحود لما ظهر من الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته تعالى. قال ابن عباس : يريد الأسود بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام ، وجماعة من المشركين. والأولى ـ كما ذكر الرازي ـ تعميمه في كل المنكرين ، وإنما قال ذلك ؛ لأن الغالب على الإنسان كفران النعم ، كما قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ ٣٤ / ١٣]

وقوله : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ﴾ زجر للإنسان عن الكفران ، وبعث له على الشكر.

لكل أمة شريعة ومنهاج ملائمان

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (٦٨) اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧٠)﴾

البلاغة :

﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ﴾ نهي يراد به النفي ، أي لا ينبغي لهم منازعتك ، فقد ظهر الحق وقامت أدلته.

المفردات اللغوية :

﴿مَنْسَكاً﴾ شريعة ومنهاجا ومتعبدا ﴿ناسِكُوهُ﴾ عاملون به ﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي لا ينبغي لهم أن ينازعوك في أمر الدين ، ومنه أمر الذبيحة ، إذ قالوا : ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم ؛ لأنهم إما جهال وأهل عناد ، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع ﴿وَادْعُ إِلى رَبِّكَ﴾ أي إلى دينه وتوحيده وعبادته ﴿هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سويّ أو دين قويم.

﴿وَإِنْ جادَلُوكَ﴾ في أمر الدين ، وقد ظهر الحق ، ولزمت الحجة ﴿فَقُلِ : اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها ، فمجازيكم عليها ، وهو وعيد فيه رفق.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب يوم القيامة ، كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات ﴿فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ، بأن يقول كل فريق خلاف قول الآخر.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ استفهام تقرير ﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء ﴿إِنَ

﴿ذلِكَ فِي كِتابٍ﴾ أي إن ما ذكر هو في اللوح المحفوظ مسجل فيه قبل حدوثه ، فلا يهمنك أمرهم ، مع علمنا به ، وحفظنا له. ﴿إِنَّ ذلِكَ﴾ إن علم ما ذكر والإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ سهل ؛ لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء.

سبب النزول :

قيل نزلت هذه الآية بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح ، وهم كفار خزاعة ، قالوا للمسلمين : تأكلون ما ذبحتم ، ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ، أو مالكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتله الله؟! فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم ، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة.

المناسبة :

بعد أن عدد الله تعالى نعمه ، وأبان أنه رؤف رحيم بعباده ، وإن كان منهم من يكفر بالله ولا يشكر النعمة ، أتبعه بذكر نعمه بما كلّف ، فقال : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ﴾ أي لكل أمة شريعة خاصة ، وفيه زجر من نازع النبي ﷺ ، بتمسكهم بما شرعوا من الشرائع ، ثم أمره بالثبات على دينه الحق ، فالله يحكم بين العباد يوم المعاد.

التفسير والبيان :

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا هم عاملون به ، أي شريعة ، ومتعبّدا ، ومنهاجا صالحا ، يتلاءم مع مقتضيات الزمان والمكان ، ومع سنة التدريج والتطور ونضوج العقل البشري ، فأنزل التوراة على موسى بنحو من الشدة ، لعلاج التمسك بالمادة ، ثم أنزل الإنجيل متمما لحكم التوراة مع علاج الروح وإشاعة المحبة ، والعناية بجوهر الدين ، لا بمجرد المظاهر والشكليات والطقوس ، ثم أنزل القرآن حينما نضج العقل البشري ، لإرساء معالم دستور الحق ، والجمع بين العناية بالمادة والروح ، والتركيز على معايير

العلم ، واستخدام العقل ، فكان أول دين يضع أسس الحضارة الإنسانية الشاملة ، وكان تشريعه وسطا بين الشرائع ، وكانت هذه الأديان صالحة للزمان الذي جاءت فيه.

﴿فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي إذا كان هذا هو شأن التدرج في الشرائع ، فلا ينبغي لمعاصريك يا محمد أن ينازعوك في أمر الدين ، فلكل أمة شريعة خاصة تناسب الزمان الذي جاءت فيه ، ثم جاء هذا القرآن ناسخا تلك الشرائع التي لم تعد صالحة للعمل بها ، وأدت دورها ، وكانت مقصورة على أتباعها المتقدمين.

فلا تتأثر يا محمد بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ، واثبت على دينك ثباتا لا يتزعزع ولا يلين. والمراد بذلك تهييج حمية الرسول ﷺ ، والمبالغة في تثبيته على دينه.

﴿وَادْعُ إِلى رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ﴾ أي وادع هؤلاء المنازعين وغيرهم ، أي كل الناس إلى سبيل ربك ودينه الحق ، فإنك على طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود ، وهو سعادة الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلى رَبِّكَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص ٢٨ / ٨٧].

﴿وَإِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ : اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ أي فإن عدلوا عن هذه الأدلة إلى طريقة المراء والجدال بالباطل ، بعد أن ظهر الحق ، فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد : الله عليم بما تعملون وبما أعمل ، ومجاز كل واحد بعمله ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي ، وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٤١] وقوله سبحانه : ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٨] لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا اللون من الوعيد والتحذير ، لذا قال تعالى :

﴿اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي الله يقضي بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما اختلفتم فيه من أمر العقيدة والدين ، بالجزاء الحاسم المتردد بين الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، الأول لمن قبل ، والثاني لمن رفض ، فتعرفون حينئذ الحق من الباطل ، والمحق من المبطل.

والخلاصة : إن الآيات آمرة باستمرار الدعوة إلى شرع الله ودينه ، وعدم التمييز بين الناس ، دون مبالاة بجدل المرائين وعرقلة المتخلفين ، فإن الداعي على حق أبلج ، كما قال تعالى : ﴿فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ، وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ ، لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ، لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى ٤٢ / ١٥].

ثم أخبر الله تعالى عن كمال علمه بخلقه وعلمه بالكائنات كلها قبل خلقها وبما يستحقه كل من المسيء والمحسن ، فقال :

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ ، إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ أي لقد علمت أيها الرسول ـ والخطاب وإن كان معه ، فالمراد سائر الناس ـ أن علم الله محيط بما في السموات وما في الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ. وكتابة كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وعلمه الشامل ، وفصله بين عباده يوم القيامة يسير سهل عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يلي :

١ ـ لكل أمة من الأمم المتقدمة شريعة خاصة بها ، صالحة لزمانها ، أي أنه

كانت الشرائع في كل عصر ، ومن الخطأ البيّن التمسك بما كان للأولين من شريعة التوراة والإنجيل ؛ لأن القرآن نسخ ما قبله من الشرائع.

٢ ـ إن خاصم الناس بالباطل ، كمخاصمة مشركي مكة محمدا ﷺ ، فليقل المؤمن : ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب ، وهذا أمر من الله تعالى لنبيه بالإعراض عن مماراة قومه ، صيانة له عن الاشتغال بتعنتهم ، ولا جواب لصاحب العناد ، فإنهم إن أبوا إلا المجادلة بعد الاجتهاد بتسوية النزاع ، فليدفعوا بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها ، وبما تستحقون عليها من الجزاء ، فهو مجازيكم به. وهذا وعيد وإنذار ، ولكن برفق ولين.

٣ ـ الله تعالى هو الذي يحكم بين النبي ﷺ وقومه ، وبين المؤمنين والكافرين فيما يختلفون فيه من أمر الدين ، فيعرف حينئذ الحق من الباطل.

قال القرطبي : في هذه الآية أدب حسن علّمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتا ومراء ألا يجاب ولا يناظر ، ويدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه ﷺ.

٤ ـ على النبي ﷺ والمؤمنين من بعده الدعوة إلى دين الله الحق ، فإن هذا الدين طريق واضح مستقيم مؤد إلى المقصود ، وعلى كل داعية إلى الله وتوحيده وعبادته ألا يعبأ بالعثرات ، وألا يهتم بمراء المجادلين ، ومحاولاتهم الوقوف في وجه الدعوة.

٥ ـ الله عليم بأحوال الناس وبما هم مختلفون فيه ، وإن كل ما يجري في العالم هو مكتوب عند الله في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ ، وإن العلم الشامل بما في السماء والأرض ، والفصل بين المختلفين يسير جدا على الله تعالى. ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء»

وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : «أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، قال : وما اكتب؟ قال : أكتب ما هو كائن ، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

فما العباد عاملون قد علمه الله تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه ، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره ، وهذا يعصي باختياره ، وكتب ذلك عنده ، وأحاط بكل شيء علما ، وهو سهل عليه.

بعض أباطيل المشركين وتحديهم بخلق ذبابة

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)﴾

الإعراب :

﴿قُلْ : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ﴾ : إما خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره هي النار ، و ﴿وَعَدَهَا اللهُ﴾ : استئناف كلام ، وإما أن يكون مبتدأ ، والجملة الفعلية : ﴿وَعَدَهَا اللهُ﴾ خبره.

﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ منصوب على الحال ﴿بَيِّناتٍ﴾ حال.

البلاغة :

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ فيه استعارة ، أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح ، مثل : عرفت في وجه فلان الشر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً﴾ تمثيل ، أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة. وقد سمي الذي جاء به مثلا تشبيها للصفة ببعض الأمثال.

المفردات اللغوية :

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي المشركون ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي الأصنام ﴿ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾ حجة وبرهانا سمعيا يدل على جواز عبادته ﴿وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي حجة عقلية أنها آلهة ، سواء أكان العلم من ضرورة العقل أو استدلاله ﴿وَما لِلظَّالِمِينَ﴾ بالإشراك ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي ناصر ومعين يقرر مذهبهم أو يدفع عنهم العذاب.

﴿آياتُنا﴾ من القرآن ﴿بَيِّناتٍ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الإلهية ﴿الْمُنْكَرَ﴾ المستنكر من التجهم والانتفاخ ، أو الإنكار لها ، كالمكرم بمعنى الإكرام ، أي أثره من الكراهة والعبوس ودلالة الغيظ والغضب ، لفرط نكيرهم للحق ، وهذا منتهى الجهالة. وإشعارا بذلك وضع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ موضع الضمير ﴿يَسْطُونَ﴾ أي يبطشون بهم من شدة الغيظ.

﴿بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ﴾ من غيظكم على التالين ، وبأكره إليكم من القرآن المتلو عليهم ﴿النَّارُ﴾ هو النار ، كأنه جواب سائل قال : ما هو؟ ﴿وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن مصيرهم إليها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هي النار.

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مكة وغيرهم ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ بيّن لكم حال مستغربة أو قصة رائعة أو جعل ، ولذلك سماها مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال ، والمثل : الشبه. ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ للمثل أو

لبيانه استماع تدبر وتفكر ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي تعبدون غيره وهم الأصنام ﴿ذُباباً﴾ اسم جنس ، يقع على المذكر والمؤنث ، واحده : ذبابة وجمعه أذبّة وذبّان ، مثل غراب وأغربة وغربان ، وسمي به لكثرة حركته. وقوله : ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً﴾ أي لا يقدرون على خلقه مع صغره ؛ لأن لن بما فيها من تأكيد النفي دالة على المنافاة بين المنفي والمنفي عنه ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي لخلقه ، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه ، فكيف إذا كانوا منفردين؟!.

﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً﴾ من الطيب والزعفران الملطخين به ﴿لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ لا يستردوه منه لعجزهم ، فكيف يعبدون شركاء لله تعالى؟ هذا أمر مستغرب ، عبر عنه بضرب المثل ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ العابد والمعبود.

﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عظموه حق عظمته ، إذ أشركوا به العاجز عن دفع الذباب عنه والانتصاف منه ﴿لَقَوِيٌّ﴾ قادر على خلق الممكنات بأسرها ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب ﴿يَصْطَفِي﴾ يختار ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي إن الله سميع لمقالتهم ، مدرك للأشياء كلها ، بصير بمن يتخذه رسولا كجبريل وميكائيل وإبراهيم ومحمد وغيرهم عليهم السلام . ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ أي ما قدموا وما أخروا وما عملوا وما هم عاملون بعد ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي إليه مرجع الأمور كلها ؛ لأنه مالكها بالذات ، لا يسأل عما يفعل من اصطفاء الرسل وغيره ، وهم يسألون.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى أنه العليم بكل شيء ، بيّن أن عبادة المشركين لغير الله تعالى لا تعتمد على دليل نقلي أو عقلي ، وهم مع جهلهم وغباوتهم إذا أرشدوا إلى الحق ودليله ، وتلي عليهم القرآن ، ظهر في وجوههم الغيظ والغضب ، وهموا أن يبطشوا بمن يتلو ويذكّرهم ، ولكن ما ينالهم من النار أعظم مما يحصل لهم من الغم حين تلاوة الآيات.

ولما بين أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم ، ذكر ما يدل على إبطال قولهم وجهلهم بعظمة الإله ، ثم انتقل من الإلهيات إلى النبوات ، وأبان أنه يختار الرسل من الملائكة والناس ممن يعلم أنه الأكفاء والأوفق : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤].

التفسير والبيان :

هذه بعض أباطيل المشركين الدالة على جهلهم وكفرهم وسخافتهم فيقول تعالى :

١ . ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ، وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون آلهة من غير الله ، ليس لهم دليل نقلي ولا عقلي على عبادتها ، فهو تعالى لم ينزل من السماء بجواز عبادتها حجة ولا برهانا ، وهو المقصود بالدليل النقلي السمعي ، والمراد من قوله : ﴿ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً﴾ وليس لهم دليل عقلي وهو المراد بقوله : ﴿وَما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ وإذا لم يكن هناك دليل مقبول ، فهو عن تقليد للآباء والأسلاف ، أو عن جهل وشبهه ، وكل ذلك باطل.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١١٧]. وفي الآية إشارة إلى أن الكافر قد يكون كافرا ، وإن لم يعلم كونه كافرا ، ودلالة على فساد التقليد القائم على الجهل.

﴿وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي ليس للكافرين الظالمي أنفسهم من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العقاب أو العذاب.

٢ . ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أي وإذا ذكرت للمشركين آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله ، وأن لا إله إلا الله ، وأن رسله الكرام حق وصدق ، ظهرت على وجوههم دلالة الغيظ والغضب ، وامتلأت قلوبهم حقدا ونفورا.

﴿يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا﴾ أي يكادون أو يقاربون

يبطشون بالذين يحتجون عليهم بدلائل القرآن الصحيحة ، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء. وهذا يدل على غليان قلوبهم بالكفر ، وسيطرة الجهالة والعناد والكفر عليها ، حتى أصبحوا ميئوسا من علاجهم ، وصاروا متمردين على الأنبياء والمؤمنين.

﴿قُلْ : أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين مقابلة لوعيدهم : ألا أخبركم بشر من غيظكم الذي ملأ قلوبكم؟ هو النار التي وعدها الله للكافرين ، فعذابها ونكالها أشد وأشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، بل هو أعظم مما تنالون منهم فعلا ، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم ، وبئس المصير ، أي وبئس النار موئلا ومقاما لكم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦٦].

ثم نبه الله تعالى على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ، وبيان حال هذه الأشباه والأمثال لله في زعمهم ، فقال :

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا﴾ أي يا أيها البشر قاطبة جعل مثل أي شبه لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ، فأنصتوا وتفهموا حال تلك المعبودات ، وإذا فهم حالها يكون حال عابديها أسوأ ، فهم كالأصنام وأسوأ منها ، وحالها هو :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي إن ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأنداد لن يقدروا على خلق ذبابة واحدة ، حتى ولو تعاون واجتمع لهذه المهمة جميع تلك المعبودات. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا قال : «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة» ورواه الشيخان بلفظ آخر: «قال الله عَزَّوَجَلَّ : من أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة».

﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي كما أنهم عاجزون عن خلق ذبابة واحدة ، هناك ما هو أبلغ من ذلك عاجزون من مقاومته والانتصار منه ، فلو سلبوا شيئا مما عليها من الطيب ، لا تقدر أن تستنقذوه منه ، علما بأن الذباب أضعف مخلوقات الله ، لذا قال : ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي عجز الطالب وهو الإله المعبود من استنقاذ الشيء المسلوب من الذباب المطلوب ، أو ضعف عابد الصنم ، والصنم المعبود.

وهذا يدل على جهالتهم وغباوتهم ؛ لأن العابد يتأمل عادة النفع أو دفع الضّرّ من المعبود ، وعابد الصنم لا يحقق لنفسه شيئا ، مما يدل على حقارة الصنم وضعفه ، وغباء عابده ، فكيف يصح جعله مثلا لله في العبادة. ثم قال تعالى مؤكدا عبثهم وجهلهم وعدم معرفتهم حق الله تعالى :

﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته ، وما عظموه حق التعظيم ، حين عبدوا معه غيره ، كهذه المخلوقات الجمادات التي لا تقاوم الذباب لضعفها.

والله هو القوي القادر الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ، العزيز الذي عز كل شيء فقهره وغلبه ، فلا يغالب ولا يمانع ، لعزته وعظمته وسلطانه ، فهو الجدير بالعبادة والتعظيم.

ونظائر الآية كثير منها : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم ٣٠ / ٢٧] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج ٨٥ / ١٢ ـ ١٣] ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات ٥١ / ٥٨].

ثم انتقل بيان الله تعالى من الإلهيات إلى النبوات فقال :

﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي أن الله يختار من الملائكة رسلا لتبليغ الوحي إلى الأنبياء ، ومن الناس لإبلاغ الرسالة إلى العباد ،

حسبما يشاء وعلى وفق ما يريد. قيل : إن الوليد بن المغيرة قال : أو أنزل عليه الذكر من بيننا؟ فنزلت الآية.

﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق اختياره للرسالة.

﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ﴾ أي يعلم علما تاما بأحوال الملائكة والرسل والمكلفين ، ما مضى منها ، وما يأتي فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ، كما قال : ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ . إلى قوله : ﴿وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ [الجن ٧٢ / ٢٦ ـ ٢٨].

﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي وإليه يوم القيامة مرجع الأمور كلها ، فلا أمر ولا نهي لأحد سواه وهذا إشارة إلى القدرة التامة ، والتفرد بالألوهية والحكم. وقوله ﴿يَعْلَمُ .. وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يتضمن مجموعها الزجر عن الإقدام على المعصية.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن عبدة الأوثان مثل كفار قريش يعبدون من غير الله آلهة ، ليس لهم دليل سمعي نقلي أو عقلي ، لذا توعدهم ربهم بقوله : ﴿وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي ناصر ومعين.

٢ ـ إن تأصل الكفر والعناد والاستكبار في نفوس أولئك الكفرة ، جعلهم في أشد حالات الغضب والعبوس والحقد إذا تليت عليهم آيات القرآن ، ويكادون

يبادرون إلى البطش الشديد بمن يحتج عليهم بدلائل القرآن ، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء.

٣ ـ أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقابل وعيدهم بقوله : هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع وأكره من تخويفكم المؤمنين وبطشكم بهم ومن هذا القرآن الذي تسمعون؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ، وعدها الله الذين كفروا يوم القيامة ، وبئس المصير ، أي الموضع الذي يصيرون إليه وهو النار. فهذا وعيد لهم على سطواتهم بالذين يتلون القرآن.

٤ ـ ضرب الله مثلا لحال الكفار وأصنامهم ؛ لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم ، وهو في الحقيقة ليس مثلا ، وإنما هو لما في صفتهم وحالهم من الاستغراب والتعجب سمي مثلا ، تشبيها لتلك الصفة ببعض الأمثال السائرة.

والمعنى : ضربوا لله مثلا فاستمعوا قولهم ؛ يعني أن الكفار جعلوا لله مثلا بعبادتهم غيره ؛ فكأنه قال : جعلوا لي شبيها في عبادتي ، فاستمعوا خبر هذا التشبيه. فالكفار هم ضاربو المثل.

أو أن المعنى : يا أيها الناس ، هذا مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا ، وإن سلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه ، أي أن الله هو ضارب المثل.

والأدق في المعنى : ضرب الله عَزَّوَجَلَّ ما يعبد من دونه مثلا ، أي بيّن الله لكم شبها ولمعبودكم ، فالمثل يشمل العابد والمعبود.

٥ ـ المثل : هو أن الذين تعبدون من دون الله وهي الأوثان التي كانت حول الكعبة ، وعددها ثلاث مائة وستون صنما ، لن يقدروا أن يخلقوا ذبابة واحدة ،

ولن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم أمام ذبابة إذا أراد أن يأخذ شيئا مما عليها ـ على الأوثان ـ من الطيب والزعفران الذي كانوا يطلون به أصنامهم.

لقد ضعف وعجز الطالب وهو الآلهة ، والمطلوب : وهو الذباب ، أو عابد الصنم والصنم المعبود ، فالطالب : يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه ، والصنم : المطلوب إليه.

٦ ـ ما عظّم هؤلاء المشركون الله حق عظمته ، حيث جعلوا هذه الأصنام العاجزة شركاء له ، وهو القادر القهار ، القوي العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ، ومن يجرأ على مغالبته؟!.

٧ ـ الاختيار المطلق لله ﷻ في اصطفاء الملائكة يتوسطون لإبلاغ الوحي إلى الأنبياء ، وفي اصطفاء الرسل من البشر لتبليغ الرسالة إلى الناس. والمراد بالآية : إن الله اصطفى محمدا ﷺ لتبليغ الرسالة ؛ فليس بعثه محمدا أمرا بدعيا.

إن الله سميع لأقوال عباده ، بصير بمن يختاره من خلقه لرسالته. وهو سبحانه عليم بكل ما قدموا وما خلفوا ، وإليه وحده مرجع الأمور كلها ، فيجازي العباد على أعمالهم.

أوامر التشريع والأحكام

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾

الإعراب :

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ مِلَّةَ﴾ : إما منصوب بفعل مقدر ، أي اتبعوا ملة أبيكم ، وإما منصوب على البدل من موضع الجار والمجرور ، وهو قوله : ﴿فِي الدِّينِ﴾ لأنه منصوب بجعل. وإما منصوب بنزع الخافض وهو الكاف ، أي كملة أبيكم إبراهيم ، أي وسع عليكم في الدين كملة إبراهيم ، وهذا بعيد. ويجوز نصبه على الإغراء أو على الاختصاص. و ﴿إِبْراهِيمَ﴾ : عطف بيان.

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ ... وَفِي هذا هُوَ﴾ : يراد به الله تعالى ، أو يراد به إبراهيم. ﴿وَفِي هذا﴾: أي سماكم المسلمين في هذا القرآن ، وفاعل ﴿سَمَّاكُمُ﴾ ضمير يعود على الله أو على إبراهيم.

البلاغة :

﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ مجاز مرسل ، من إطلاق الجزء على الكل ، أي صلوا باعتبار الركوع والسجود من أهم أركان الصلاة.

﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ فيه ذكر العام بعد الخاص للعناية بشأن الخاص ، ثم ذكر الأعم.

المفردات اللغوية :

﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي صلوا. ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وحّدوه وتعبّدوه بسائر ما تعبدكم به.

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي افعلوا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون ، كنوافل الطاعات ، وصلة

الأرحام ، ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا هذه كلها ، وأنتم راجون الفلاح ، غير متيقنين له. والآية آية سجدة عند الشافعية ، لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ، ولقوله ﷺ : «فضلت سورة الحج بسجدتين ، من لم يسجدهما ، فلا يقرأهما».

﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ﴾ أي في سبيله ومن أجله أعداء دينه. ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾ أي جهادا حقا خالصا لوجهه ، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة ، كقولك : هو حق عالم. وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعا ، أو لأنه مختص بالله. والجهاد : استفراغ الوسع في مجاهدة العدو ، وهو ثلاثة أنواع : مجاهدة العدو الظاهر كالكفار ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس والهوى ، وهذه أعظمها ، فقد أخرج البيهقي وغيره عن جابر قال : «قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة ، فقال : قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل : وما الجهاد الأكبر؟ قال : مجاهدة العبد هواه». وروي عنه ﷺ أنه رجع من غزوة تبوك ، فقال : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» [1].

﴿هُوَ اجْتَباكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته ، وفيه تنبيه على مقتضي الجهاد والداعي إليه.

﴿حَرَجٍ﴾ ضيق وعسر ومشقة ، بتكليفكم ما يشق عليكم ، بأن سهله عند الضرورات ، كقصر الصلاة الرباعية ، والتيمم ، وأكل الميتة ، والفطر للمريض والمسافر. وفيه إشارة إلى أنه لا عذر لأحد في ترك التكليف ، فهو إما عزيمة ، وإما رخصة ، قال ﷺ فيما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة : «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ أي شريعته ، وإنما جعل أبا للمسلمين ؛ لأنه أبو رسول الله ﷺ ، وهو كالأب لأمته ، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ، أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته ، فغلّبوا على غيرهم.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل القرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وَفِي هذا﴾ أي القرآن. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ﴾ الضمير يعود إلى الله ، بدليل قراءة : الله سماكم أو لإبراهيم ، لقوله المتقدم : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾. ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ متعلق بسماكم. ﴿شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بأنه بلّغكم ، فيدل على قبول شهادته لنفسه ، اعتمادا على عصمته. ﴿وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم ، أي تكونوا أنتم شهداء على الناس أن رسلهم بلّغوهم.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ﴾ أي فتقربوا إلى الله بأنواع الطاعات ، لما خصكم بأنواع الفضل والشرف. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي وثقوا به في مجامع أموركم ، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه. ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم. ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو ؛ إذ لا مثل له في الولاية والنصرة ، بل لا مولى ولا ناصر سواه في الحقيقة.

---

(١) انظر تخريج الحديث ودرجة ضعفه في كشف الخفا.

المناسبة :

بعد أن تكلم الله تعالى في الإلهيات ، ثم في النبوات ، أتبعه بالكلام في الشرائع والأحكام من نواح أربع هي :

١ ـ تعيين المأمور : وهم المكلفون : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢ ـ وأقسام المأمور به : وهي أربعة : الصلاة ، وعبادة الله وحده ، وفعل الخير ، والجهاد.

٣ ـ وما يوجب قبول تلك الأوامر : وهو ثلاثة : الاجتباء ، وكون التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه السلام ، وتسميتكم مسلمين في القرآن وسائر الكتب المتقدمة عليه.

٤ ـ تأكيد ذلك التكليف بالأمر بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتصام بالله تعالى ، أي الاستعانة به.

التفسير والبيان :

هذه أوامر تكليفية إلهية يراد بها توثيق الصلة بالله تعالى ، وتهذيب النفس ، وجهاد الأعداء ، وإقامة صرح العدالة الاجتماعية في شرع الله ودينه ، فقال تعالى :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. تُفْلِحُونَ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله ، وآمنوا باليوم الآخر صلوا صلاتكم المفروضة المشتملة على الركوع (الانحناء لله عزّ وجلّ) والسجود (الخضوع بأشرف أجزاء الإنسان وهو الوجه لله تعالى) واعبدوه بسائر ما تعبدكم به كمناسك الحج والصيام ونحوها ، وتحروا فعل الخير الذي يرضي ربكم ويقربكم منه من أداء نوافل الطاعات ، وصلة الأرحام ، ومكارم الأخلاق ، وهذا يشمل كل فضيلة في الإسلام ، وفعل الخيرات عام للتكاليف جميعها ، يشمل

ما يصلح علاقة العبد بالرب ، وما يصلح علاقات الناس بعضهم مع بعض. لذا جمعت الآية أسمى درجات التهذيب النفسي والاجتماعي ، فكل ما أمر الله به خير ، لذا قال معللا ذلك الأمر بقوله :

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتفلحوا أو افعلوا هذا راجين الفوز والفلاح بما عند الله من الثواب والرضوان. والفلاح : الظفر بنعيم الآخرة.

وتأكيدا لإعداد الذات المؤمنة وتهذيبها ، وصونا للجماعة المؤمنة من كيد أعدائها أمر الله بالجهاد ، فقال :

﴿وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ﴾ أي وجاهدوا في سبيل نصرة دين الله ، ومن أجل إرضاء الله ، جهادا حقا خالصا لوجهه الكريم ، لا يشوبه رياء ، ولا يثني عنه لوم لائم ، فالجهاد في الله : معناه الجهاد في سبيله ومن أجل دينه ، والأولى أن يحمل الجهاد على المعنى العام الذي يشمل جميع أنواعه.

والجهاد أنواع ثلاثة كما بينا : جهاد النفس والهوى ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار المعتدين والمنافقين المرجفين. ويكون الجهاد الأخير بالأموال والألسن والأنفس ، أخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال : «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» وجهاد اللسان يكون بالحجة والبيان والاعلام ، والجهاد بالنفس بحمل السلاح يكون للمعتدين ، وهو فرض كفاية على المسلمين ، يجزئ فيه قيام بعضهم به متى حققوا المطلوب ، وإلا فعلى حسب رأي الحاكم ولو بالنفير العام.

وجهاد النفس أصل لجهاد العدو الظاهر ، فهو الجهاد الأكبر كما وصفه الرسول ﷺ في الحديث المتقدم ، ولهذا كان فرض عين على كل مسلم. وكذلك جهاد أهل الظلم والبدع فريضة على كل مكلف على قدر طاقته ، كما قال رسول الله ﷺ . فيما يرويه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله

عنه ـ : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان».

ونظير الآية : ﴿وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ، فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ ، وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٥١ ـ ٥٢].

والآية محكمة غير منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن ٦٤ / ١٦] فليس المقصود بقوله : ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾ الغاية القصوى التي تتجاوز الوسع وحد الاستطاعة ، وإنما المراد الإخلاص لإعلاء دين الله ، وتأييد شرعه ، والتدرع بالقوة والعزيمة والصبر ، والترفع عن المطامع المادية كالغنيمة أو غيرها من شهوات الدنيا.

وإضافة ﴿حَقَ﴾ إلى «جهاد» في قوله تعالى : ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾ من إضافة الصفة للموصوف ، كما بينا ، وإضافة «جهاد» للضمير في قوله : ﴿جِهادِهِ﴾ يراد بها اختصاص المضاف بالمضاف إليه ، وهو جعل الجهاد مطلوبا لله ومن أجل دينه.

ثم ذكر الله تعالى علة الأمر بالجهاد وهي ثلاثة أنواع :

١ ـ ﴿هُوَ اجْتَباكُمْ﴾ أي لأن الله أيتها الأمة اختاركم من بين سائر الأمم للقيام بهذه المهمة ، وفضلكم وشرفكم ، وخصكم بأكرم رسول ، وأكمل شرع ، ولكنه غير شاق ، لذا قال:

﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي لم يجعل الدين ضيقا حرجا شاقا ، وإنما جعله سهلا يسيرا ، فلم يكلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم ، وهذا تأكيد لوجوب الجهاد ، والحفاظ على الدين الذي اختاركم لحمايته. والآية كالجواب عن سؤال يذكر ، وهو أن التكليف والاجتباء تشريف من الله

للعبد ، لكنه شديد شاق على النفس؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

لكن المشقة المرفوعة في التكاليف الشرعية : هي المشقة الزائدة غير المعتادة التي تصل إلى حد الحرج. أما المشقة المعتادة المألوفة فهي غير مرفوعة من التكاليف ، بل لا يتحقق التكليف إلا بها ؛ لأن التكليف هو إلزام ما فيه كلفة ومشقة ، ولا يخلو عنها أي تكليف ، لكنه سهل يسير على النفس ، تطيق تحمله دون انزعاج.

ومظاهر التيسير ودفع الحرج والمشقة عامة شاملة العبادات والمطعومات والمعاملات. ففي العبادات : يجوز قصر الصلاة الرباعية في السفر ، فتصلي ثنتين ، والصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وفي الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة ، كما ورد به الحديث ، وتصلى رجالا وركبانا ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، وكذا النافلة في السفر تصلى إلى القبلة وغيرها. ويسقط القيام في الصلاة لعذر المرض ، فيصلي المريض جالسا أو مضطجعا أو على جنب أو بالإيماء.

ويجوز في صيام رمضان الإفطار لعذر لكل من المسافر والمريض والشيخ الهرم ، والحامل والمرضع.

وفي المطعومات : يجوز الأكل والشرب من المحرّمات المحظورات للضرورة ، كالميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك.

وفي المعاملات : يجوز بعض التصرفات للحاجة أو للضرورة.

وهكذا تشرع الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات ، لهذا قال ﷺ فيما رواه أحمد عن جابر : «بعثت بالحنيفية السّمحة» وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن فيما أخرجه البخاري ومسلم : «بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا».

والآيات في هذا المعنى كثيرة ، مثل قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة ٢ / ١٨٥] وقوله سبحانه : ﴿رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا﴾ [البقرة ٢ / ٢٨٦] وقوله عزّ وجلّ : ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن ٦٤ / ١٦].

٢ ـ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ﴾ أي اتبعوا أو الزموا ملتكم التي هي كملة أبيكم إبراهيم عليه السلام في حنيفيتها وسماحتها وبعدها عن الشرك. والمراد بالملة : الأحكام الأصلية الاعتقادية ، فهي واحدة في شريعتنا وشريعة إبراهيم عليه السلام ، بل هي واحدة في جميع الشرائع ؛ قال الله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ، وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى ٤٢ / ١٣] وقال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٢٥] وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم وأبو داود وأحمد : «الأنبياء أولاد علّات» أي أن إيمانهم واحد ، وشرائعهم مختلفة.

وسبب تخصيص إبراهيم عليه السلام بالذكر هو التشابه في السماحة والتوحيد بين الملتين ، وكون أكثر العرب من نسل إبراهيم عليه السلام ، فهم يحبونه ، والحب مدعاة التمسك بشريعته وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي هي شريعة أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وبما أن إبراهيم هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبا لأمته ؛ لأن أمة الرسول في حكم أولاده.

ونظير الآية قوله عزّ وجلّ : ﴿قُلْ : إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾ [الأنعام ٦ / ١٦١].

٣ ـ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هذا﴾ أي إن الله ـ وقيل : إبراهيم ـ ، هو الذي سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ، وفي القرآن. قال ابن كثير

مرجحا المعنى الأول بعود الضمير إلى الله : وهذا هو الصواب ؛ لأنه تعالى قال : ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. وفي قراءة : الله سماكم.

واما دليل من قال بعود الضمير إلى إبراهيم عليه السلام : فهو قوله تعالى : ﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا ، أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٨].

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم ، ليكون الرسول محمد ﷺ شهيدا عليكم يوم القيامة بتبليغه ما أرسل به إليكم أي أنه قد بلغكم ، ولتكونوا شهداء على الناس في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم.

واللام في قوله : ﴿لِيَكُونَ﴾ إما لام العاقبة ، وهي متعلقة بقوله : ﴿سَمَّاكُمُ﴾ وإما لام التعليل ، وتكون ﴿عَلَى﴾ في قوله : ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بمعنى اللام ، مثل قوله تعالى : ﴿وَما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة ٥ / ٣] وتكون شهادة الرسول لهم : أن يزكيهم عند الله يوم القيامة ، ويشهد بعدالتكم إذا شهدوا على الأمم السابقة.

والراجح أنه لا داعي لوصف اللام بما ذكر ، ويكون قبول شهادة الرسول ﷺ على الأمة علة في الحكم وهو تسميتها أمة مسلمة.

وقبول شهادة النبي ﷺ وشهادة أمته يوم القيامة فيه تشريف للنبي ﷺ وتشريف لأمته ، فإن الله تعالى يصدّق قوله على أمته في دعوى تبليغه إياها ، ويجعل أمته أهلا للشهادة على سائر الأمم.

وإنما قبلت شهادتهم على الأمم ؛ لأنهم لم يفرقوا بين أحد من الرسل ، وعلموا أخبارهم من القرآن الكريم ، ورد أنه يؤتى بالأمم وأنبيائهم ، فيقال للأنبياء : هل

بلّغتم أممكم؟ فيقولون : نعم بلغناهم ، فينكرون ، فيؤتى بهذه الأمة ، فيشهدون أنهم قد بلغوا ، فتقول الأمم لهم : من أين عرفتم؟ فيقولون : عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق.

ومقابلة لهذه النعمة العظيمة على الأمة ووجوب شكرها ، طلب الله منها دوام عبادته والاعتصام به ، فقال :

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي فقابلوا هذه النعمة الجليلة بالقيام بشكرها ، فأدّوا حقّ الله عليكم بطاعته فيما افترض وأوجب ، وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة أي أداؤها تامة الأركان والشروط بخشوع كامل وخضوع تام لله ، فهي صلة بينكم وبين ربكم ، وإيتاء الزكاة التي هي طهرة للنفس والمال ، وإحسان واجب إلى خلق الله المستحقين ، وهي دليل التعاون والتضامن والإخاء ، واستعينوا بالله والجؤوا إليه في جميع أموركم. والاعتصام بالله : هو الثقة به ، والالتجاء إليه ، والاستعانة بقوته العظمى على دفع كل مكروه ، وهو ناصركم على من يعاديكم. والمولى : هو الحافظ والناصر والمالك والخالق.

﴿فَنِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم المولى المتولي أموركم ، ونعم الناصر ، العظيم النصرة ، الكامل المعونة ، هو أي الله تعالى. وهو المخصوص بالمدح.

فقه الحياة أو الأحكام :

ظاهر هذه الآيات التي ختمت بها سورة الحج أنها جمعت أنواع التكاليف الدينية والاعتقادية والاجتماعية ، وأحاطت بفروع الشريعة ، وعنيت بأمر الصلاة لأنها عماد الدين ، ولم تكتف بطلبها في عموم العبادات.

ودلت على ما يأتي :

١ ـ وجوب أربعة أمور : هي الصلاة المشتملة على أهم أركانها وهو الركوع والسجود ، وعبادة الله دون غيره ، وفعل الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة ، وفعل الخير كصلة الرحم ومكارم الأخلاق. وقد اختلف العلماء في قوله : ﴿وَاسْجُدُوا﴾ أهو سجود الصلاة أم سجود التلاوة؟ فقال الشافعية والحنابلة : هذه سجدة تلاوة ؛ لأنه يمكن حمل اللفظ على حقيقته مع عدم صارف يصرفه إلى معنى آخر ، ومعنى السجود : وضع الجبهة على الأرض ، ولما أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ : «فضّلت سورة الحج بسجدتين ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما». وأخرج أبو داود وابن ماجه والدارقطني والحاكم عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن ، منها ثلاث في المفصّل ، وفي الحج سجدتان.

وذهب الحنفية والمالكية إلى أن هذه الآية ليست آية سجدة ؛ لأن اقتران السجود بالركوع دليل على أن المراد به سجود الصلاة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٤٣]. ولما روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه عدّ السجدات التي سمعها من رسول الله ﷺ ، وعدّ في الحج سجدة واحدة. وأما حديثا عقبة وعمرو فضعيفان.

ويكون المراد بالآية على هذا الرأي الصلاة المفروضة ، وخص الركوع والسجود تشريفا للصلاة ، وهو ما سرت عليه في التفسير والاستنباط.

٢ ـ وجوب عبادة الرب تعالى ، أي امتثال أوامره.

٣ ـ الندب إلى فعل الخير فيما عدا الواجبات التي صح وجوبها شرعا.

٤ ـ وجوب الجهاد بأنواعه الثلاثة : جهاد الهوى والنفس وجهاد الشيطان ومطاردة وساوسه ، وجهاد أهل الظلم والبدع ، وهي كلها فرض عين على كل فرد

مسلم. روى الترمذي وابن حبان عن فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ قال : «المجاهد : من جاهد نفسه لله عَزَّوَجَلَّ ». وروى أحمد وابن ماجه والطبراني والبيهقي عن أبي أمامة عن النبي ﷺ : «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» وقد ذكرت حديث : «من رأى منكم منكرا ...».

وجهاد الكفار والمنافقين بالحجة والبيان ، وبالسيف والسنان واجب أيضا ، وهو فرض كفاية على جماعة المسلمين ، يجزي فيه قيام بعضهم إذا تحقق المقصود ، وطرد العدو ، وتم دفعه عن بقية المسلمين وأموالهم وأعراضهم وبلادهم ، فإن لم يتحقق ذلك كان فرض عين على كل واحد من القادرين على القتال. وهذا حينما كان الاعتماد على العنصر البشري في الحروب أمرا ضروريا وأساسيا ، أما اليوم حيث تطورت وسائل القتال ، فلا يصح حشد المسلمين في جبهة واحدة مثلا لحصادهم بقنبلة واحدة أو بغيرها من الوسائل الحربية الفتاكة الحديثة ، وإنما ينظر الحاكم فيما يحقق المصلحة ، وتقتضيه الحاجة ، بعد الأخذ بوسائل الإعداد الحديثة المكافئة لما هو موجود عند الأعداء.

٥ ـ علة التكليف بالتكاليف السابقة ثلاثة أمور :

أ ـ الاجتباء أي الاصطفاء والاختيار للدفاع عن الدين والتزام أمره ، وهذا تأكيد للأمر بالمجاهدة ، أي وجب عليكم أن تجاهدوا ؛ لأن الله اختاركم له. وزيادة في التأكيد والترغيب رفع الله الحرج ، أي الضيق والعسر عن الناس في المطالب الشرعية ، وهذا عام في كثير من الأحكام ، وهو مما خص الله به هذه الأمة. قال قتادة : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم يعطها إلا نبي : كان يقال للنبي : اذهب فلا حرج عليك ، وقيل لهذه الأمة : ﴿**وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾. والنبي شهيد على أمته ، وقيل لهذه الأمة : ﴿**لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة ٢ / ١٤٣]. ويقال للنبي : سل تعطه ، وقيل لهذه الأمة :

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر ٤٠ / ٦٠].

فرفع الحرج من الأسس التي قام عليها التشريع الإسلامي ، قال العلماء : رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، واما السلابة والسّرّاق وأصحاب الحدود ، فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين.

ب ـ كون ملتنا كملة أبينا إبراهيم عليه السلام ، وهو أبو العرب قاطبة.

ج ـ تسمية الله لنا بالمسلمين في الكتب المتقدمة وفي القرآن.

٦ ـ تقبل شهادة الرسول ﷺ على الأمة بتبليغه إياهم أحكام شرع الله ، وقبول شهادته علة لعدالة الحكم وهو التسمية بالمسلمين ، وكذلك قبول شهادة أمته على الأمم الأخرى ان رسلهم قد بلغتهم علة في تسميتها مسلمة كذلك ، وقبول الشهادتين تشريف للنبي ﷺ ولأمته.

٧ ـ إن قبول شهادة الأمة المسلمة على الأمم الأخرى نعمة عظمي تستوجب الشكر بأداء الفرائض واجتناب النواهي المحظورات ، ومن أهم ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله ، أي الثقة به ، والاستعانة بقوته الجبارة على دفع السوء ؛ لأنه مالكنا وخالقنا ، وحافظنا وحامينا ، وناصرنا على أعدائنا.

آمنت بالله

انتهى الجزء السابع عشر

فهرس

الجزء السابع عشر

الموضوع	الصفحة
سورة الأنبياء	٥
تسميتها ومناسبتها لما قبلها	٥
فضلها ومزيتها ومشتملاتها	٦
غفلة الناس عن الحساب يوم القيامة ودليل ذلك	٨
بشرية الرسل وإنجاز الوعد لهم وجعل القرآن عظة	١٨
الإنذار بعذاب الاستئصال والتذكير بعجائب الخلق	٢٢
توبيخ المشركين وإثبات الوحدانية	٣١
توبيخ آخر المشركين على عدم تدبر آيات الكون الدالة على وجود الإله الواحد	٤٢
موت جميع الخلائق ومجيء القيامة أو عذاب النار بغتة	٥٠
حرامة الله وحفظه للإنسان وعدل الحساب	٦٠
القصة الأولى ـ قصة موسى عليه السلام	٦٧
مقارنة بين خصائص التوراة وخضائص القرآن	٦٧
القصة الثانية ـ قصة إبراهيم عليه السلام	٧١
١ ـ إنكار عبادة الأصنام والدعوة إلى توحيد الله تعالى	٧١
٢ ـ النقاش الحاد بين إبراهيم وقومه بعد كارثه تكسر الأصنام	٧٧
٣ ـ الانتصار الساحق لإبراهيم ـ نجاته من النار	٨٢
٤ ـ نعم أخرى على إبراهيم وإنجاؤه مع لوط إلى الأرض المباركة	٨٧

القصة الثالثة ـ قصة لوط عليه السلام ٩١
القصة الرابعة ـ قصة نوح عليه السلام ٩٤
القصة الخامسة ـ قصة داود وسليمان عليهما السلام ٩٦
القصة السادسة ـ قصة أيوب عليه السلام ١٠٨
القصة السابعة ـ قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام ١١٢
القصة الثامنة ـ قصة يونس عليه السلام ١١٤
وحدة الرسالات السماوية والسنة الإلهية ١٢٦
أحوال الكافرين والمؤمنين في الآخرة وحال السماء فيها ١٣٣
نبي الرحمة المهداة ١٤٢
سورة الحج ١٤٨
تسميتها وصلتها بما قبلها ١٤٨
مشتملاتها ١٤٩
الأمر بتقوى الله تعالى ١٥٠
الاستدلال بخلق الإنسان والنبات على البعث ١٥٥
أحوال الناس ـ الجدال بالباطل والإيمان المضطرب وجزاء المؤمنين الصالحين ١٦٤
الفصل الإلهي بين الأمم وخضوع كل م في الكون لعزة الله ١٧٥
جزاء الكافرين والمؤمنين ١٧٩
المنع من المسجد الحرام ١٨٦
تعيين مكان البيت الحرام والأمر بالحج إليه ١٩١
تعظيم حرمات الله وشعائره ٢٠٣
التسمية عند ذبح البدن والأكل والإطعام منها ٢١٥

دفاع الله عن المؤمنين وأسباب مشروعية القتال ٢٢٣
الاعتبار بهلاك الأمم السابقة..... ٢٣٤
تحديد مهمة النبي ﷺ ٢٤٢
إحكام الوحي وصونه عن الشياطين ـ قصة الغرانيق ٢٤٥
وعده الكرين للمهاجرين والمقاتلين دفاعاً عن النفس..... ٢٥٥
من دلائل قدرة الله تعالى ٢٥٩
لكل أمة شريعة ومنهاج ملائمان ٣٦٨
بعض أباطيل المشركين وتحديهم بخلق ذبابة..... ٢٧٣
أوامر التشريع والأحكام ٢٨٣